التاريخ و حركة التقدم البشرى و نظرة الاسلام

الشيخ محمدمهدى شمس الدين



التاریخ و حرکهٔ التقدم البشری و نظرهٔ الاسلام

کاتب:

علی الخلیلی

نشرت فی الطباعهٔ:

محمد مهدی شمس الدین

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

التاريخ و حركة التقدم البشرى و نظرة الاسلام

اشارة

نوع: كتاب
پديدآور: شمس الدين، محمدمهدى ۱۹۳۱-۲۰۰۱م.,Shams al-Din, Muhammad Mahd
عنوان و شرح مسئوليت: التاريخ و حركة التقدم البشرى و نظرة الاسلام [منبع الكترونيكى] / تأليف محمد مهدى شمس الدين
ناشر: موسسه تحقيقات و نشر معارف اهل البيت (ع)
توصيف ظاهرى: ۱ متن الكترونيكى: بايگانى HTML؛ داده هاى الكترونيكى (۱۷۶ بايگانى: ۵۴۶.۴KB)
يادداشت: كتابنامه به صورت زيرنويس
موضوع: تاريخ اسلام

صفحه ۰۰۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الاسلام تأليف الشيخ محمد مهدى شمس الدين

(۴)

صفحه ۰۰۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۵

أى بنى. إنى وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلى، فقد نظرت فى أعمالهم، وفكرت فى أخبارهم، وسرت فى آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره...

من وصية الإمام على (ع) إلى ولده الإمام الحسن (ع)

(۵)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، الإمام الحسن بن على المجتبى عليهما السلام (۱)، يوم عرفة (۱)، الوصية (۱)

صفحه ۰۰۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹

كلمة المؤسسة والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد..

فإنه إذا كان الهدف من دراسة التاريخ هو مجرد اجترار الأحداث، أو لتكون محض ترف فكرى، ونشوة خاوية.. فإن قصارى جهد دراسة كهذه سيكون: هو أن يتمطى الفكر فى قيوده وأغلاله - فى بسمة حلم عارضة.. ثم لا يلبث أن يعود ليدفن نفسه تحت ركام من

الأحلام فى مطاوى الفراغ، والخنوع.. ثم النسيان..

وإنما تصبح دراسة التاريخ، وفلسفته، وآثاره، ذات قيمة، وفاعلية، وجدوى.. حينما يراد لها أن تتحول، لتكون عب ء مسؤولية، وبداية حركة، ونبضات حياة..

وبديهى.. أنه من أجل أن تكون كذلك.. لا بد من أن تصبح قادرة على أن تعكس الواقع التاريخى، كما هو، ومن دون أى زيادة أو نقصان.. وكذلك من دون أى تزوير أو تحرير..

ومعنى ذلك: هو أن على هذه الدراسة لكى تكون على مستوى من الدقة والأمانة.. أن تتحرى أسلوب المحاكمة النزيهة والموضوعية للأحداث، والوقائع، أو فقل لما يدعى أنه منها..

وأن تعتمد الأصولية العلمية الصحيحة فى بحوثها، وكذلك فى مجال التحليل، والاستنتاج، والتقييم..

وإذا كنا نعلم: أن أوثق من يمكن الاعتماد عليهم فى إعطاء صورة واقعية وواضحة عن أى حدث كان، وعن علله وأسبابه.. هم أولئك الذين عاصروه وعايشوه، وعاينوه عن قرب..

(۹)

مفاتيح البحث: يوم القيامة (۱)، الصّلاة (۱)، الهدف (۱)

صفحه ۰۰۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰

فإننا نجد: أنه حتى هؤلاء.. بل وحتى كثير من الذين شاركوا فى صنع ذلك الحدث لا يستطيعون: أن يقدموا صورة واضحة المعالم عن ذلك الحديث المفترض، ولا عن علله وأسبابه، وآثاره ونتائجه.. بل قد نجدهم يعطون تفسيرات مختلفة.. بل وحتى متباينة أحيانا.. رغم افتراضنا مسبقا: أنهم جميعا صادقون فى رغبتهم بإعطاء الحقيقة، كل الحقيقة فى هذا المجال..

وما ذلك.. إلا ـ لأن الناس يختلفون فى مستويات إدراكهم ووعيهم، وفى نسبة اطلاعهم على جزئيات وظروف ذلك الحدث. الأمر الذى يؤثر على قدرتهم على فهمه واستيعابه أحيانا، ثم على ربطه بغيره، فضلا عن ادراك علله وأسبابه.. ثم آثاره ونتائجه على النحو الأفضل والأتم..

كل ذلك.. فيما لو كان الحدث عاديا، لا ـ يوجد من يهتم بالتلاعب فيه، أو بالتعتيم عليه.. فكيف إذن تكون الحال بالنسبة لتلك الأحداث، التى تشارك فى صنعها أيد خفية، وتعمل على تزييف التعتيم أو على كثير من الحقائق.. ثم على التحوير والتزوير فيها، وفى خصوصياتها وملامحها..

وإذا كانت الأحداث التى دونت ووصلت إلينا أكثرها أو كثير منها ولا ـ سيما أكثرها حساسية، وأعظمها أهمية هى من هذا النوع بالذات.. فإننا ندرك: مدى حاجتنا إلى الناقل الخبير، والناقد البصير فى هذا المجال.. كما أننا ندرك مدى أهمية وتأثير الوسائل التى لا ـ بد لنا من الاستفادة منها فى الوصول إلى الحقائق، التى أريد لسبب أو لآخر إحاطتها بستار من الكتمان، أو بقاؤها رهن الإبهام والغموض..

وبعد كل ما تقدم.. فإننا إذا كنا نعلم: أننا كلما قربنا من مصدر الوحى والرسالة، والإمامة والعصمة، فإننا نكون أبعد عن المغالاة والتجنى، وعن الوقوع فريسة للخداع والتضليل.. لأن هذا هو المصدر الوحيد، الذى لا يعتريه خلل فى الرؤية للواقع الموضوعى، ولا نقص فى إدراكاته لحقيقة ما يجرى، ولا مجال للحيلولة بينه وبين الواقع، واطلاعه عليه كما هو، ومن دون أى تحوير أو تزوير..

- إذا كنا نعلم ذلك - فإن النهل من هذا النمير العذب، والاستقاء من هذا المنبع الصافى، والاعتماد عليه فى التعرف على الأحداث والوقائع، وكل ما يرتبط بها أو يعود إليها، يصبح أكثر أهمية وخطرا، وأعظم بركة وأثرا..

حتى إذا تعـذر علينا التعرف على نفس الحـدث عن هذا الطريق.. فلا أقل من امتلاك الرؤية، ثم اعتماد المعايير والأسـس، وبعد ذلك الوسائل والأساليب الصحيحة

(۱۰)

صفحه ۰۰۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١١

التى يرى أهـل بيت العصـمة، والإمامـة، ومعـدن الوحى والرسالـة، أنهـا تنفع فى الوصول إلى ذلك الهـدف المنشود، فى مجال التقييم الصحيح والسليم للأحداث، ومحاكمتها، ثم قبولها أو رفضها، إذا اقتضى الأمر أيا من الرفض، أو القبول..

أو على الأقـل.. تقـل معهـا احتمالاـت الخطـأ والزيغ، والوقوع فى متاهـات التفسـيرات، والتكهنات الخاطئـة والناقصـة، التى يتعرض لها الباحثون فى التراث بصورة عامة..

ومؤسـسة نهـج البلاغـة.. قـد وجـدت فى هـذا الكتاب: حركة التاريخ عند الإمام على عليه السـلام الذى هو من تأليف سـماحة العلامة الجليل البحاثة الشيخ محمد مهدى شمس الدين خطوة واسعة وموفقة فى هذا الإتجاه..

ولأجل ذلك.. فقد بادرت لتقديمه إلى القراء الكرام، على أمل أن يجدوا فيه ما ينقع الغلة، ويبل الصدى..

ونسأل الله أن ينفع به.. ويجعله خالصا لوجهه الكريم.. وهو الموفق والمسدد، وهو المعين والهادى..

مؤسسة نهج البلاغة

(۱۱)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (٢)، الكرم، الكرامة (٢)، الوراثة، التراث، الإرث (١)، الهدف (١)، الوسعة (١)

صفحه ۰۰۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٣

مقدمة التاريخ هو حركة الشئ فى محيطه خلال الزمان، وبعبارة أخرى: التاريخ هو عملية التحول والتغير والانتقال (الصيرورة) من حالة إلى حالة، التى تعترى الشئ أو ينجزها الشئ من خلال علاقته بعناصر محيطة عبر الزمان.

وقـد كـان الشـئ فى النظرة السائـدة قـديما يعنى الإنسـان فقـط، ويعنى - بصورة محـددة - الفعاليات الإنسانيـة: المجتمع والمؤسـسات السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية.

لقد كان التاريخ علم حركة الإنسان من خلال محيطه فى الزمان، ولكن العصـر الحديث شـهد تطورا فى مدلول هذا المصـطلح فاتسع ليشمل كل شئ فى الطبيعة والحضارة:

الأـرض، والمعـادن، والنباتـات، والحيوان، والأفكـار، والعلوم.. وغير ذلـك إلى جانب الفعاليات الإنسانيـة، وغـدا فى وسع المؤرخ ذى النظرة الشاملة أن يدعى أن التاريخ كالفلسفة ذو موضوع شامل لكل ما يمكن أن يدخل فى الوعى البشرى.

ولعـل بعض المؤرخين المسـلمين العظـام كانوا قـد انتهوا فى تفكيرهم إلى حافـة هـذه النظرة التى تعطى التاريـخ مفهوما شاملا يتجاوز الفعاليـات الانسانيـة، فنلاحـظ أنهم أدخلوا فى كتاباتهم التاريخيـة معلومات جغرافيـة أو فلسـفية، والمسـعودى فى كتابه مروج الـذهب ومعادن الجوهر مثال بارز على ذلك.

ولكن هذه النظرة الشمولية لا تعنينا هنا. إن عنايتنا موجهة نحو تاريخ الإنسان.

وربمـا أمكن رد كـل فروع التاريـخ الأخرى - فى النظرة الشـمولية الحديثـة - إلى تاريـخ الإنسان، من حيث أنها تؤرخ لبعض نشاطاته

(تاريخ العلوم، الفنون والآداب، الفلسفة) أو تؤرخ لبيئته (النبات، الحيوان، طبقات الأرض).

(۱۳)

مفاتيح البحث: كتاب مروج الذهب للمسعودى (۱)، العصر (بعد الظهر) (۱)

صفحه ۰۰۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۴

وإذن، فالتاريخ هو حركة الإنسان فى محيطه خلال الزمان، وقد يعالج التاريخ حركة الإنسان فى مجتمع معين أو فى إطار ثقافة معينة، وقد يتسع ليعالج حركة الإنسان على صعيد عالمى.

ولا شك فى أن فكرة العالمية لدى المؤرخين المسلمين قد جاءتهم من القرآن الكريم حيث صور حركة الإنسانية من خلال عرضه لحركة النبوات فى الأمم والشعوب، كما أنهم استفادوا فى تعزيز نظرتهم العالمية من علم الأنساب الذى تحدر إليهم من التقليد الجاهلى القديم، ثم دخل - كغيره من المعارف العربية والإسلامية - عصر التدوين. وليس المهم هنا جانب الصدق التاريخى فى علم الأنساب، وهو أمر مشكوك فيه، وإنما المهم ما تعطيه المعرفة النسبية من إدراك لترابط الشعوب والقبائل وعلاقاتها الداخلية، هذا الإدراك الذى يتجاوز بالمؤرخ حدود الجغرافيا والقبلية أو القومية ليفتح بصيرته على مدى أرحب.

على هذا المدى الرحب كان الإمام على بن أبى طالب عليه السلام يتعامل مع التاريخ، لا كمؤرخ وإنما باعتباره رجل عقيدة ورسالة، ورجل دولة وحاكما، ولم يكن يستخدم التاريخ كمادة وعظية فقط وإنما كان يستهدف أيضا منه النقد السياسى والتربية السياسية لمجتمعه والتوجيه الحضارى لهذا المجتمع.

ونحاول فى هذا الكتاب أن نجلو نظرة الإمام على (ع) إلى حركة التاريخ، ونكتشف أساليب تعامله مع التاريخ فى حياته العامة الفكرية والسياسية.

والمصدر الأساس لهذه الدراسات هو كتاب نهج البلاغة، وربما استعنا بنصوص أخرى لم يضمنها الشريف الرضى فى كتاب نهج البلاغة للتعرف على مزيد من التفاصيل بالنسبة إلى نظرة الإمام التاريخية أو لإكمال نصوص أوردها الشريف الرضى فى نهج البلاغة مبتورة.

ونحن نرى أن كتاب نهج البلاغة وثيقة عظيمة القيمة فى الحضارة الإسلامية من الناحية الفكرية والسياسية. ولا ينقضى أسفنا على أن الشريف الرضى رحمه الله قد جمع النصوص لغاية جمالية تحكمت فى اختياره فجعلته يؤثر النصوص الممتازة من النواحى البلاغية الفنية ويهمل ما عداها وقد يجزئ - لهذا السبب - من النص بعضه الذى تتوفر فيه هذه الخاصة ويهمل سائره، وهذا ما دعاه إلى أن يعطى كتابه اسما

(۱۴)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۲)، كتاب نهج البلاغة (۴)، الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين (۳)، القرآن الكريم (۱)، الصدق (۱)، السب (۱)

صفحه ۰۰۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵

يلخص الغاية من جمعه له والمنهاج الذى اتبعه فى عملية الجمع فضاع على الحضارة الإسلامية بذلك علم كثير وفكر عظيم.

ولعل الله تعالى يقيض من العلماء والباحثين من يتقصى فى كتب السيرة والتاريخ والحديث والأدب جميع ما روى عن أمير المؤمنين

عليه السلام ويخضعه لدراسة نقدية صارمة تميز الأصيل فيه من المنحول الموضوع ويصنف ما يثبت للنقد منه مع ما ورد فى نهج البلاغة للشريف الرضى رحمه الله تعالى تصنيفا علميا حسب موضوعات النصوص (فى السياسة، والفكر، والوعظ، والحرب، والفقه، والإلهيات وسائر العقائد ... وغير ذلك من الموضوعات) فذلك يجعل نهج البلاغة ومستدركه مصدرا ميسرا للدراسات العلمية عظيم القيمة جليل الفائدة.

وقد قام المرحوم الشيخ هادى كاشف الغطاء بتأليف كتاب (مستدرك نهج البلاغة) ورتبه على نحو ما رتب الشريف الرضى كتاب نهج البلاغة (الخطب، والكتب، والحكم)، ولكن هذا العمل دون ما نطمح إليه لسببين: الأول - ما نقدر من أن هذا الكتاب لم يستوعب كل ما أهمله الشريف أو شذ عنه، ولذا فإن الحاجة إلى عمل أكثر شمولا لا تزال قائمة. الثانى - ما يبدو لنا من أن كاشف الغطاء أثبت فى كتابه كل ما وجده منسوبا إلى الإمام ولم يخضع النصوص للنقد، وهذا ما جعله يثبت فى كتابه نصوصا منسوبة إلى الإمام نقدر أنها موضوعة.

وهنا نجد من المناسب الإشارة إلى أن اللغط الذى أثير حول صحة نسبة ما جمعه السيد الشريف فى نهج البلاغة إلى الإمام (ع) بوجه عام منذ ابن خلدون إلى زكى مبارك وأحمد أمين، من التشكيك فى صحة النسبة أو الجزم بعدم صحة النسبة - هذا اللغط الذى أثاره التعصب فى بعض الأحيان والجهل فى أحيان كثيرة قد انتهى أو يجب أن ينتهى إلى التسليم بصحة النسبة التاريخية لما ورد فى نهج البلاغة بوجه عام إلى الإمام عليه السلام، فإن الدراسات والأبحاث التوثيقية التى عقدت حول نهج البلاغة منذ شارح نهج البلاغة عز الدين ابن أبى الحديد (۵۸۶ - ۶۵۵ هجرى) إلى أيامنا قدمت أجوبة مقنعة على جميع التساؤلات التى أثيرت وأغلقت منافذ الشك فى صحة نسبة ما اشتمل عليه نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) بالقدر الذى يكفى لتصحيح النسبة التاريخية لأى نص من نصوص الفكر الإسلامى.

وهذه الأبحاث والدراسات على قسمين:

(۱۵)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۲)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، العلامة الشيخ كاشف الغطاء (۲)، كتاب نهج البلاغة (۸)، الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين (۲)، القناعة (۱)، الجهل (۱)، الحاجة، الإحتياج (۱)

صفحه ۰۰۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶

منها ما اتبع منهاج النقد الداخلى حيث أخضعت النصوص لدراسة تكوين الجمل فيها والعلاقات بين جملة وأخرى، وأنواع المفردات والمجازات وما إلى ذلك من مكونات النص. وهذا ما صنعه ابن أبى الحديد فى عدة مواضع من شرحه، وبعض من تأخر عنه من الشراح والباحثين. وهذا النوع من الأبحاث قليل ومقصور على بعض نصوص النهج، ولذا فإن الحاجة ماسة إلى دراسة شاملة لجميع نصوص نهج البلاغة تتبع هذا المنهاج.

ومنها ما اتبع منهاج النقد الخارجى حيث بحث عن مصادر متقدمة فى الزمن على الشريف الرضى تضمنت نصوصا من نهج البلاغة.

وقد كانت نتائج هذه الدراسات وتلك فى مصلحة صحة نسبة نهج البلاغة بوجه عام إلى الإمام عليه السلام.

ولعل آخر دراسة توثيقية هامة وشاملة اتبع فيها منهاج النقد الخارجى هى دراسة الأستاذ السيد عبد الزهراء الخطيب التى نشرها فى كتابه (مصادر نهج البلاغة وأسانيده - ۴ مجلدات / دار الأعلمى للمطبوعات - بيروت).

ومن المؤكد أن هذه الدراسة لن تكون الأخيرة، فإن دراسات أخرى ستضاف إلى ما تم إنجازه فى هذا الحقل كلما تنامت حركة نشر كتب الفكر الإسلامى التى لا تزال مخطوطة وموزعة فى مكتبات العالم.

* بقى على أن أشير إلى أن هذه الدراسة عن حركة التاريخ عند الإمام على (ع) حلقة فى سلسلة من الدراسات فى نهج البلاغة سبقها كتابنا (دراسات فى نهج البلاغة) وقد اشتمل على أربع دراسات هى:

۱ – المجتمع والطبقات الاجتماعية.

۲ – الحكم والحاكم.

۳ – المغيبات.

۴ – الوعظ، وأضيفت إليها فى الطبعة الثالثة دراسة خامسة بعنوان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأكثرية الصامتة.

* دراسات فى نهج البلاغة: الطبعة الأولى – النجف العراق – ۱۹۵۶ – الطبعة الثانية – بيروت – دار الزهراء ۱۳۹۲ هجرى = ۱۹۷۲ م الطبعة الثالثة. بيروت.

(۱۶)

مفاتيح البحث: الامر بالمعروف (۱)، النهى عن المنكر (۱)، الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، دولة العراق (۱)، مدينة النجف الأشرف (۱)، كتاب نهج البلاغة (۷)، مدينة بيروت (۳)، الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين (۱)، الحاجة، الإحتياج (۱)

صفحه ۱۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۷

لقد انتفعت بكتاب (الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة فى شروحه) لمؤلفه: السيد جواد المصطفوى الخراسانى. وهو عمل جليل القدر، عظيم الفائدة للباحثين. نأمل أن يطوره مؤلفه بحيث يكون أكثر شمولا للشروح فى طبعاتها الجديدة المتداولة، وللنصوص الواردة فى مستدركات نهج البلاغة.

والحمد لله رب العالمين.

محمد مهدى شمس الدين

(۱۷)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الاسلام

(۱۹)

صفحه ۱۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۲۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام التاريخ حركة الكائن فى الزمان والمكان.

والكائن جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان.

وتاريخ كل من الجماد والنبات والحيوان يسير وفق قوانين ثابتة، وموضوعة خارج هذه العوالم.

إن الجماد لم يضع قوانين حركته، ومن ثم فإنه لم يضع قوانين تاريخه، وكذلك النبات والحيوان.

إن هذه العوالم الثلاثة خاضعة فى جميع حالات وجودها لمبدأ الضرورة، ومن ثم فتاريخها من جميع وجوهه خاضع لمبدأ الضرورة، إنه حصيلة حركتها الضرورية فى الزمان والمكان، ومن ثم ف (الخطأ) غير وارد فى تاريخ هذه العوالم، إنها لا تصنع تاريخها ولذا فهى لا تقع فى أخطاء العمل.

أما تاريخ الإنسان فشئ آخر.

إن الإنسان يتعامل مع الكون على أساس مبدأ الإختيار لأنه كائن حر لا يخضع لمبدأ الضرورة إلا فى نطاق العمليات البيولوجية فى جسمه، ومن ثم فإنه يشارك فى وضع قوانين حركته فى الزمان والمكان، فإن الإنسان يكيف نفسه لتنسجم مع الطبيعة حين يعجز عن تكيف الطبيعة لتنسجم معه.

والإنسان يحب ويبغض، ويأمل وييأس، ويتألم ويحلم، والإنسان يخاف...

(۲۱)

مفاتيح البحث: الخوف (۱)، البغض (۱)

صفحه ۰۱۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۲

يخاف من المجهول، ويخاف من المستقبل ... والإنسان، قبل كل شئ وبعد كل شئ، يفكر:

يحلل المواقف والمشكلات التى تواجهه، ويركبها، ويوازن بين احتمالاتها، ويرجح ويختار، ويتحرك وفقا لاختياره، فهو إذن يستجيب فى حركته لعالمه الخارجى ولعالمه الداخلى من موقع الإختيار باعتباره كائنا حرا لا من موقع الضرورة.

ومن هنا فإن الخطأ فى التحليل والتركيب والاختيار، والرجوع إلى الوراء فى حركته، وما يؤدى إليه ذلك من خيبات الأمل فى خططه ومشاريعه - أمور حدثت للإنسان دائما فى حركته التاريخية.

ولذا فإن تاريخ الإنسان كما هو سجل مشرق ومشرف لانتصاراته وإنجازاته فى الطبيعة والمجتمع هو كذلك سجل كئيب حافل بأخطائه، وانتكاسات حركته نحو المستقبل، وخيبات أمله.

* ومن أسوأ ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من أخطاء: حسبانه فى كثير من الحالات أنه كان دائما على صواب، وأن تاريخه يمثل خطا صاعدا باستمرار، وأن حركته نحو المستقبل - لذلك - تقدمية دائما، خيرة دائما، صائبة دائما، لا يتخللها خطأ ولا انحراف.

ومثل ذلك فى السوء حسبانه أن كل ماضيه خطأ وتخلف، ومن ثم فهذا الماضى لا يستحق منه الالتفات والمراجعة، وأنه اهتدى إلى النظرة الصائبة فى حاضره، وأنه فى حركته نحو المستقبل حليف الصواب والتوفيق باستمرار.

إن هذا الحسبان وذلك يحملان الإنسان على ارتكاب مزيد من الأخطاء، والوقوع فى كثير من المآسى وخيبات الأمل.

ذلك بأن الإنسان حين يخال حركة التاريخ دائما على صواب فإنه يلغى جميع المؤثرات الإنسانية، ويسلم نفسه لحركة التاريخ الإنسانى كما لو كان هذا التاريخ خاضعا لمنطق الضرورة كتاريخ الجماد والنبات والحيوان. ومن ثم فإنه يرتكب الأخطاء الكبرى وهو يحسب أنه على صواب، ويصحح أخطاءه بأخطاء أخرى

(۲۲)

مفاتيح البحث: الخوف (۱)

صفحه ۰۱۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٢٣

تسبب للإنسانية مزيدا من التخلف على كل صعيد، ومزيدا من المآسى الفردية والجماعية.

وكذلك الحال حين يحكم الإنسان على ماضيه بأنه مجموعة أخطاء قاد أسلافه إليها الجهل وسوء الفهم وسوء التوجيه، ولذا فلا شئ من هذا الماضى يصلح للحاضر وللمستقبل. وأنه كان ضالا فاهتدى، وأنه امتلك الحقيقة التاريخية وكانت ضائعة منه بسبب هذا الذى غله وشل قواه.

إن الإنسان باتخاذه لهذا الموقف يحكم على جميع تجارب الماضى بالفشل والبطلان، وهو حكم لا شك فى أنه جائر عن قصد السبيل، لأن الحقيقة هى أن فى تجارب هذا الماضى الكثير الكثير من الصواب الذى تكبدت الإنسانية أنواعا شتى من الآلام والتضحيات وتحملت كثيرا من المصاعب فى سبيل الوصول إليه والاهتداء إلى معالمه.

كلا هذين الموقفين يؤدى بالإنسان إلى أن ينظر إلى نفسه وعقله فى حاضره و مؤسساته السياسية وغيرها وسائر نظمه بثقة مطلقة لا مبرر لها. ولنقل إنه فى هذه الحالة التى يرفض فيها جميع الماضى أو فى تلك الحالة التى يخال فيها حركة التاريخ دائما على صواب - ينظر إلى نفسه وموقفه بغرور أجوف ولعل هؤلاء وأولئك ممن عناهم الله تعالى بقوله:

قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا.

إن هذا الغرور الأجوف، وتلك الثقة المطلقة التى لا مبرر لها تؤديان بالإنسان إلى الوقوع فى أخطاء كبرى تعرض المجتمعات بل وجانبا كبيرا من الإنسانية لكوارث عظمى ومتنوعة لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

١ - سورة الكهف (رقم ١٨ مكية) الآيات: ١٠٣ - ١٠٦. والآيات تومئ إلى النظرة التى تعتبر حركة التاريخ خاضعة للاعتبارات المادية وحدها، والنظرة التى تقيس التقدم البشرى بالمقياس المادى وحده.

(٢٣)

مفاتيح البحث: يوم القيامة (١)، سورة الكهف (١)

صفحه ۱۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٢٤

وهذا ما وقع فيه إنسان الحضارة الحديثة، والويل له مما صنعت يداه فى المقبلات من الأيام.

* وقد ولدت هاتان النظرتان المتطرفتان إلى التاريخ وإلى المستقبل مفهوما للتقدم البشرى غير متكامل ومن ثم دافع بالإنسان إلى ارتكاب المزيد من الأخطاء الكبرى فى شأن نفسه وفى شأن عالمه.

لقد اعتبر التقدم فى الحضارة الحديثة بالمقياس المادى وحده. فيقاس التقدم فى أى مجتمع وفى ظل أى نظام سياسى بحجم الإنتاج والاستهلاك بالنسبة إلى أشياء الحياة المادية: الطعام، والملابس والمساكن وأدوات الزينة، ووسائل النقل والطاقة والطرق، ووسائل اللهو ووسائل تيسير الحياة اليومية المنزلية وغيرها، والمصانع والأسلحة وما إلى ذلك من أشياء، يضاف إلى ذلك المؤسسات الحكومية والأهلية التى تنظم كل هذه العمليات..

ولا يقيم هذا المفهوم عن التقدم البشرى وزنا لوضعية الإنسان الأخلاقية وللقيم التى ينبغى أن توجه سلوكه مع الطبيعة المادية، والعالم، والمجتمع والأسرة.

وهذا المفهوم هو الدليل الذى يوجه أفكار وخطط وعمليات المؤسسات الوطنية والدولية المعنية بقضايا التنمية، فالوكالات المتخصصة للأمم المتحدة، والجامعات، ومراكز الأبحاث الدولية والوطنية تعتبر حركة التقدم والنمو بهذا المقياس.

وكانت عاقبة ذلك تقدما مذهلا فى مجال الماديات ... تقدما تجاوز أكثر الأحلام جموحا فى بداية النهضة الصناعية الحديثة. ولكنه تقدم ترافق مع تأخر مأساوى فى مجال المعنويات بدأت بعض البصائر المستقبلية فى العالم الغربى و (الشرقى؟؟) تكتشفه وتعى خطورته، وتحذر من عواقبه الوخيمة.

وعلى ضوء هذا المفهوم للتقدم قسم الجنس البشرى فى الخمسينات من هذا القرن الميلادى إلى عوالم ثلاثة:

العالم الأول: (أمريكا الشمالية، وأوربا الغربية، واليابان) بلغ أعلى مستوى

(۲۴)

مفاتيح البحث: الطعام (۱)

صفحه ۱۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۵

عرفه الإنسان فى التقدم المادى والتنظيم.

العالم الثانى - (الاتحاد السوفياتى وأوربا الشرقية، والصين أخيرا) يلى العالم الأول فى الرتبة من هذه الحيثية ويجهد للحاق به فى شتى الميادين.

العالم الثالث - (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية)، ويسمى هذا القسم من البشرية (العالم المتخلف أو العالم النامى).

وهكذا يحمل العالم الثالث وصمة التخلف وفقا لهذا المفهوم، وفقا لمقاييس التقدم المبنية على هذا المفهوم - هذه المقاييس التى فرضها فكر الحضارة الحديثة وسطوتها، اندفعت شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فى تيار هذه النظرة إلى معنى التقدم البشرى لتحقق لنفسها اللحاق بالعالم الأول الذى يحول بينها وبين ذلك مستغلا تفوقه الهائل وضعفها الكبير فى نهب ثرواتها وبلبلة حياتها السياسية، ولكنها فى سبيل التخلص من وصمة التخلف العالقة بها وفقا لهذا المفهوم تمضى قدما فى ما تحسب أنه يضعها على طريق التقدم مضحية فى سبيل ذلك بالكثير من قيمها وأخلاقها متخلية عن أصالتها، طامحة إلى أن يكون إنسانها نسخة دقيقة من إنسان العالم الأول.

* ولكن هذا المفهوم عن التقدم البشرى ناقص ومبتور لأنه يمثل جانبا واحدا من الوضعية الإنسانية، وقد كان من أكبر الأخطاء الفكرية التى وقع فيها إنسان الحضارة الحديثة نتيجة لخطأ نظرته إلى التاريخ وإلى المستقبل، فإن الوضعية الأخلاقية للإنسان ذات صلة وثيقة وأساسية بكونه متقدما أو متخلفا. وهذه حقيقة وجدت سبيلها أخيرا إلى الإدراك فى داخل الحضارة الحديثة، وهذا، على الرغم من أنه لا يزال فى نطاق ضيق نسبيا، باعث على الأمل.

لقد بدأت ترتفع، هنا وهناك، داخل الحضارة الحديثة، أصوات بعض ذوى العقول النيرة والبصائر النافذة من النخبة فى العالم الغربى من علماء وشعراء ومفكرين محذرة من الانسياق وراء هذه النظرة الخاطئة، محذرة من عواقبها المهلكة، داعية إلى

(۲۵)

مفاتيح البحث: يوم عرفة (۱)

صفحه ۱۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۶

اعتماد نظرة أخرى تقيم التوازن فى السعى نحو التقدم بين حاجات الإنسان الروحية ووضعيته الأخلاقية من جهة وبين حاجاته وطموحاته المادية من جهة أخرى، منذرين بأن استمرار الحضارة فى ماديتها الخالصة سيؤدى إلى خرابها ودمار الإنسانية أو جانب

کبیر منها.

إن نظرة هؤلاء المستقبلیین من ذوی العقول النیرة فی العالم الغربی (والشرقی؟) قریبة من نظرة الإسلام إلی مسألة التقدم والتخلف مع تأکیدنا علی وجود اختلافات جمة تعود إلی تفاصیل النظرة وإلی الوسائل والأسالیب.

فالإسلام – ممثلا بالقرآن الکریم، والسنة الشریفة، والفقه – إذ یدفع بالإنسان نحو المستقبل الأفضل من حاضره وماضیه، یرکز علی أن هـذه الأفضلیة تقوم علی مقیاس مرکب یعطی لکل واحد من المادة والمعنی دورا حاسما وأساسا فی إنجاز التقدم المتکامل المعافی، فلا بد أن تحقق حرکة الإنسان فی الزمان والمکان تقدما وتکاملا علی صعید المادة وعلی صعید الوضعیة الأخلاقیة والصفات الإنسانیة لتکون حرکته تقدمیة.

قال الله تعالی:

وابتغ فیما آتاک الله الدار الآخرة ولا تنس نصیبک من الدنیا، وأحسن کما أحسن الله إلیک، ولا تبغ الفساد فی الأرض إن الله لا یحب المفسدین ۱.

وقال تعالی:

یا بنی آدم خـذوا زینتکم عنـد کل مسجد، وکلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا یحب المسرفین. قل من حرم زینـة الله التی أخرج لعباده والطیبات من الرزق؟ قل: هی للـذین آمنوا فی الحیاة الـدنیا خالصة یوم القیامة، کذلک نفصل الآیات لقوم یعلمون. قل: إنما حرم ربی الفواحش ما ظهر منها وما بطن،، والإثم، والبغی بغیر الحق، وأن تشرکوا بالله ما لم ینزل به سلطانا، وأن تقولوا علی الله ما لا تعلمون ۲.

(۱) سورة القصص (رقم ۲۸ مکیة) الآیة: ۷۷.

(۲) سورة الأعراف (رقم ۷ مکیة) الآیات: ۳۱ – ۳۳.

(۲۶)

مفاتیح البحث: یوم القیامة (۱)، القرآن الکریم (۱)، الرزق (۱)، السجود (۱)، سورة الأعراف (۱)، سورة القصص (۱)

صفحه ۰۱۸

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام – الشیخ محمد مهدی شمس الدین – الصفحة ۲۷

أما تحقیق التقـدم المادی وحـده مع إهمال العنایـة بالوضـعیة الأخلاقیـة والمعنویة للإنسانیة أو مع التضـحیة بها فإنه کقصـر العنایة علی الوضـعیة الأخلاقیـة والروحیـة مع إهمـال شؤون التقـدم المـادی – کلاهمـا لا یمثلان النظرة المتوازنـة التی یجب أن تقوم علیها حرکة الإنسـان التاریخیـة وتبنی علی هـدیها مؤسـسات الحضارة. إن کل واحـد من الاتجاهین یمثل انحرافا معینا لا یخـدم الإنسانیـة ولا یبنی الحضارة.

إننا – وفقا لهـذه النظرة المتوازنة – کما نعتبر النقص فی إنتاج السلع والخدمات المادیة بدرجة تکفی أکبر عدد من الناس وتحقق لهم الرفاهیـة واللـذة – کما نعتبر هـذا النقص وما یتصل به تخلفا، کـذلک نعتبر من أسوأ مظاهر التخلف: تزایـد الجرائم فی المجتمع بشتی أنواعها، وتصـدع الأسـرة، وجفاف العلاقات الإنسانیـة النظیفـة، ونمو روح الحرب والعدوان داخل المجتمعات وبین الجماعات القومیة والوطنیـة، وهو أن الحیاة البشـریة عنـدما تکون خـارج الإطـار القومی والعنصـری للمعتـدی ... وغیر ذلـک من مظـاهر فساد الوضـعیة الأخلاقیة للإنسان فردا وجماعة ومجتمعا ودولة.

ووفقا لهـذه النظرة المتوازنة یکون من الخطأ تقسیم عالم الیوم إلی عالم متقدم وعالم متخلف. إن عالم الیوم کله – وفقا لهذه النظرة – متخلف، فـإنه إذا کـان العالم الثالث متخلفا علی مستوی المادة وأسالیب التنظیم والإدارة، فإن العالم الآخر متخلف من حیث الوضـعیة الأخلاقیة والعلاقات الإنسانیة والصفات الإنسانیة فی أفراده وجماعاته ومجتمعاته.

وسنری، خلال هذا البحث، أن منطلق أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام فی فهمه للتاریخ وحرکة الإنسان فی الحاضر نحو المستقبل هو هذه النظرة المتوازنة التی اشتمل علیها الإسلام، وعبر عنها القرآن الکریم، والسنة الشریفة، والفقه المستمد منهما المبنی علیهما.

(۲۷)

مفاتیح البحث: الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السلام (۱)، القرآن الکریم (۱)، الحرب (۱)، الجماعة (۱)

صفحه ۰۱۹

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۳۰

الامام فی مواجهة التاریخ

(۳۰)

صفحه ۰۲۰

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۳۱

الإمام فی مواجهة التاریخ کان أمیر المؤمنین علی علیه السلام، کما یخبرنا هو، وکما سنری خلال هذه الدراسة یوجه عنایة فائقة إلی التاریخ، عنایة جعلت من التاریخ عنصرا بارزا فیما وصل إلینا من کلامه فی مختلف الموضوعات التی کانت تثیر اهتمامه.

وعنایة الإمام بالتاریخ لیست عنایة القاص والباحث عن القصص. کما أنها لیست عنایة السیاسی الباحث عن الحیل السیاسیة وأسالیب التمویه التی یعالج بها تذمر الشعب، وإنما هی عنایة رجل الرسالة والعقیدة، والقائد الحضاری والمفکر المستقبلی.

إن القاص یبحث لیجد فی تاریخ الماضین وآثارهم مادة للتسلیة والإثارة. والسیاسی یبحث لیجد فی التاریخ أسالیب یستعین بها فی عمله السیاسی الیومی فی مواجهة المآزق، أو یستعین بها فی وضع الخطط الآنیة المحدودة ۱.

والمؤرخ یقدم لهذا وذاک المادة التاریخیة التی یجدان فیها حاجتهما.

أما الرائد الحضاری، رجل الرسالة والعقیدة ورجل الدولة فهو یبحث لیجد فی

(۱) قال المسعودی فی تقریره عن النشاط الیومی لمعاویة بن أبی سفیان ... ویستمر إلی ثلث اللیل فی أخبار العرب وأیامها والعجم وملوکها وسیاستها لرعیتها، وسیر ملوک الأمم وحروبها ومکایدها. وسیاستها لرعیتها وغیر ذلک من أخبار الأمم السالفة ... ثم یقوم فیقعد فیحضر الدفاتر فیها سیر الملوک وأخبارها، والحروب والمکاید. فیقرأ ذلک علیه غلمان له مرتبون وقد وکلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه کل لیلة جمل من الأخبار والسیر والآثار وأنواع السیاسات - ... مروج (... بتحقیق محمد محیی الدین عبد الحمید) - مطبعة السعادة - الطبعة الثانیة (۱۳۶۷ هجری - ۱۹۴۸ م) الجزء الثالث - ص ۴۰.

(۳۱)

مفاتیح البحث: الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السلام (۱)، معاویة بن أبی سفیان لعنهما الله (۱)، عبد الحمید (۱)

صفحه ۰۲۱

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۳۲

التاریخ جذور المشکل الإنسانی، ویتقصی جهود الإنسانیة الدائبة فی سبیل حل هذا المشکل بنحو یعزز قدرة الإنسان علی التکامل الروحی - المادی، کما یعزز قدرته علی تأمین قدر ما من السعادة مع الحفاظ علی الطهارة الإنسانیة.

وقـد كـان الإمـام على يتعامل مع التاريـخ بهـذه الروح ومن خلال هـذه النظرة، ومن ثم فلم يتوقف عنـد جزئيات الوقائع إلا بمقـدار ما تكون شواهـدا ورموزا، وإنما تناول المسألـة التاريخيـة بنظرة كليـة شاملـة، ومن هنا فقلما نرى الإمام فى خطبه وكتبه يتحدث عن وقائع وحوادث جزئية، وإنما يغلب على تناوله للمسألة التاريخية طابع الشمول والعمومية.

والإمـام ليس مؤرخا، ولـذا فليس من المتوقع أن نجـد عنـده نظرة المؤرخ وأسـلوب فى سـرد الوقائع وتحليلها والحكم عليها، وإنما هو رجـل دولـة حـاكم، ورجـل عقيـدة ورسالـة فيهـا كـل حياته، فهو يتعامل مع التاريـخ باعتباره حركـة تكون شخصـية الإنسان الحاضـرة والمستقبلة، ولذا فهى تشغل حيزا هاما وعلى درجة كبيرة من الخطورة فى عملية التربية والتحرك السياسى، وهذا ما يجعل رجل رسالة وحاكما كالإمام على عليه السـلام حريصا على أن يـدخل فى وعى أمته التى يحمل مسؤوليـة قيادتها ومصيرها ... إلى التاريخ سـليمة تجعله قوة بانية لا مخربة ولا محرفة.

* ونحن نعرف عنايـة الإمام على (ع) الفائقـة بالتاريخ واهتمامه البالغ بشأنه من نص ورد فى وصـيته التى وجهها إلى ابنه الإمام الحسـن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين ١ عند انصرافه من صفين، قال فيه:

١ - قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة: ١۶ / ۵٢ - أما قوله كتبها إليه بحاضرين فالذى كنا نقرؤه قديما، كتبها إليه بالحاضرين، على صـيغة التثنيـة، يعنى حاضـر حلب وحاضـر قنسـرين، وهى الأربـاض والضواحى المحيطـة بهـذه البلاد، ثم ـــ ـــ بعـد ذلك على جماعـة من الشـيوخ بغير لام، ولم يفسـروه، ومنهم من يـذكره بصـيغة الجمع لا بصـيغة التثنية، ومنهم من يقول: خناصـرين يظنونه تثنية خناصـرة أو جمعها. وقد طلبت هذه الكلمة فى الكتب المصـنفة سـيما فى البلاد والأرضـين فلم أجدها، لعلى أظفر بها فيما بعد فألحقها فى هذا الموضع.

قال الشيخ محمد عبده فى شرحه: حاضرين: اسم بلدة بنواحى صفين.

(٣٢)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السـلام (٢)، الإمام الحسن بن على المجتبى عليهما السلام (١)، إبن أبى الحديد المعتزلى (١)، كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (١)، الوقوف (١)، الطهارة (١)

صفحه ٢٢

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٣٣

أى بنى إنى وإن لم أكن عمرت عمر من كـان قبلى، فقـد نظرت فى أعمالهم، وفكرت فى أخبارهم، وسـرت فى آثارهم، حتى عـدت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى إلى من أمورهم، قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره.

وكان قبل ذلك قد وجه الإمام الحسن (ع) فى هذه الوصية إلى تعرف التاريخ الماضى للعبرة والموعظة، قال:

أحى قلبك بالموعظة ... واعرض عليه أخبار الماضـين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر فى ديارهم وآثارهم فانظر فيمـا فعلـوا، وعمـا انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا. فإنـك تجـدهم قـد انتقلوا عن الأحبـة، وحلوا ديـار الغربـة، وكأنـك عن قليـل قـد صـرت كأحدهم.

وهـذا النص يحملنـا على الإعتقـاد بـأن الإمام عليه السـلام تحـدث كثيرا عن المسألـة التاريخيـة فى توجيهاته السياسـية وتربيته الفكرية لمجتمعه، ولرجال إدارته، ولخواص أصحابه.

ولكن النصوص السياسـية والفكريـة التى اشـتمل عليها نهـج البلاغـة مما يـدخل فيه العنصـر التاريخى قليلـة جدا، وإن كانت النصوص الوعظية التى بنيت على الملاحظة التاريخية كثيرة نسبيا.

ولا نسـتطيع أن نفسـر نقص النصوص السياسـية والفكرية - التاريخية إلا بضياع هذه النصوص لنسيان الرواة أو لإهمال الشريف الرضى

لما وصل إليه منها، لأنه جعل منهجه فی تأليف كتاب نهج البلاغة: اختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب ۱. وقد أدى هذا المنهج بطبيعة الحال إلى إهمال الكثير من النصوص السياسية والفكرية لأنه لم يكن فی الذروة من الفصاحة والبلاغة.

ومن المؤكد أن الكثير من كلام أمير المؤمنين فی هذا الباب وغيره لم يصل إلى الشريف الرضی كما اعترف هو بذلك فی قوله:

...ولا أدعی - مع ذلك - أنی أحيط بأقطار جميع كلام عليه السلام حتى لا يشذ عنی منه شاذ، ولا يند ناد، بل لا أبعد أن يكون القاصر عنی فوق الواقع إلی،

(۱) من مقدمة الشريف الرضی نهج البلاغة.

(۳۳)

مفاتيح البحث: الإمام الحسن بن علی المجتبی عليهما السلام (۱)، كتاب نهج البلاغة (۳)، يوم عرفة (۱)، الشريف الرضی، أبو الحسن محمد بن الحسين (۳)، الإختيار، الخيار (۱)، الوصية (۱)

صفحه ۲۳۰

التاريخ وحركة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدی شمس الدين - الصفحة ۳۴

والحاصل فی ربقتی دون الخارج من يدی ۱.

* وعلى أية حال فإن سؤالا هاما يواجهنا هنا، وهو:

من أين استقى الإمام معرفته التاريخية؟

إنه يقول عن نفسه ...: نظرت فی أعمالهم، وفكرت فی أخبارهم وسرت فی آثارهم...

فما الوسيلة التی توصل بها إلى معرفة أعمالهم لينظر فيها هو كيف تسنى له أن اطلع على أخبارهم ليفكر فيها؟

نقدر أن الإمام عليه السلام قد اعتمد فی معرفته التاريخية على عدة مصادر:

۱ - القرآن الكريم:

يأتی القرآن الكريم فی مقدمة هذه المصادر التی استقى منها الإمام معرفته التاريخية. وقد اشتمل القرآن على نصوص تاريخية كثيرة منبثة فی تضاعيف السور تضمنت أخبار الأمم القديمة وارتفاع شأنها، وانحطاطها، واندثار كثير منها، وذلك من خلال عرض القرآن الكريم لحركة النبوات فی تاريخ البشرية، وحكايته لكيفية استجابات الناس فی كل أمة وجيل لرسالات الله تعالى التی بشر بها الأنبياء سلام الله عليه أجمعين..

وقد كان أمير المؤمنين علی عليه السلام أفضل الناس - بعد رسول الله (ص) - معرفة بالقرآن من حيث الظاهر والباطن، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والأهداف والمقاصد، والأبعاد الحاضرة والمستقبلة، وغير ذلك من شؤون القرآن. كانت معرفته بالقرآن شاملة مستوعبة لكل ما يتعلق بالقرآن من قريب أو بعيد. والتأثير القرآنی شديد الوضوح فی تفكير الإمام التاريخی من حيث المنهج ومن حيث المضمون، كما هو شديد الوضوح فی كل جوانب تفكيره الأخرى.

وقد حدث الإمام عن نفسه فی هذا الشأن كاشفا عن أنه كان يلح فی مسائله

۱: من مقدمة الشريف الرضی لنهج البلاغة.

(۳۴)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين علی بن ابی طالب عليهما السلام (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، القرآن الكريم (۸)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الشريف الرضی، أبو الحسن محمد بن الحسين (۱)

صفحه ۰۲۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۳۵

لرسول الله (ص) فى شأن القرآن من جميع وجوهه. قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت. أن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا سؤولا ۱.

وشهادات معاصريه له فى هذا الشأن كثيرة جدا. منها ما روى عن عبد الله بن مسعود، قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن على بن أبى طالب عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن. ۲ ۲ - التعليم الخاص:

التعليم الخاص الذى آثر به رسول الله (ص) عليا مصدر آخر من مصادر معرفته التاريخية وغيرها.

وفقد استفاضت الروايات التى نقلها المحدثون، وكتاب السيرة، والمؤرخون من المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم - استفاضت هذه الروايات - بل تواترت إجمالا - بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد خص أمير المؤمنين عليا بجانب من العلم لم ير غيره من أهل بيته وأصحابه أهلا له.

فمن ذلك ما قاله عبد الله بن عباس: والله لقد أعطى على بن أبى طالب (ع) تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم فى العشر العاشر. ۳ وما روى عن رسول الله (ص): على عيبة علمى. ۴ وما رواه أنس بن مالك، قال: قيل يا رسول الله عمن نكتب العلم؟ قال: عن على وسلمان. ۵ وقال الإمام عليه السلام: علمنى رسول الله (ص) ألف باب من العلم كل باب يفتح

(۱) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ۲ قسم ۲ ص ۱۰۱، والمتقى الهندى: كنز العمال ۶ / ۳۹۶ - وقال: أخرجه ابن سعد وابن عساكر، وقالوا (لسانا طلقا سؤولا) وأبو نعيم:

حلية الأولياء ۱ / ۶۷.

(۲) أبو نعيم: حلية الأولياء: ۱ / ۶۵.

(۳) أسد الغابة ۴ / ۲۲ والاستيعاب: ۲ / ۴۶۲.

(۴) كنز العمال ۶ / ۱۵۳ وفتح القدير: ۴ / ۴۵۶.

(۵) تاريخ بغداد: ۴ / ۱۵۸.

(۳۵)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۵)، عبد الله بن عباس (۱)، أنس بن مالك (۱)، القرآن الكريم (۲)، كتاب حلية الأولياء لأبى نعيم (۲)، كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (۱)، كتاب أسد الغابة لإبن الأثير (۱)، الحافظ أبو نعيم (۲)، كتاب كنز العمال للمتقى الهندى (۲)، كتاب الطبقات الكبرى لإبن سعد (۱)، إبن عساكر (۱)، المتقى الهندى (۱)

صفحه ۰۲۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۳۶

ألف باب. ۱ وقد صرح فيما وصل إلينا من نصوص كلامه فى نهج البلاغة بذلك فى عدة مناسبات، فقال:

۱ ... - بل اندمجت ۲ على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب لأرشية فى الطوى ۳ البعيدة ۴.

۲ - ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... ۵ ۳ ... - لو تعلمون ما أعلم مما طوى ۶ عنكم غيبه إذا لخرجتم إلى الصعدات ۷ تبكون على أعمالكم ۸.

۴ – يـا أخـا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنمـا هو تعلم من ذى علم. ۹ وإذا كـانت بعض هـذه النصوص ظاهرة فى العلم بالغيبات (علم المسـتقبل)، فإن غيرها مطلق يشـمل الماضـى، وإذا كان الإمام قـد اطلع من رسول الله (ص) على بعض المعلومات المتعلقة بالمسـتقبل فمن المرجح أنه قد اطلع منه على علم الماضى.

۳ – السنة النبوية:

اشتملت السنة النبوية على الكثير المتنوع من المادة التاريخية.

منه ما ورد فى تفسير وشـرح القرآن الكريم، ومن ما اشـتمل إجمالا أو تفصـيلا على حكايـة أحداث تاريخية لم ترد فى القرآن إشارة إليها.

(۱) كنز العمال: ۶ / ۳۹۲.

(۲) اندمجت: انطويت، كناية عن معرفته بأمور خاصة جدا.

(۳) الأرشية: جمع رشاء، الحبل. والطوى جمع طوية وهى البئر.

(۴) نهج البلاغة – الخطبة رقم: ۵.

(۵) نهج البلاغة – الخطبة رقم: ۱۶.

(۶) طوى: حجب علمه عنكم.

(۷) الصعدات: جمع صعيد. يريد: لذهبت عنكم الدعة والاستقرار فى منازلكم وخرجتم منها قلقين على مصيركم.

(۸) نهج البلاغة – رقم الخطبة: ۱۱۶.

(۹) نهج البلاغة – رقم الخطبة: ۱۲۸.

(۳۶)

مفاتيـح البحث: الرسول الأـكرم محمـد بن عبـد الله صـلى الله عليه وآله (۱)، كتاب نهـج البلاغة (۵)، القرآن الكريـم (۲)، كتاب كنز العمال للمتقى الهندى (۱)

صفحه ۲۶۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۳۷

وقـد كان أمير المؤمنين على (ع) أعلم أهل البيت (ع) والصـحابة قاطبـة بما قاله رسول الله (ص) أو فعله وأقره، فقـد عاش على (ع) فى بيت رسول الله (ص) منـذ طفولته، وبعث الرسول (ص) وعلى عنـده، وكان أول من آمن به، ولم يفارقه منذ بعثته (ص) إلى حين وفاته إلاـ فى تنفيـذ المهمات التى كان يكلفه بها خارج المدينـة وهى لم تسـتغرق الكثير من وقته، ومن هنا، من تفرغه الكامل لتلقى التوجيه النبوى، ووعيه الكامل لما كان يتلقاه كان الإمام أعلم الناس بسنة رسول الله وكتاب الله.

۴ – القراءة:

فقـدر أن الإمام عليا قـد قرأ مـدونات تاريخيـة باللغـة العربيـة أو بغيرها من اللغات التى كانت متداولة فى المنطقة التى شـهدت نشاطه، وخاصـة بعد أن انتقل من الحجاز إلى العراق واضـطرته مشـكلات الحكم والفتن إلى التنقل بين العراق وسوريا، وإن كنا لا نعلم ما إذا كانت هذه المدونات قد دفعت إليه صدفة أو أنه بحث عن كتب كهذه وقرأها أو قرئت له بلغاتها الأصـلية مع ترجيحنا أنه عليه السـلام كان يعرف اللغة الأدبية التى كانت سائدة فى المنطقة العراقية السورية.

۵ – الآثار القديمة:

وربما كانت الآثار العمرانيـة للأمم القديمـة من جملـة مصادر المعرفـة التاريخية عند الإمام عليه السـلام، ويعزز هذا الظن بدرجة كبيرة

قوله فی النص الآنف الذکر:

وسرت فی آثارهم مما یحمل دلالة واضحة علی أن مراده الآثار العمرانیة.

وقد خبر الإمام فی حیاته أربعة من أقطار الإسلام، هی: شبه الجزیرة العربیة، والیمن، والعراق، وسوریا.

ونقدر أنه قد زار الآثار الباقیة من الحضارات القدیمة فی هذه البلاد، وإذا کان هذا قد حدث - ونحن نرجح حدوثه - فمن المؤکد أن الإمام لم یزر هذه الآثار زیارة سائح ینشد التسلیة إلی جانب الثقافة، أو زیارة عالم آثار یتوقف عند الجزئیات، وإنما زارها زیارة معتبر مفکر یکمل معرفته النظریة بمصائر الشعوب والجماعات بمشاهدة بقایا وأطلال مدنها ومؤسساتها التی حل بها الخراب بعد أن انحط بناتها وفقدوا

(۳۷)

مفاتیح البحث: أهل بیت النبی صلی الله علیه وآله (۱)، الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السلام (۲)، الرسول الأکرم محمد بن عبد الله صلی الله علیه وآله (۲)، دولة العراق (۴)، جزیرة العرب (۱)، الوقوف (۱)، الظنّ (۱)، الزیارة (۳)، النفاذ، التنفیذ (۱)

صفحه ۰۲۷

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۳۸

قدرتهم علی الاستمرار فاندثروا.

هذه هی، فیما نقدر، المصادر المعلومة والمظنونة والمحتملة التی استقی منها الإمام علی (ع) معرفته التاریخیة.

(۳۸)

مفاتیح البحث: الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السلام (۱)

صفحه ۰۲۸

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۴۱

التاریخ عند الإمام (ع) فی المجال الوعظی، وفی المجال السیاسی الفکری استخدم الإمام عنصر التاریخ فی مجالین، أحدهما مجال السیاسة والفکر، وثانیهما مجال الوعظ.

وهنا یواجهنا سؤال هام:

لماذا یدخل الإمام عنصر التاریخ فی أحادیثه الوعظیة، أو فی أحادیثه وخطبه وکتبه السیاسیة والفکریة، أو فی غیر ذلک من مجالات توجیهه کرجل رسالة وعقیدة وحاکم دولة؟ لماذا التاریخ؟

ونقول فی الجواب علی هذه المسألة التی تثیر الشک حول جدوی التاریخ باعتباره مادة أساسیة فی البنیة الثقافیة للإنسان والمجتمع أو باعتباره عاملا مساعدا فی الأعمال الفکریة التی تتناسب مع مادة التاریخ ... نقول فی الجواب:

إن الحیاة الإنسانیة لدی جمیع الناس فی جمیع الأزمان والأوطان واحدة فی أصولها العمیقة، ومکوناتها الأساسیة، وحوافزها، فهی نهر متدفق من التجارب والآمال والإنجازات وخیبات الأمل، وهذا ما یجعل الأسئلة التی تثیرها مشکلات الحاضر حافزا نحو استرجاع الماضی باعتباره عملا مکملا وضروریا فی البحث الصحیح الموضوعی عن أجوبة أکثر سدادا وحکمة تؤدی إلی حلول صائبة أو مقاربة للصواب للمشکلات التی تواجه الإنسان فی حاضره، أجوبة معجونة بالتجارب الإنسانیة

(۴۱)

صفحه ۰۲۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۴۲

السابقة.

وقد يثير هذا التحليل حفيظة فريق من أهل الفكر المشتغلين بالسياسة، أو فريق من أهل السياسة يدعون لأنفسهم صلة بالفكر يرون - أولئك وهؤلاء - أن النزعة التاريخية، أو العقلية التاريخية (السلفية) تعيق نمونا فى الحاضر وتقدمنا فى المستقبل، لأنها تشدنا دائما إلى الماضى، إلى قيمه وتصوراته. إن التاريخ عند هؤلاء مرض يشوه الحاضر ويقضى على المستقبل.

ولكن هذا الرأى بعيد عن الصواب.

بطبيعة الحال نحن - فى فهمنا لدور التاريخ كعامل مكون فى البنية الثقافية للإنسان والمجتمع ومساعد فى عمليات الفكر - لا ندعى أن من الحكمة أن يجعل الإنسان نفسه سجين التاريخ، لسنا فى فهمنا لدور التاريخ مع غلاة النزعة التاريخية الذين يرون أن التاريخ هو الحقيقة كلها، لا مرحلة من مراحل نمو الحقيقة التجريبية فقط. فهذا الموقف الفكرى يتسم بالغلو والشطط.

ولكن ليس من الحكمة أيضا أن يواجه الإنسان حاضره ويتجه نحو مستقبله وهو بلا جذور، إنه حين لا يستشعر تاريخه الخاص بأمته أو تاريخ الإنسانية يفقد القدرة على الرؤية الصحيحة، ويفقد القدرة على تقويم المواقف التى تواجهه فى خاطره تقويما سليما سواء فى ذلك ما يتعلق منها بالحاضر نفسه أو ما يتعلق منها بالمستقبل، إنه فى هذه الحالة يتحرك فى الفراغ.

لهذا وذاك نرى أن الاستخدام المتزن للتاريخ، الاستخدام المتسم بالحكمة والاعتدال يجعلنا أقدر على التحرك فى حاضرنا وأكثر شعورا بخطورة قراراتنا فيما يتعلق بشؤون المستقبل، لأن التاريخ فى هذه الحالة يعمق حسنا الأخلاقى حين اتخاذنا قرارات مستقبلية تمس نتائجها حياة أجيال، نصنع بهذه القرارات - المستقبلية بالنسبة إلينا - حاضرها هى الذى هو مستقبلنا المظنون الذى قد لا نشاركها فيه لأننا نكون حينئذ قد غادرنا الحياة، ومن ثم فلا نواجه نتائج قراراتنا الماضية.

بدون استرجاع الماضى وما يمنحنا ذلك من عمق فى الرؤية، وغنى فى التجربة

(۴۲)

مفاتيح البحث: المرض (۱)

صفحه ۰۳۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۴۳

الإنسانية ووعى لاستمرار الحضارة الإنسانية فينا وفيمن يأتى بعدنا من الأجيال - بدون ذلك لن يكون فى وسعنا تفادى أخطاء وقعت فى الماضى كما لن يكون من حقنا التمتع بنتائج تجارب ناجحة أنجزت فيه، كما أننا فى هذه الحالة قد نتخذ بالنسبة إلى المستقبل الذى لا نملكه وحدنا قرارات متهورة شديدة الخطورة بالنسبة إلينا وإلى وضعية ومصير الأجيال الآتية.

إن الغلو فى استرجاع التاريخ، فكرا وعملا، قد يجعل من التاريخ مقبرة للحاضر والمستقبل، ويجعل الإنسان غريبا فى العالم الذى يعاصره ويحيط به ويتدفق بالحياة نحو المستقبل من حوله.

كما إن الغلو فى رفض التاريخ، والانقطاع عنه والانصراف عن تجاربه ومآثره قد يجعل الإنسان ريشة فى مهب الريح عاجزا عن التماسك فى الحاضر، ويفقده القدرة على ممارسة دوره الأصيل فى بناء الحضارة ويجعل منه مجرد ممثل لأدوار يضعها الآخرون يعكس هو بتمثيله إراداتهم وأفكارهم وموجاتهم.

إذن لابد للإنسان من أن يتعامل مع التاريخ باعتدال يجعله دليلا فى حركته وتربة ينمو فيها الحاضر الأصيل والمستقبل الأكثر يمنا

وأصالة.

واستجابة لهذه الضرورة تعامل أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) مع التاريخ فى مجال الوعظ وفى مجال السياسة والفكر.

وأكبر همنا فى هذه الدراسة هو التعرف على النظرة التاريخية للإمام فى مجالى السياسة والفكر، مكتفين بالنسبة إلى المجال الوعظى ذى المحتوى التاريخى بتقديم نموذج واحد من النصوص الوعظية فى كتاب نهج البلاغة، وتحليله مع تسليط الأضواء على الجانب التاريخى فيه.

(۴۳)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الرفض (۱)

صفحه ۰۳۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۴۷

التاريخ فى مجال الوعظ حللنا فى فصل (الوعظ) من كتابنا دراسات فى نهج البلاغة ۱، مواعظ أمير المؤمنين على (ع) فى نهج البلاغة على ضوء الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية التى كانت تسيطر وتوجه مجتمع العراق بوجه خاص فى أيام خلافة الإمام عليه السلام.

وكشفنا النقاب هناك عن أن الإمام لم يكن فى مواعظه داعيا إلى مذهب زهدى يقف موقفا سلبيا من الحياة الدنيا والعمل لها والاستمتاع بها، وإنما كان، فى مواعظه وتوجيهه الفكرى بوجه عام، يدعو إلى مواجهة الحياة بواقعية وصدق، محذرا من اللهاث المجنون وراء الآمال الخادعة والأحلام الكاذبة التى ليس لها فى واقع الحياة سند ولا أساس.

وكشفنا النقاب أيضا عن أن النظرة الشائعة إلى مواعظ الإمام فى نهج البلاغة قد تأثرت بالتيار الزهدى السلبى الذى طبع المجتمع الإسلامى بطابعه فى عصور الانحطاط، وهو دخيل على الفكر الإسلامى وعلى أخلاقيات الإسلام وتشريعه، ولذا فإن هذه النظرة خاطئة لا تمثل مقاصد الإمام وأهدافه من المواعظ التى كان يوجهها إلى مجتمعه.

(۱) محمد مهدى شمس الدين: دراسات فى نهج البلاغة (الطبعة الثالثة) بيروت ص ۲۴۷.

(۴۷)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، دولة العراق (۱)، كتاب نهج البلاغة (۴)، الصدق (۱)، مدينة بيروت (۱)

صفحه ۰۳۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۴۸

والمواعظ التى استخدم الإمام فيها عنصر التاريخ كغيرها من مواعظه فى أنه لا يدعو فيها إلى مذهب زهدى سلبى من الحياة الدنيا، وإنما يعالج بها حالة خاصة فى مجتمعه الذى بدا غافلا عن مصيره التعس، مهملا لواجباته فى جهاد النفس وجهاد العدو، متلهفا على المتع والثراء اللذين لا يستحقهما الا مجتمع مستقر أحكم وضعه الأمنى والسياسى والاجتماعى، وقطع دابر الطامعين فيه المتآمرين عليه، وهذا ما لم يكنه مجتمع العراق فى عهد الإمام عليه السلام، بل كان مجتمعا قلقا يعانى من اضطراب أمنه الخارجى وتدهور أمنه الداخلى، كما يعانى من التمزق السياسى، وكان - نتيجة لذلك - يؤجج مطامع الحكم الأموى فى الشام ويدفع به نحو التآمر عليه.

ونقدم فيما يلى نموذجا من النصوص الوعظية التى يكون التاريخ عنصرا بارزا وأساسيا فيها.

قال عليه السلام:

أما بعد، فإنى أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها ١، ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضرارة، حائلة ٢ زائلة نافدة بائدة ٣، أكالة غوالة ۴، لا تعدو – إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضاء بها أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيما ۵ تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا ۶، لم يكن امرؤ منها فى حبرة الا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق فى سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا ٧، ولم تطله فيها ديمة ٨ رخاء إلا هتنت ٩ عليه مزنة بلاء. وحرى إذا أصبحت له منتصرة

١. الحبرة: بالفتح – النعمة.

(٢) حائلة: متغيرة.

(٣) نافدة: فانية.

(۴) غوالة: مهلكة.

(۵) الهشيم: النبت اليابس.

(۶) سورة الكهف (رقم ١٨ مكية) الآية: ۴۵.

(٧) البطن كناية عن إقبال الدنيا، والظهر كناية عن الإدبار.

(٨) الطل: المطر الخفيف. والديمة: مطر يدوم فى سكون لا يرافقه رعد وبرق.

(٩) هتنت: انصبت.

(۴٨)

مفاتيح البحث: دولة العراق (١)، الشام (١)، سورة الكهف (١)

صفحه ٠٣٣

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۴٩

أن تمسى له متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى أمر منها جانب فأوبى ١ لا ينال امرؤ من غضاريها رغبا ٢ إلا أرهقته من نوائبها تعبا، ولا يمسى منها فى جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف ٣. غرارة ما فيها، فانية، فان من عليها، لا خير فى شئ من أزوادها إلا التقوى.

من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ۴، وزال عما قليل عنه.

كم من واثق بها قد فجعته، وذى طمأنينة إليها قد صرعته، وذى أبهة قد جعلته حقيرا ۵، وذى نخوة قد ردته ذليلا ۶.

سلطانها دول ٧ وعيشها ريق ٨، وعذبها أجاج ٩، وحلوها صبر ١٠، وغذاؤها سمام ١١ وأسبابها رمام ١٢.

حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، وموفورها منكوب ١٣ وجارها محروب ١۴.

ألستم فى مساكن من كان قبلكم أطول أعمارا وأبقى آثارا، وأبعد آمالا، وأعد عديدا. وأكثف جندا؟ تعبدوا للدنيا أى تعبد، وآثروها أى إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ، ولا ظهر قاطع ١۵.

(١) أوبى: صار كثير الوباء.

(٢) الغضارة: النعمة، والرغب: الرغبة، والمرغوب فيه.

(٣) القوادم: جمع قادمة، ريش فى مقدم جناح الطائر.

(۴) يوبقه: يهلكه.

(۵) أبهة: عظمة.

(۶) النخوة: الافتخار.

(۷) دول – بضم الدال – المنحول.

(۸) الريق: الكدر.

(۹) أجاج: شديد الملوحة.

(۱۰) الصبر: عصارة الشجر المر.

(۱۱) سمام: جمع سم، وهو مثلث السين.

(۱۲) الرمام: جمع رمة – بالضم، القطعة البالية من الحبل، ومنه (ذو الرمة).

(۱۳) موفورها..: من كان عنده وفر (كثرة) من الدنيا معرض للمصائب والنكبات.

(۱۴) محروب: المحروب من سلب ماله.

(۱۵) ظهر قاطع: وسيلة تقطع براكبها الطريق بأمان وتبلغه غايته.

(۴۹)

مفاتيح البحث: الصبر (۲)، الخوف (۱)، الطيران، الطير (۱)، الهلاك (۱)

صفحه ۳۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۵۰

فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفسا بفدية ۱ أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت إليهم صحبة..؟ بل أرهقتهم بالقوادح ۲ وأوهقتهم بالقوارع ۳ وضعضعتهم بالنوائب ۴، وعفرتهم للمناخر ۵، ووطئتهم بالمناسم ۶، وأعانت عليهم ريب المنون.

فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها ۷ وآثرها وأخلد إليها ۸ حين ظعنوا عنها لفراق الأبد ... أفهذه تؤثرون؟ أم إليها تطمئنون؟ أم عليها تحرصون؟

فبئست الدار لمن لميتهمها، ولم يكن على وجل منها.

فاعلموا – وأنتم تعلمون – بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا (من أشد منا قوة..) ۹ حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا ۱۰. وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا ۱۱، وجعل لهم من الصفيح ۱۲ أجنان ۱۳ ومن التراب أكفان...

استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة ... ۱۴.

* ركز الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة الوعظية – كما هو شأنه فى معظم مواعظه – على عاملين ثابتين فى طبيعة الحياة على هذه الأرض:

(۱) لم تدفع عنهم الدنيا بلاء الموت.

(۲) أرهقتهم: أتعبتهم. والقوادح: جمع قادح، مرض يصيب الأسنان والشجر. أراد به هنا المصائب والنكبات.

(۳) الوهق: حبل تصطاد به الفريسة، والقوارع: المحن. أراد أنهم أسرى مشاكلهم المادية والاجتماعية.

(۴) ضعضعتهم: جعلتهم قلقين، وحرمتهم الاستقرار وطنب العيش.

(۵) عفرتهم: العفر التراب، مرغت آنافهم بالتراب، كناية عن إذلالهم.

(۶) المنسم: خف البعير، كناية عن إذلالهم.

(۷) دان: خضع.

(۸) أخلد: إطمأن.

(۹) سورة فصلت (رقم ۴۱ مكية) الآية: ۱۵.

(۱۰) لا يدعون ركبانا لأنهم مقهورون ولم يحملوا مختارين. ولا يدعون ضيفانا لأنهم يقيمون فى قبورهم.

(۱۱) الأجداث: القبور.

(۱۲) الصفيح: الوجه من كل شئ له مساحة، والمراد هنا الأرض.

(۱۳) أجنان: جمع جنن – بالفتح – القبر.

(۱۴) نهج البلاغة – رقم الخطبة: ۱۱۱.

(۵۰)

مفاتيح البحث: الظلم (۱)، القبر (۴)، كتاب نهج البلاغة (۱)، سورة فصلت (۱)، الموت (۱)، المرض (۱)

صفحه ۰۳۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۵۱

۱ – عامل التغير والتقلب فى الحياة:

الحياة بما هى حركة، وبما هى تفاعل، وبما هى طاقات وقوى تتفاعل فتتكامل أو تتقاتل فى داخل كل شئ ومن حول كل شئ فى الكون المادى كله – الحياة بما هى كل هذا متقلبة متغيرة متحولة باستمرار – هى فى حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة.

۲ – عامل الزمن:

أثر الزمن فى الأشياء والأعمار ظاهر لكل ذى بصيرة، فالزمن يفتت الحياة باستمرار، فما أن يبدأ وجود الحياة فى شئ، بل ما أن يبدأ وجود شئ، حيا كان أو غير حى حتى يبدأ هذا الوجود بالذوبان والتفتت والضياع. إن الحياة تولد فى الزمن. ولكن الزمن يغتالها باستمرار.

وهذان العاملان – التغير والزمن – لا يختصان بعالم الإنسان وحده، إنهما يعملان فى كل شئ ويحولان دون ثبات كل شئ: الجماد، والنبات، والحيوان، والإنسان.

ويتميز الإنسان – بالنسبة إليهما – عن العوالم الأخرى بأنه – لما أوتى من عقل وإدراك – يستطيع أن يعى الوجه المأساوى لعمل هذين العاملين، وأثرهما فى حياته وفى الوجود من حوله.

ووعى الإنسان لهذين العاملين وأثرهما فى الحياة والأشياء يجعله قادرا على مواجهة الحياة ومباهجها الموقتة، ووعودها السخية، وآمالها اللامعة. بعقل صاف خال من الأوهام، ويعزز فيه النزعة الواقعية فى أخذ الحياة والتعامل مع الدنيا – هذه النزعة التى من شأنها أن تجعل الآمال أقل بريقا وجذبا واستهواء، والانتصارات أقل مدعاة للغرور والصلف، والمآسى أقل إيلاما. ويعزز مناعة الإنسان أمام تكالب صروف الدهر، وخيبات الأمل وضياع الجهود، ونوازل المرض والموت ... فلا ينهار بسبب ذلك ولا ييأس ولا يستسلم، ولا يستكين ولا يهرب من العمل، وإنما ينبعث للعمل والكفاح فى سبيل نفسه وأهله ومجتمعه وعالمه من جديد لأنه لم يفاجأ بالخيبة والإخفاق، بل كان مهئ النفس لتقبلهما ومن ثم فقد كان مهئ النفس لتجاوزهما، واستئناف

(۵۱)

مفاتيح البحث: المرض (۱)، البعث، الإنبعاث (۱)

صفحه ۰۳۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۵۲

العمل مرة أخرى بأمل واقعى جديد.

بالإجمال: إن وعى الإنسان لهذين العاملين، وإدراكه لأثرهما العميق والمصيرى فى حياته وفى الوجود من حوله يجعله قادرا على مواجهة الحياة بكل وجوهها وما فيها من حسن وقبح، وألم ولذة، وواقع وخيال، ونجاح وإخفاق ... يواجهها بروح واقعية.

وحين يدخل الإمام عليه السلام فى وعظه عنصر التاريخ فيتحدث عن الماضين وما حل بهم من كوارث وآلام وما انتهت إليه حياتهم على عظمة توهجها من انطفاء فإنه يقدم لتحليله النظرى الذى تناول واقع حياة معاصريه الذين يخاطبهم - يقدم نماذج تطبيقية من حياة أقوام آخرين.. إنه يقدم لمعاصريه تجربة الآخرين التى يعرفونها، ويبعثون حياتهم فى ساحاتها، ويرون آثارها الباقية من الماضى فى هذه الساحات.

فهذه المدن والمساكن، وهذه الضياع والمزارع، وهذه القلاع والحصون عمرها فى عصور سابقة أناس تقلبت بهم صروف الحياة وأفراحها وأحزانها، والآمال التى سعدوا بإنجازها وخيبات الأمل، ثم ماتوا وانقطعوا عن كل ما كان يملأ عليهم حياتهم من أحلام وأمانى.

ومطامح ومطامع، وحب وبغضاء، وصداقات وعداوات...

وكان هؤلاء أطول أعمارا، وأكثر قوة.. وأعد عديدا، وقد وجهوا كل ما أوتوا من قدرة وذكاء ومعرفة لدنياهم، فأعدوا لها واستعدوا، ولم يشغلهم عنها تفكير بالآخرة أو عمل لها، ولكن كل ذلك لم ينفعهم ولم يعد عليهم بطائل، لأن عامل التغير والتقلب من جهة وعامل الزمن من جهة أخرى، عملا دائما - كما لا يزالان يعملان، وكما سيعملان فى المستقبل - على تفتيت حياة أولئك الناس، وكانت حياتهم - كما هى الحياة الآن، وكما ستبقى الحياة - تحمل فى جوهرها وفى أعماقها أثناء ولادتها ونموها وازدهارها بذور تقلصها وذبولها وانطفائها فى آخر المطاف.

* هذا نموذج من وعظ الإمام على الذى يدخل فيه عنصر التاريخ باعتباره يضئ الحاضر لأنه يضيف إليه تجربة الماضى ويجعله - بذلك أكثر غنى، ويجعل الإنسان أكثر قدرة على مواجهته بروح واقعية وبعقل خال من الأوهام، فلا يهن ولا يستسلم تحت وطأة الكارثه، ولا يطغى ولا يطوح به الغرور وهو فى ذرى النجاح.

(۵۲)

مفاتيح البحث: مسألة الحسن والقبح (۱)، الطواف، الطوف، الطائفة (۱)، الغنى (۱)

صفحه ۳۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۵۵

التاريخ فى مجال السياسة والفكر تمهيد استخدام الإمام التاريخ فى مجال الفكر كما استخدمه فى مجال السياسة.

كان رجل رسالة هى الإسلام، رسالة استوعبت الحياة كلها: تنظيما وتشريعا ومناهج.

وهى رسالة ذات طابع عالمى، ممتدة فى الزمان إلى آخر الزمان، أراد الله تعالى لها أن تكون دينا للإنسان كل إنسان، تقوده نحو التكامل الذى يحقق له التوازن والتسامى.

وهى رسالة تقوم على العلم والمعرفة، وترفض الجهل لأنه يتيح لأعدائها أن يتسللوا فى ظلماته إلى قلوب أتباعها المؤمنين بها وعقولهم فيشوهون ويحرفون عقائدها وشرائعها ومناهجها، ويضللون بعد ذلك أتباعها المؤمنين بها وذلك حين يلبسون لهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ.

ومن هنا كان من أكبر هموم رجل الرسالة الاستعداد الدائم فى هذا المجال، لأجل أن يجعل المسلمين على معرفة كاملة بالإسلام، وفى

حالهٔ وعی متجدد ونام لحقیقهٔ الإسلام وجوهره ومناهجه وغایاته لیکون المسلم المستنیر بالمعرفهٔ فی حصانهٔ من الحیرهٔ والتضلیل، علی بینهٔ من أمره، ولیکون الإسلام بمنجاهٔ من التشویه والتحریف، ویکون کل مسلم مستنیر دیدبانا علی دینه الذی هو معنی وجوده وشرف وجوده.

ومن هنا کان علی علیه السلام فی حرکهٔ تعلیمیهٔ دائمهٔ لمجتمعه وخواص أصحابه

(۵۵)

مفاتیح البحث: الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السلام (۱)، آخر الزمان (۱)، اللبس (۱)، الجهل (۱)

صفحه ۰۳۸

التاریخ وحرکهٔ التقدم البشری ونظرهٔ الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحهٔ ۵۶

الذین کانوا علماء ینشرون علمهم ووعیهم بین الناس بالحدیث والخطابهٔ وحلقات الدرس والتعلیم.

وکان الإمام علیه السلام یختار ولاته وعماله علی البلدان من ذوی المعرفهٔ ومن أهل البصائر ۱. الذین یتمتعون بالمعرفهٔ والوعی والصلابهٔ فی العقیدهٔ لیکونوا - إلی جانب عملهم الإداری - معلمین ورجال رسالهٔ، وکان یوجههم نحو هذه المهمهٔ التعلیمیهٔ والتوجیهیهٔ. من ذلک ما کتب به إلی قثم بن العباس عامله علی مکهٔ:

أما بعد، فأقم للناس الحج، وذکرهم بأیام الله ۲، واجلس لهم العصرین ۳، فأفت المستفتی، وعلم الجاهل، وذاکر العالم ۴.

* وفی عمله الفکری علی صعید التعلیم والتوعیهٔ استعان الإمام علیه السلام بعنصر التاریخ لیعطی للفکر حرارهٔ وحیاهٔ وحرکهٔ، وعمقا فی الزمان وفی الإنسان، ولیجعل، بهذا، من القضیهٔ الفکریهٔ بضعهٔ من الحیاهٔ المعاشهٔ تحمل فی ثنایاها رائحهٔ المعاناهٔ الإنسانیهٔ.

*(۱) أهل البصائر تعبیر إسلامی یعود إلی صدر الإسلام، یعنی به المؤمنون الواعون الذین یتخذون مواقفهم السیاسیهٔ وغیرها نتیجهٔ لقناعات مستوحاهٔ من المبدأ الإسلامی، ولا تتصل بالاعتبارات النفعیهٔ.

ومن المؤکد أن هذا التعبیر غدا فی وقت مبکر جدا مصطلحا ثقافیا إسلامیا یعنی:

الفئهٔ المؤمنهٔ الواعیهٔ للإسلام علی الوجه الصحیح، والملتزمهٔ بالإسلام فی حیاتها بشکل دقیق، بحیث أنها تتخذ مواقف مبدئیهٔ من المشاکل الاجتماعیهٔ والسیاسیهٔ التی تواجهها فی الحیاهٔ والمجتمع، فلا تصغی إلی الاعتبارات الشخصیهٔ والقبلیهٔ کما أنها لا تقف علی الحیاد أمام هذه المشکلات، وإنما تعبر عن التزامها النظری بالممارسهٔ الیومیهٔ للنضال ضد الانحرافات.

راجع بحثا مفصلا عن هذا الموضوع فی کتابنا أنصار الحسین: الرجال والدلالات - الطبعهٔ الأولی - دار الفکر - سنهٔ ۱۹۷۵ / فصل النخبهٔ ص ۱۶۵ - ۱۷۰.

(۲) أیام الله مصطلح ثقافی إسلامی، یغلب استعماله للدلالهٔ علی الکوارث الکبری التی أصابت الشعوب والجماعات نتیجهٔ لانحرافها فی العقیدهٔ والشریعهٔ والأخلاق، وقد یستعمل للدلالهٔ علی الانتصارات الکبری التی أحرزها المؤمنون فغیرت مجری التاریخ أو مجری تاریخ جماعهٔ مؤمنهٔ أو شعب مؤمن.

(۳) العصران: هما الغداهٔ والعشی.

(۴) نهج البلاغهٔ - باب الکتب / الکتاب رقم ۶۷.

(۵۶)

مفاتیح البحث: مدینهٔ مکهٔ المکرمهٔ (۱)، قثم بن العباس (۱)، الحج (۱)، الجهل (۱)، کتاب نهج البلاغهٔ (۱)

صفحه ۰۳۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۵۷

وكان الإمام رجل سياسة.

كان سياسيا على مستوى رجل الدولة ورجل العقيدة والرسالة طيلة حياته. ملأ العمل السياسى حياته فى عهد النبى (ص) بتكليف منه، وفى عهود الخلفاء الذين تقدموه لحاجتهم إليه أو لحاجة الناس إليه. وكان - بالإضافة إلى ذلك - حاكما ورئيس دولة فى السنين الأخيرة من حياته.

وكان الإمام بهذين الاعتبارين فى حاجة دائمة إلى أن يعطى لأمته ولأعوانه التوجيهات السياسية اللازمة. وكان فى بعض هذه التوجيهات يستعين بعنصر التاريخ ليضئ الفكرة السياسية التى يقدمها، وليعطى توجيهه السياسى صدقا واقعيا إضافة إلى الصدق النظرى ...صدقا واقعيا يوفر للتوجيه السياسى حرارة ووهجا. إنه بهذا العمل يؤنس التوجيه السياسى، ويجعله بحيث يخالط القلب كما يوجه العقل.

(۵۷)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، الصدق (۱)

صفحه ۴۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶۱

التاريخ فى مجال الفكر تمهيد التفكر هو التأمل، والفكر - بالكسر - اسم منه، وهو يستعمل - حسب ما ذكره علماء اللغة - للدلالة على معنيين:

أحدهما: القوة المودعة فى الدماغ، الذى هو مركز، التفكير وإن كان علينا أن نعترف بأن لوضعية أعضاء أخرى فى الجسم من حيث الصحة والمرض دخلا فى عملية التفكير. والفكر - بهذا المعنى - اسم لآلة التفكير.

ثانيهما: أثر التفكر، وهو ترتيب أمور فى الذهن تتولد منها معرفة جديدة، أو تؤدى إلى تعميق وتوسيع معرفة قديمة. والفكر - بهذا المعنى - اسم لفعل التفكير أو لعملية التفكير.

هذا هو المعنى اللغوى لكلمة تفكر وفكر مع شرح وتوضيح.

وثمة معنى ثالث لهذه الكلمة غلب استعمال اللفظ فيه فى العصور الأخيرة، ولعله دخل العربية من الاستعمالات الأوربية، وهو نفس الأفكار والمعلومات التى يجعلها الفكر - بالمعنى الأول - موضوعا لعمله - الفكر بالمعنى اللغوى الثانى -، فيقال: مثلاء الفكر الإسلامى، والفكر المسيحى، والفكر الماركسى، والفكر الدينى، فالفكر المادى ... يراد من ذلك الأفكار والمناهج والمعلومات التى يتشكل منها ويتقوم بها مذهب أو فلسفة أو دين.

(۶۱)

مفاتيح البحث: الغلّ (۱)

صفحه ۴۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶۲

والمقصود ببحثنا هنا هو هذا المعنى لكلمة فكر.

* والفكر فى الثقافة التى تقوم شخصية كل أمة على قسمين: فكر حى، وفكر ميت، والأول هو ما يطلق عليه لفظ (فكر) فى عصرنا الحاضر، والثانى هو ما يطلق عليه فى عصرنا الحاضر مصطلح (تراث).

* والتراث فى أصل اللغة: الميراث. وقد وردت كلمة (تراث) فى القرآن الكريم مرة واحدة فى قوله تعالى فى خطاب المشركين:

...وتأكلون التراث أكلا لما ... ١.

وقد استعملت كلمة ميراث فى اللغة العربية فى الماديات والمعنويات. أما استعمالها فى الماديات فأمثلته كثيرة ظاهرة. وأما استعمالها فى المعنويات فقد ورد فى القرآن الكريم فى عدة مواضع، هى الآيات التالية:

١ -.. فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ... ٢.

٢ ... - ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا: فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ... ٣.

٣ ... - وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ۴.

وقد استعملت هذه الكلمة فى السنة فى المعنويات أيضا كما فيما روى عن الإمام الصادق (ع) أنه رواه عن رسول الله (ص):

١. سورة الفجر (مكية) رقم ٨٩ - الآية ١٩.

(٢) سورة الأعراف (مكية) رقم ٧ - الآية ١۶٩.

(٣) سورة فاطر (مكية) - رقم ٣۵ - الآية ٣٢.

(۴) سورة الشورى (مكية - رقم ۴٢) الآية: ١۴.

(۶٢)

مفاتيح البحث: الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام (١)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (١)، القرآن الكريم (٢)، الوراثة، التراث، الإرث (٣)، سورة الأعراف (١)، سورة الشورى (١)، سورة الفجر (١)، سورة فاطر (١)

صفحه ۰۴۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶٣

...إن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر ١.

وقد وردت مادة (و. ر. ث) فى نهج البلاغة فى مواضع كثيرة بصيغة الفعل الماضى والفعل المضارع، وبصيغة الاسم (ميراث، تراث) وغيرهما، واستعملت فى الماديات والمعنويات، فمن استعمالها فى المعنويات قوله: لا ميراث كالأدب.. ٢ و ... العلم وراثة كريمة... ٣. واستعملها فى المعنويات فى السلطة السياسية فى قوله: إن بنى أمية ليفوقوننى تراث محمد صلى الله عليه وآله تفويقا ... ۴ وقوله: فصبرت وفى العين قذى ... أرى تراثى نهبا ... ۵.

* وعلى ضوء هذه الاستعمالات يمكن أن يقال أن التراث أو الميراث - بمعناه العام، لا بمعناه الاصطلاحى الفقهى - هو كل ما يخلفه سابق فى الحياة للاحق له فى الزمان، مهما بعد الزمان بالمورث، سواء فى ذلك الماديات والمعنويات.

وإذن، فما يقع عليه اسم التراث أو الميراث شئ لم يكن فى حوزة الوراث وإنما انتقل إليه من غيره. وهو قد يكون فى حاجة إليه وقد لا يكون فى حاجة إليه. ومع كونه فى حاجة إليه فقد يعى حاجته إليه ويستعمله وينتفع به، وقد يعى حاجته إليه ولكنه ينصرف عنه لسبب أو لآخر، وقد لا يعى حاجته إليه فيهمله ولا يعنى به إلا باعتباره أثرا من الآثار التى تتصل بأحبته وأهله الماضين ربما تكون له قيمة عاطفية ولكن ليس له قيمة عملية فى حياة الوارث.

وهذا يعنى أن التراث أو الميراث ليس - بالضرورة - جزءا مقوما للحياة الحاضرة تفسد بدونه لأنه يشغل فيها حيزا مهما وأساسا، ويسد فيها حاجات ملحة لا غنى عنها، وإنما

(١) محمد بن يعقوب الكلينى: الكافى ج ١ ص ٣۴.

(٢) نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ۵۴ و ١١٣.

(۳) نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ۵.

(۴) نهج البلاغة - الخطبة رقم ۷۷.

(۵) نهج البلاغة - الخطبة رقم ۳.

(۶۳)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، كتاب نهج البلاغة (۵)، بنو أمية (۱)، الوراثة، التراث، الإرث (۸)، محمد بن يعقوب (۱)

صفحه ۰۴۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶۴

قد يكون الأمر فيه هكذا، وقد يكون - فى نظر الوارث - شيئا يحسن أن يقتنى ويستعمل ولكن فقده لا يغير شيئا من وضع الحياة الحاضرة ولا يدخل نقصا هاما فيها. وقد يكون فى نظر الوارث ذا قيمة عاطفية محضة لا يؤثر فقده أبدا. وقد يكون فى نظر الوارث عبأ على الحياة ومعوقا لنموها ومانعا من ازدهارها، ولذا فهو يسعى إلى نبذه والتخلص منه والبراءة من آثاره.

هذا تحليل لمفهوم التراث أو الميراث فى اللغة العربية - بمعناه العام لا بمعناه الاصطلاحى الفقهى الخاص.

وقد استعملت كلمة التراث فى اللغة العربية فى العصور الأخيرة على ألسنة الباحثين والأدباء والمفكرين للدلالة على آثار الفكر الإسلامى فى السنة وعلومها، والفقه وأصول الفقه، والتاريخ، والأدب، والفلسفة: وما إلى ذلك من الآثار الفكرية التى خلفها المسلمون باللغة العربية.

ذاك هو الفكر، وهذا هو التراث.

* والفكر، فى المفهوم الحضارى - إذن هو المعلومات والشرائع والمناهج والقيم التى تقوم شخصية الأمة الثقافية والحضارية، وتعطيها سمتها المميزة لها عن الأمم الأخرى، ويرسم لها دورها فى حركة التاريخ.

إن هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم تشكل عقل الأمة وروحها وضميرها. وهى تنظر إلى الكون والحياة والإنسان والأمم الأخرى من خلال هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم، وتواجه مشاكلها ومسائل حياتها على ضوء الحلول والمواقف التى يحميها هذا الفكر. وإنتاجها العقلى النظرى كله يكون مطبوعا بطابع هذا الفكر، محتويا روحه، ومستهديا بالنور الذى يشعه...

مثلا: الماركسية هى فكر العالم الشيوعى. فهى تشكل عقل شعوبه وروحها وضميرها، وهى تميز هذه الشعوب عن العالم الرأسمالى بالسمات التى تطبع بها طريقة الحياة لدى هذه الشعوب. كما إن النتاج الثقافى النظرى لهذه الشعوب مرسوم

(۶۴)

مفاتيح البحث: أصول الفقه (۱)، الوراثة، التراث، الإرث (۴)

صفحه ۰۴۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶۵

بالطابع الخاص للماركسية، بل لقد طمح المنظرون السوفيات إلى طبع النظريات العلمية التى تفسر بها المادة بالطابع الخاص للماركسية: هذا فى العصر الحديث.

وقد كانت المسيحية فى القرون الوسطى وما قبلها بالنسبة إلى أوربا على هذه الشاكلة.. كما كانت الكونغو شيوعية بالنسبة إلى الصين.. والهندوسية بالنسبة إلى الهند، والزردشتية بالنسبة إلى إيران، والإسلام بالنسبة إلى العالم الإسلامى منذ ظهور الإسلام وإلى يومنا هذا..

ولكل فكر بؤرة يرتد إليها كل شئ باعتبارها مقياسا للصدى والأصالة والاستقامة، وينطلق منها كل شئ باعتبارها الذخر الأكبر للأصول الأساس فى التكوين الثقافى للأمة.

مثلا: كتاب رأس المال للماركسية والشيوعية، والإنجيل والتوراة للمسيحية، والبهاجافاد - جيتا للهندوسية، والقرآن للإسلام. والآوستا للزردشية.. وهكذا يكون لكل فكر مركز أساس يتضمن الخطوط الكبرى والمبادئ المركزية لذلك الفكر.

هذا هو الفكر فى المفهوم الحضارى.

* أما التراث فى المفهوم الحضارى فهو مجرد ثقافة ومعرفة نظرية لا تبلغ فى أكثر الأحيان ومعظم الحالات أن تبلغ مستوى كونها فكرا بالمعنى الذى شرحناه آنفا، ولنقل: التراث فكر ميت.

إن التراث لا يدخل فى صلب ثقافة الأمة التى تغذى عقلها العملى وفعاليتها وحركيتها فى مجرى التاريخ، ولا يقوم وجودها، ولا ينير طريق حياتها، ولا يميزها عن غيرها من الأمم، وبالإجمال: كل ما هو دور إيجابى للفكر فى الأمة منفى عن التراث. إن التراث شئ من بقايا الآباء والأجداد، كان صالحا لحياتهم فهو يمثل هذه الحياة الماضية وأساليبها وألوانها، ولكنه لا يصلح للحياة الحاضرة، أو لا يصلح أكثره للحياة الحاضرة، وإذا احتفظنا به ودرسناه وأقمنا له المؤسسات فليس لأجل أن نقيم عليه حياتنا ونقوم به شخصيتنا كأمة، وإنما ذلك لما تربطنا به من صلات عاطفية، أو لأنه

(۶۵)

مفاتيح البحث: دولة ايران (۱)، القرآن الكريم (۱)، الهند (۱)، الوراثة، التراث، الإرث (۴)، الصّلب (۱)، العصر (بعد الظهر) (۱)

صفحه ۰۴۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶۶

يمثل حلقة هامة فى تاريخ نمونا، إن له قيمة عاطفية وقيمة أكاديمية (نظرية)، وليست له قيمة عملية، أو إن أكثره كذلك. ونحن ندرسه، ونحققه وننشره، ونحفظه لنعرف كيف كنا لا لنعرف كيف نكون؟ ولنرى صورتنا القديمة لا لنرسم صورتنا الحاضرة أو لنرى كيف تكون صورتنا المستقبلة. إن التراث، فى أحسن الحالات، شئ من أشياء القلب والعاطفة، وليس من أشياء العقل والعمل.

هذا هو التراث فى المفهوم الحضارى.

* وهنا أود أن أثير مسألة شديدة الخطورة وذات أهمية بالغة جدا بالنسبة إلينا نحن المسلمين فى هذا العصر، وهى أن الكثرة الساحقة من المسلمين المتعلمين والمثقفين على مناهج الغرب وأساليبه ينظرون إلى الإسلام - بما هو ثقافة ونظام وحضارة - ويتعاملون معه على أنه تراث، أى فكر ميت، لا على أنه فكر.

أما الكثرة الساحقة من المسلمين فهم بحمد الله ونعمته لا يزالون يتعاملون مع الإسلام على أنه فكرهم (لا تراثهم) وهم يحرصون ما وسعهم الحرص على أن يقيموا حياتهم على هدى أحكامه وقيمه، وإن كان علينا أن نعترف أن الحياة الحديثة كثيرا ما تضطر الكثير منهم إلى تجاوز أحكام الإسلام، أو تغريهم بتجاوزها، لأنها حياة قائمة على غير الإسلام، وتستمد مفاهيمها الفكرية، وقيمها الأخلاقية، ومقاييسها الجمالية، وأفكارها العملية من غير الإسلام. ولكن هذه الكثرة الساحقة من المسلمين لا تزال تعتبر الإسلام - كما قلنا - (فكرها) وإن تجاوزته اضطرارا أو تهاونا فى الكثير أو القليل من شؤون حياتها. إنه عقيدتها، وشريعتها، وقيمها.

ونعود، بعد هذا الاستطراد، إلى شرح موقف المسلمين الذين يتعاملون مع الإسلام على أنه تراث لا فكر.

هم يرون أن الإسلام - لا بما هو عقيدة - وإنما بما هو شريعة وقيم، فكر عصر مضى، وأنه بالنسبة إلى عصرنا هذا - حيث تشكل حياتنا الحضارة الحديثة، ومناهجها فى التشريع، وقيمها - مجرد تراث، يمثل مرحلة سابقة فى نمونا تجاوزها تطور التاريخ، فليس

(۶۶)

مفاتيح البحث: الوراثة، التراث، الإرث (٢)، العصر (بعد الظهر) (١)

صفحه ۴۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٦٧

لنا والحال هذه أن نعتبره (فكرنا) أنه (تراثنا) مبعث فخر لنا، موضوع حبنا وتقديرنا، ولكنه لا يصلح لأن يشكل حياتنا، ويكون موضوع عملنا الذى نبنى عليه مناهجنا ونستمد منه قيمنا.

والمفكرون العرب المحدثون المعنيون بقضايا النهضة العربية كثيرا ما يستعملون فى التعبير عن الإسلام أو عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر الإسلامى كلمة (تراث) ١ ذاهبين إلى أن هذا (التراث الإسلامى) ليس شأن عصرنا وليس شأن الإنسان العربى فى هذا العصر، وإنما هو شأن السلف وقد ورثناه عنهم، ومن المؤكد أنه ليس من الصالح ولا من الراجح أن نأخذه كله لنتمثله فى حياتنا مناهج وتشريعات وقيما لأنه معطل معوق لنمو هذه الحياة المعاصرة وازدهارها، ولكن هل ننبذه كله فلا نعنى بشئ منه، ونحفظه كأثر من آثار تاريخنا، أو نخضعه لمقياس انتقائى نأخذ بموجبه من هذا (التراث) ما يتفق مع حياتنا الحاضرة والفكر المعاصر وننبذ من هذا (التراث) ما لا يتوافق مع هذا (الفكر المعاصر) أو يخالفه.

ولكن هؤلاء المفكرين على خطأ فادح فى هذه المسألة الهامة، بل المصيرية لا بالنسبة إلى العرب وحدهم، بل بالنسبة إلى المسلمين جميعا.

إن الإسلام لا ـ يزال حتى الآن فكر المسلمين، والعرب منهم، وسيبقى فكر المسلمين جميعا. ولم يبلغ الإسلام فى قلوب وعقول المسلمين درجة من الضمور والتقلص أو الاندثار والنسيان بحيث يكون تراثا يحتاج إلى إحياء كالذى حدث فى أوروبا فى عصر النهضة بالنسبة إلى التراث اليونانى - الرومانى.

إن الإسلام لا يزال حيا مملوءا بالحياة فى قلوب وعقول المسلمين، ولا يزال قادرا على تحريك مئات الملايين من المسلمين فى جميع أنحاء العالم نحو أهدافه العظيمة

(١) نشير هنا إلى أن بعض دور النشر الكبرى فى بعض البلاد العربية، ومنها ما هو تابع لمؤسسات ثقافية رسمية، نشر كتبا فى الفكر الإسلامى تحت عنوان (تراثنا) أو (سلسلة التراث) وغير ذلك من العناوين. هذا وعلينا أن ننبه هنا إلى أنه ليس كل من استعمل كلمة (تراث) فى الدلالة على الفكر الإسلامى يحمل على الفكر الإسلامى هذه النظرة، فثمة مفكرون وباحثون مسلمون مخلصون استعملوا كلمة (تراث) فى الدلالة على الفكر الاسلامى دون أن يقصدوا بها موقفا فكريا من (الفكر الإسلامى) يضعه فى (التراث) بالمعنى الحضارى، وإنما قصدوا بالتعبير مجرد الدلالة اللغوية.

(٦٧)

مفاتيح البحث: الوراثة، التراث، الإرث (٧)، النسيان (١)، البعث، الإنبعاث (١)، العصر (بعد الظهر) (١)

صفحه ۴۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٦٨

النبيلة، وإذن فهو لا ـ يزال فكر هذه المئات من الملايين من البشر، وإنما لا يحركها أو لا تتحرك وفقا لمناهجه بسبب وجود الموانع الخارجية القاهرة والمعوقات الشالة لحركة المسلمين من خلال إسلامهم، وهى قوى الحضارة المادية التى استعمرت بلاد المسلمين وأقصت الإسلام عن مركز القيادة وحلت محله فى هذا المركز.

وإذن، فالإسلام ليس تراثا ميتا نختلف على إحيائه وعدم إحيائه أو إحياء بعضه مما يتلاءم مع عصرنا كما يقولون ... إنه فكر حى وما

يدعوننا إليه هو إماتة هذا الفكر الحى لإحلال فكر آخر غريب محله هو فكر الحضارة المادية.
وقد أفلحت قوى الحضارة المادية لا فى إماتة الإسلام فهو لا يزال حيا كما قلنا، ولكن فى فرض نفسها على حياة المسلمين الذين يحملون فى قلوبهم وعقولهم إسلاما حيا قادرا على التحريك ولكنه ممنوع عن التحريك وليس عاجزا عنه.
واستمرار مفكرينا المتأثرين بهذه الحضارة المادية فى جهودهم لفرضها على واقع حياة المسلمين وعزل الإسلام عن هذه الحياة لن يؤدى إلى (إماتة الإسلام) كما لن يؤدى إلى تحرير المسلم أو العربى، وإنما يؤدى إلى مزيد من التمزق الداخلى والأزمات الحضارية لإنسان ينقسم على نفسه، موزع الذات بين ضرورات حياته اليومية وبين قناعاته العقلية والنفسية والأخلاقية والعاطفية. وهذا ما يؤدى - كما أدى بالفعل فى العالم الإسلامى كله ومنه العالم العربى - إلى فقدان الفعالية والإيجابية فى مواجهة تحديات الحياة، ويؤدى من ثم إلى مزيد من التخلف والعجز عن مجاراة حركة التقدم لدى الأمم الأخرى وهكذا يسئ هؤلاء المفكرون من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فبدلا من إتاحة الفرصة أمام الإنسان العربى للتغلب على مصاعبه وعوامل تخلصه يضيف هؤلاء المفكرون سببا آخر للتخلف يزيد الأمر سوءا لأنه يقدم تحت شعار التقدم، وهكذا يكون حال الإنسان العربى فى هذه الحالة حالة القط الذى يلحس المبرد الذى يغرى لسانه وينزف دمه وهو يحسب أنه يغذى نفسه بالمبرد الذى يغريه فى حقيقة الحال.
*(۶۸)

مفاتيح البحث: الوراثة، التراث، الإرث (۱)، الموت (۲)

صفحه ۰۴۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۶۹
رأينا أن نقدم للبحث عن التاريخ فى مجال الفكر عند الإمام على (ع) بهذا التمهيد لشعورنا العميق بخطورة هذه المسألة، وموقفنا من الفكر الإسلامى، وضرورة تصحيح النظرة السائدة إلى هذا الفكر الذى ملاك وجودنا كله.
(۶۹)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)

صفحه ۰۴۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۷۱
۱ - النبوات أ - بداية العصر التاريخى للإنسان:
يبدو لنا من كلمات أمير المؤمنين على (ع) أن العهد التاريخى للإنسانية بدأ بظاهرة وجود النبوات فى المجتمع البشرى. هذه النبوات التى تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل، ووجود إنسانى أكمل.
ما قبل التاريخ، إذن، بالنسبة إلى الإنسانية، هو ما قبل النبوات، حيث كانت الإنسانية تعيش فى حالة البراءة الفطرية، وكانت النفس الإنسانية لا تزال عذراء ساذجة، بدائية، خالية من أى تعليم ... ولذا فلم تكن لدى الإنسانية فى فترة ما قبل التاريخ هذه تجارب ومعاناة يعود عرضها بالفائدة التعليمية والتربوية لمجتمع متحضر، تام التكوين، على درجة عالية من التعقيد، يفترض فيه أنه يبنى على هدى خاتمة الرسالات، وخلاصة النبوات، وهو مجتمع الأمة الإسلامية.
ولذا لا نجد فى جميع الكلام الصادر عن أمير المؤمنين حديثا عما قبل عهد النبوات، ومن هنا استنتاجنا أنه يعتبر إشراق النبوة وظهور الأنبياء فى المجتمعات البشرية بداية العصر التاريخى للبشرية.
وقد بين الله تعالى فى القرآن الكريم تاريخ بداية عهد النبوات فى المجتمع البشرى فقال سبحانه وتعالى:

كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق

(۷۱)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، القرآن الكريم (۱)، العصر (بعد الظهر) (۲)

صفحه ۰۵۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۷۲

ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ۱.

كان الناس أمة واحدة ... كان إنسان ما قبل التاريخ، ما قبل النبوات يحيا فى وحدة فطرية قائمة على أساس وحدة المصالح ووحدة الدم من جهة، وعلى عامل سلبى من جهة أخرى هو عدم وجود ما يهدد حالة السكون والخمود التى تميز هذه الحياة نظرا لبساطة الحاجات وتوفر ما يلبيها ويشبعها فى الطبيعة دون حاجة إلى مغالبة وصراع.

ولكن حركة الحياة النامية المتصاعدة، وتزايد عدد أفراد النوع، وتفاوت القدرات العقلية والجسمية ... كل ذلك وما يشبهه من عوامل الانقسام والتعقيد أدى إلى نشوء خلافات داخل الجماعة البشرية النامية، ومغالبة وصراع بين أفرادها وفئاتها ... وربما كان من مظاهر ذلك أو أول مظهر من مظاهر ذلك خلفيات الجريمة الأولى بين ابنى آدم حيث قتل أحدهما أخاه، وقد قص الله تعالى نبأهما فى القرآن الكريم ۲، وترددنا فى أن هذه الجريمة هى من مظاهر ذلك أو أنها أول مظهر من مظاهر ذلك ناشئ من وجود احتمال أن آدم القرآنى لا يمثل بداية الجنس البشرى على الأرض، وإنما يمثل بداية النسل البشرى الموجود الآن، ويكون، على هذا، قد وجد نسل سابق على النسل الموجود الآن من بداية يمثلها آدم سابق على آدم القرآنى، والله تعالى أعلم وعلى هذا تكون آية سورة البقرة (۲۱۳) موضوع البحث تؤرخ لفترة من عمر البشرية سابقة على الفترة التى بدأت بآدم القرآنى.

وعلى أى حال، ففى هذه المرحلة من نمو الإنسان لم تعد وحدة الدم كافية لتكوين وحدة المجتمع، ولم تعد ثمة مصالح واحدة أو متفقة، ولم تعد النفس الإنسانية عذراء، ساذجة، بدائية ... ويستحيل على النوع الإنسانى فى أن ينمو - كما أراد الله فى أوضاع كهذه تقوده فيها غرائزه فقط، ولا مرجح له فى خصوماته ومراعاته إلا غرائزه ... فى هذه

(۱) سورة البقرة (مدنية - ۲) الآية: ۲۱۳.

(۲) سورة المائدة (مدنية - ۵) الآيات: ۲۷ - ۳۱.

(۷۲)

مفاتيح البحث: القرآن الكريم (۱)، سورة البقرة (۲)، القتل (۱)، الجماعة (۱)، سورة المائدة (۱)

صفحه ۰۵۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۷۳

المرحلة من نمو الإنسان قضت حكمة الله ورحمته بإرسال الأنبياء حاملين إلى الإنسانية منهاج هدايتها الذى يخرجها من عهد الغريزة إلى عهد العقل ومن منطق الصراع الذى مرجعه الغريزة والقوة إلى منطق النظام ومرجعية القانون.

وقد حقق الإنسان، بإشراق عهد النبوات، قفزة نوعية عظيمة وحاسمة فى تطوره نحو الأعلى وتكامله، فقد خرج المجتمع البشرى بالنبوات عن كونه تكوينا حيوانيا - بيولوجيا إلى كونه ظاهرة عقلية - روحية.. لقد عقلنت النبوات المجتمع الإنسانى وروحنته.

وحققت النبوات للإنسان مشروع وحدة أرقى من وحدته الدموية البيولوجية التى كانت سائدة قبل عهد الخلافات والإنقسامات

والصراع ... وهى الوحدة القائمة على أساس المعتقد، وبذلك تطورت العلاقات الإنسانية مرتفعة من علاقات المادة إلى علاقات المعانى ... بعهد النبوات بدأ عهد الإنسان...

وتمضى الآية الكريمة، بعد التأريخ لهذه المرحلة، فى بيان أن الاختلافات التى نشأت فى النوع الإنسانى، بعد إشراق عهد النبوات، غدت اختلافات فى المعنى اختلافات فى الدين والمعتقد، إذ أن أسباب الصراع والبغى من بعض الناس على بعض، واستغلال الأقوياء للضعفاء لم تلغ بالدين الذى جاءت به النبوات، بل استمرت وتنوعت، ولكن المرجع لم يعد الغريزة وإنما غدا القانون هو المرجع، وإذا كان من المستحيل على الإنسانية أن تجد قاعدة لوحدتها وتعاونها عن طريق الغرائز، وعلاقات المادة، فإن من الممكن لها أن تجد قاعدة ثابتة لوحدتها وتعاونها وتكاملها عن طريق القانون الذى يتضمنه الدين وغير القانون من تربية الدين وإغنائه لروحية الإنسان وأخلاقيته، وذلك حين يستبدل الإنسان علاقات المادة بعلاقات المعنى. وعدم بلوغ الإنسانية إلى هذا المرتقى ليس ناشئا، فى عهد النبوات، من فقدان الوسائل، وإنما هو ناشئ من سوء الاختيار البشرى، ومن سوء استخدام الحرية المعطاة.

لقد أفضنا فى الحديث عن بعض جوانب الآية الكريمة لنضئ بها الفكرة التى عبر عنها الإمام عليه السلام فى شأن النبوات وبداية العصر التاريخى للإنسان إذ قال:

(۷۳)

مفاتيح البحث: الكرم، الكرامة (۲)، العصر (بعد الظهر) (۱)

صفحه ۵۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۷۴

.. واصطفى سبحانه ... أنبياء أخذ على الوحى ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم ۱ الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر ۲ إليهم أنبياءه ...، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل، أو حجة لازمة أو محجة ۳ قائمة: رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم من سابق سمى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء ۴.

وهكذا يعبر الإمام عن جوانب من أفق الآية الكريمة، فحين تعقدت الحياة البشرية نتيجة لنمو المجتمع وتشابك العلاقات فيه، وحين أدى ذلك إلى تصادم بين ما تقضى به الحياة الاجتماعية من تعاون وما تدفع إليه الغريزة والروح الفردية من استئثار. وحين ترافق هذا مع الإنحراف عن مقتضيات الفطرة المستقيمة العذراء - وإن تكن فى ذلك الحين ساذجة - فى إدراك الخالق سبحانه وتعالى... حين حدث فى حياة الإنسانية كل هذا اقتضى لطف الله ورحمته إرسال الأنبياء ليضيئوا عقول الناس، ويرتفعوا بالمجتمع من علاقات المادة - البيولوجيا - إلى علاقات المعنى والقانون.

* وقد تواترت حركة النبوات فى تاريخ البشرية: تضئ عقولها، وتصوغ مفاهيمها، تغنى حياتها، وتضعها رويدا رويدا على طريق التكامل ... تواترت هذه الحركة فى خط تصاعدى نحو الأكمل والأفضل والأجمل، مستجيبة فى كل مرحلة من مراحل التاريخ البشرى لحاجات تلك المرحلة، باذرة فيها بذور نمو آخر فى المستقبل يهيئ لمرحلة من التقدم والتكامل جديدة.. إلى أن بلغت حركة النبوات ذروتها فى الرسالة الخاتمة الجامعة: رسالة الإسلام على لسان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(۱) اجتالتهم: صرفتهم عن الله.

(۲) واتر: تابع.. أرسل الأنبياء يتبع أحدهم الآخر.

(۳) المحجة: الطريق المستقيمة الواضحة، يريد هنا الشريعة التى تتبع.

(۴) نهج البلاغة - الخطبة الأولى.

(۷۴)

مفاتیح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، يوم عرفة (۱)، الكرم، الكرامة (۱)، الحج (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۵۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۷۵

قال عليه السلام:

...إلى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذا على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته ۱، كريما ميلاده ۲.

وقال فى خطبة أخرى:

.. بل تعاهدهم - الناس - بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملى ودائع رسالاته قرنا فقرنا، حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حجته، وبلغ المقطع ۳ عذره ونذره.. ۴.

ب - وظيفة النبوة ما وظيفة النبوة فى المجتمع البشرى؟

إنها فيما نفهم من كلمات أمير المؤمنين تتلخص فى هدفين كبيرين:

الأول:

وهو أهمهما، إحياء الفطرة الإنسانية الصافية المستقيمة، هذه الفطرة التى يهتدى بها الإنسان إلى الإيمان الصحيح بالله سبحانه وتعالى، ويدرك بها كونه مخلوقا لله، ومن ثم يدرك موقعه فى الكون. ويترتب على هذا الإيمان الواعى تصحيح المسار الإنسانى فى طريق التكامل بجعل حركة الإنسان التاريخية وثيقة الصلة بعقيدة التوحيد ومتفرعاتها.

الثانى:

وهو، من بعض الوجوه نتيجة للأول، تكوين الحوافز الروحية والنفسية

(۱) السمة: العلامة، والمراد علامات النبى محمد التى بشر بها الأنبياء السابقون.

(۲) نهج البلاغة - الخطبة الأولى.

(۳) المقطع: النهاية التى ليس عليها مزيد. أى أن أعذار الله وأنذاره تلقيا نهايتهما برسالة محمد (ص).

(۴) نهج البلاغة - خطبة الأشباح، رقم: ۹۱.

(۷۵)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۲)، الموت (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۵۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۷۶

والاجتماعية لإنجاز عملية التقدم العقلى والمادى والاجتماعى فى الحياة فى صيغة تضمن التوازن بين النمو الروحى - الأخلاقى والنمو المادى. وهذه الصيغة التى توازن بين اتجاهى النمو والنشاط الإنسانى هى الدين.

وهذه هى وظيفة النبوة كما تفهم من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

فالنبى يخرج الناس من الظلمات إلى النور فى عقائدهم وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية، ويصحح نظرتهم إلى موقعهم فى الكون،

ومن ثم يوجد الإنسان الصالح الذى يسعى نحو التكامل فيحقق لنفسه التقدم المتوازن فى الشكل والمضمون، فى الروح والمادة.

وليس النبى مخترعا كبيرا ومخططا عظيما يبدع الآلات والمؤسسات، وليست النبوة مركزا للأبحاث والدراسات وما إلى ذلك.

إن الذى يخترع الآلات وينشئ المؤسسات ويبتكر الخطط هو عقل الإنسان بعد أن تتوفر له دواعى النمو والانطلاق. فإذا تآخت معها قيم الروح والأخلاق حقق الإنسان إنجازات ماديه وتنظيمية تتفق مع مقتضيات الإيمان، وتوفر للإنسان حياة سعيدة طيبة، ورضوان الله والنجاة فى الآخرة. وإذا لم تتآخ قيم الروح والأخلاق مع دواعى النمو والانطلاق فى التعامل مع الكون المادى حقق الإنسان إنجازات مادية وتنظيمية توفر له القوة واللذة والرخاء دون أن توفر له السعادة وطيب بالحياة.

* وفهمنا لوظيفة النبوة – كما تعكسها نصوص نهج البلاغة – مستفاد من النصوص التى تحدث فيها الإمام عن حالة العالم عشية بعثة النبى محمد (ص)، ذلك لأن النصوص التى تؤرخ للنبوات السابقة لنبوة محمد (ص) نادرة من جهة، وتشبه، من جهة أخرى، أن تكون فى معظمها مجرد إشارات يغلب عليها طابع الإجمال.

ولكن هذا لا يؤثر شيئا على سلامة فهمنا لوظيفة النبوة، فإنها وظيفة واحدة منذ بداية حركة النبوات فى فجر التاريخ الإنسانى إلى ختام النبوات بنبوة محمد (ص) ورسالة الإسلام. ولا توجد اختلافات جوهرية بين النبوات من حيث وظيفتها

(۷۶)

مفاتيح البحث: مبعث النبى صلى الله عليه وآله (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۳)، كتاب نهج البلاغة (۱)، القرآن الكريم (۱)

صفحه ۵۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۷۷

الأساسية، والاختلاف الأساسى الوحيد فيما بينها هو فى درجة الشمول والاتساع من حيث مساحة شمول التشريع للنشاط البشرى من جهة، ومن حيث عموم الرسالات بالنسبة إلى الشعوب من جهة أخرى.

* قال عليه السلام:

...فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسى نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم وأوصاب ۱ تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم.. ۲.

إحتوى هذا النص الذى يؤرخ للنبوات السابقة على القضايا التالية فى معرض بيان الغاية من إرسال الأنبياء:

۱ – ميثاق الفطرة:

وهذه القضية تعنى مسألة الإيمان بالله تعالى، وما يتفرع عن هذا الإيمان من قضايا أساسية تنبع منه وتتصل بكافة شؤون الحياة.

وما عبر عنه الإمام هنا وفى مواضع أخرى من خطب وتوجيهات هو تعبير عن حقيقة كبرى من الحقائق القرآنية، ورد النبى عليها أو الإشارة إليها فى عدة آيات منها قوله تعالى:

وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ۳.

(۱) الأوصاب: المتاعب.

(۲) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

(۳) سورة الأعراف (مكية – ۷) الآية: ۱۷۲ – ۱۷۳.

(۷۷)

مفاتیح البحث: یوم القیامة (۱)، کتاب نهج البلاغة (۱)، سورة الأعراف (۱)

صفحه ۵۶

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۷۸

وقد تکرر ذکر هذه القضیة الإیمانیة الکبری فی جمیع النصوص التی أرخ فیها الإمام للنبوات.

۲ - إثارة دفائن العقول:

وهذه القضیة تعنی بعث القوی العقلیة والنفسیة فی الإنسان لإنجاز عملیة التقدم الصحیح والتغییر الإیجابی فی المجتمع عن طریق الحرکة التاریخیة المستبطنة للوعی الإیمانی المستقیم.

۳ - جعل الطبیعة موضوعا للبحث والنظرة:

هذه القضیة دل علیها قوله ...: ویروهم آیات المقدرة...

وهذه القضیة تخدم القضیتین الأولیین، فإن مراقبة الطبیعة لفهمها، والتعامل معها واکتشافها تعزز قضیة الإیمان لأنها تقدم مزیدا من الأدلة التجریبیة علی ما أدرکته الفطرة السلیمة من قضایا الألوهة. کذلک یعین التعامل مع الطبیعة بصورة مباشرة علی إنجاز عملیة التقدم، بل شرط أساسی لإنجاز التقدم المادی، وإذ تتخذ قضیة الإیمان فی ذات الإنسان مع حرکته التاریخیة فی الطبیعة والمجتمع فیکون تقدم علی هدی الإیمان وأخلاقیات الروح والعقل، ویکون إیمان یستجیب للحیاة الدنیا ولا یقف منها موقف الرفض والعداء.

* فی نص آخر أرخ الإمام للعالم حین بعثة النبی محمد (ص) فقال:

...إلی أن بعث الله سبحانه محمدا (ص ...) وأهل الأرض یومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بین مشبه لله بخلقه أو ملحد فی اسمه، أو مشیر إلی غیره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمکانه من الجهالة ... ۱.

وقال فی نص ثان:

(۱) نهج البلاغة - الخطبة الأولی.

(۷۸)

مفاتیح البحث: مبعث النبی صلی الله علیه وآله (۱)، الرسول الأکرم محمد بن عبد الله صلی الله علیه وآله (۱)، کتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۵۷

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۷۹

بعثه والناس ضلال فی حیرة، وحاطبون ۱ فی فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستنزلتهم الکبریاء ۲، واستخفتهم ۳ الجاهلیة الجهلاء. حیاری فی زلزال من الأمر وبلاء من الجهل، فبالغ (ص) فی النصیحة، ومضی علی الطریقة، ودعا إلی الحکمة والموعظة الحسنة ۴.

وقال فی نص ثالث:

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدین المشهور ... والناس فی فتن انجذم ۵ فیها حبل الدین، وتزعزعت سواری ۶ الیقن، واختلف النجر ۷ وتشتت الأمر، وضاق المخرج وعمی المصدر، فالهدی خامل والعمی شامل، عصی الرحمان ونصر الشیطان، وخذل الإیمان، فانهارت دعائمه، وتنکرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شرکه ۸ أطاعوا الشیطان فسلکوا مسالکه، ووردوا مناهله ۹، بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه، فی فتن داستهم بأخفافها، ووطئتهم بأظلافها وقامت علی سنابکها ۱۰ فهم فیها تائهون...

حائرون ... جاهلون ... مفتونون ... ۱۱.

أشار الإمام فی هـذه النصوص إلی وجوه الفساد التی کان یعانی منها العالم عشـیة بعثة رسول الله (ص)، وهی وجوه الفساد الکبری فی کل عصـر وفی کل أمة، فإصـلاحها هو وظیفة النبوة فی حرکتها الصاعدة منذ بدأت فی مستهل التاریخ البشری إلی أن ختمت بمحمد (ص).

(۱) الحـاطب هو الـذی یجمع الحطب، یقـال لمن یأخـذ بـالصواب والخطأ دون تمییز: حاطب لیل، شـبه للفتنـة باللیل الـذی تلتبس فیه الأشیاء لظلامه حیث أن الحق یلتبس فیها بالباطل.

(۲) استزلتهم: أوقعتهم الکبریاء فی الزلل والسقوط، یعنی بذلک فساد حیاتهم الاجتماعیة.

(۳) استخفتهم: جعلتهم طائشین مندفعین وراء شهواتهم الجسدیة والنفسیة دون کابح ورادع.

(۴) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ۹۵.

(۵) انجذم: انقطع.

(۶) الساریة: هی العمود، یدعم بها السقف، والجمع سوار.

(۷) النجر: الأصل، ومثله: النجار.

(۸) درست واندرست بمعنی زالت وانطمست. والشرک - بضم الراء - جمع شراک، وعفت شرکه بمعنی انطمست.

(۹) المناهل: جمع منهل، مورد النهر.

(۱۰) الأخفاف جمع خف، وهو للبعیر کالقدم للإنسان، والأظلاف جمع ظلف للبقر والشاء. والسنابک جمع سنبک: طرف الحافر.

(۱۱) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ۲.

(۷۹)

مفاتیـح البحث: الرسول الأکرم محمد بن عبد الله صـلی الله علیه وآله (۲)، الجهل (۲)، الضلال (۱)، البعث، الإنبعاث (۱)، کتاب نهج البلاغة (۲)، الشهوة، الإشتهاء (۱)

صفحه ۵۸

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۸۰

الأول:

الضـلال فی العقیـدة، فالناس ضـلال فی حیرة ... وحاطبون فی فتنـة، وهم حائرون لأنه حیث لا یسـتقر الإنسان علی عقیدة أو یؤدی به الفساد العام إلی عقیدة باطلة، فإنه یشعر بالضـیاع ویشـعر بانعدام الهدف ... انعدام المعنی من وجوده، یشـعر بالعبث حین یواجه نفسه بسؤال: من أنا؟ لماذا أنا هنا؟ ما المعنی لوجودی...؟

وهکذا یمضی هذا الإنسان الضائع فی التماس الجواب حیث لا جواب، لأنه.. بین مشبه لله بخلقه، أو ملحد فی اسمه، أو مشیر إلی غیره.

الثانی:

الفسـاد السیاسـی والاجتمـاعی، فالنـاس قـد أوقعتهم کبریـاؤهم التی لاـ مبرر لها فی الزلل والسـقوط الحضاری، فحملت أقویاءهم علی احتقار ضعفائهم وفقرائهم ... وخاصتهم إلی الاستهانة بعامتهم، فهانت کرامة الإنسان من حیث هو إنسان، وغدا مقیاس الکرامة خاضعا لعوامل غیر إنسانیـة: للثروة، أو للقوة، أو للنسب، وما إلیها. لقد غدا الناس - نتیجة لذلک مللا متفرقة متناحرة، لکل ملة مذهب وطریق، ولکل فئة هوی واتجاه، ولکل فریق منهج وغایة، والکل مفتون برأیه، مأخوذ بهواه، یعمل علی شاکلته.

والنبوة تعالـج وجوه الفساد کلها فی الإنسان والمجتمع، فی الروح وفی المادة، والمؤسـسات لتحقق الغایـة العظیمـة النبیلة، وهی تکوین الإنسان المتکامل.

وقد أعلن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هدفهم هذا على مدى التاريخ، كل واحد منهم في المحيط الذى بعث إليه في الزمان الذى كان فيه.. إلى أن ختمت النبوة بمحمد (ص) فكان هذا الهدف العظيم بحجم امتداد الرسالة الخاتمة في الزمان والمكان على مستوى البشرية كلها وعلى مدى المستقبل كله ... إلى نهاية الزمان: فبالغ (ص) في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة ... فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة.

وقد أثمر جهد الأنبياء العظيم النبيل وجهادهم ومن اتبعهم وجرى على سنتهم -

(۸۰)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، الأنبياء (ع) (۱)، الهدف (۳)، الضلال (۱)

صفحه ۰۵۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۱

أثمر تحقيق هذا الهدف العظيم الذى هو وضع الإنسانية على طريق التكامل.

وربما كان هذا القول مثيرا للدهشة والتعجب، والتساؤل:

كيف حقق الأنبياء الكرام هدفهم هذا ولم يؤمن بهم إلا القليل، وأعرض عنهم أكثر الناس، بل حاربوهم ورفضوهم..؟

إن هدف النبوة قد تحقق في كل عصر، وعلى عهد كل نبى في صورتين:

إحداهما: فيمن آمن بالنبى وصدق به واتبع منهاجه، فالتزم في حياته العامة والخاصة بالعقيدة والشريعة اللتين اشتملت عليهما رسالته.

والصورة الأخرى: تتمثل في الجو الثقافي والروحي العام الذى اشاعته الرسالة النبوية في المجتمع نتيجة لتبليغ النبى وأتباعه، وللصراع الفكرى والاجتماعي الذى ولدته الرسالة في المجتمع، فإن هذا المناخ الثقافي يترك آثاره بلا شك على المفاهيم والمؤسسات والقيم والقناعات التى تسود المجتمع، ويدفع بها نحو التغيير بصورة لا شعورية، فينتقل المجتمع إلى حالة أفضل في علاقاته وقيمه ومؤسساته وحوافز العمل فيه، وإن كان أكثر هذا المجتمع كافرا برسالة النبى.

ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هم آباء الحضارة الإنسانية والمدنية الإنسانية. وما من خير بلغته وتمتعت به البشرية في عقولها وأذواقها وقيمها ومؤسساتها وحوافز العمل من أجل التقدم المادى عندها إلا وللأنبياء فيه فضل كبير، لأنهم - على مدى التاريخ - أشاعوا، بما بثوه من الوحى الإلهى في الناس، وحدة جديدة في كل مجتمع تنبث كالنور ... كالعافية فيه فتضيء، بدرجات متفاوتة، مناطق الظلمة، وتلمس - بدرجات متفاوتة - مناطق البؤس والمرض فيه. وكان تأثير هذه الروح النبوية متفاوتا بنسبة مقاومة قوى الشر حين تعى درجة تأثير الخير النبوى، وبقاء هذا الخير حرا في التأثير حين تغفل قوى الشرعية أو ترى لنفسها مصلحة فيه.

وهكذا، فمن هذا المنظور نفهم أن كل نبى قد هدى الله به الناس من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة. فهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين آباء الإنسانية الكرام، وآباء الحضارة العظام.

(۸۱)

مفاتيح البحث: الأنبياء (ع) (۱)، الكرم، الكرامة (۱)، الهدف (۲)، الصّلاة (۱)، الصدق (۱)

صفحه ۰۶۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۲

وهذا نص آخر يضئ به الإمام جانبا آخر من جوانب وظيفة النبوة في نطاق الهدفين العظيمين، قال عليه السلام:

قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثنيت إليه أزمة الأبصار. دفن الله به الضغائن ۱ وأطفأ به الثوائر ۲. ألف به إخوانا، وفرق به أقرانا. أعز به

الذلة، وأذل به العزة ۳.

فى هـذا النص كشف الإمام عن عمل النبوة فى تغيير القيم السائدة فى المجتمع، هذه القيم التى تحكم وتوجه العلاقات داخل المجتمع بين فئاته وأفراده، وإبدالها بقيم أخرى متسـقة فى طبيعتها مع طبيعة الرسالة النبوية لأنها مستمدة منها. وما يترتب على ذلك من تغير فى المفاهيم والقناعات، ومن تبدل فى نوع العلاقات نتيجة لتبدل القيم الجاهلية بالقيم النبوية.

لقـد ثنيت أزمـة الأبصار نحو الرسول الأكرم (ص) كما كانت تثنى نحو كل نبى فى مجتمعه، لأنه قـد أثار اهتمام الناس كلهم، وأوجد هزة راحت تنداح على المجتمع كله وتنفذ فى أعماقه. وهذه الفكرة تضـئ التحليل الذى بينا فيه آنفا أن أثر النبوة الخيرة لا يقتصر على المؤمنين بالنبى ورسالته وحدهم، وإنما يتعداهم ليشمل ببركاته المجتمع كله.

لقـد أدت القيم الجديـدة التى جاء بها النبى إلى تغيير المفاهيم، ومن ثم إلى تغيير عميق وجـذرى فى العلاقات الاجتماعيـة بين الأفراد والفئات، وإلى إحداث التبدلات الاجتماعية.

لقد دفنت به الضغائن، لأن أسباب تولدها قد زالت، ومن ثم فقد زالت أسباب تفجرها فزالت الثوائر.

لقد نعم المجتمع كله بدرجة عالية من الاسـتقرار والطمأنينة بعد أن انخفضت إلى أدنى الدرجات مظاهر العنف والتوتر فيه نتيجة لتبدل المفاهيم والقيم التى كانت

(۱) الضغائن: الأحقاد المكتومة.

(۲) الثوائر: الأحقاد المتفجرة فى أعمال عدائية عنفية ومعارك.

(۳) نهج البلاغة، رقم الخطبة ۹۶.

(۸۲)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، العزّة (۱)، الجهل (۱)، الدفن (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۶۱ه

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۳

سائدة فيه بمفاهيم وقيم أخرى بثتها النبوة.

وقد أدت القيم الجديدة إلى إيجاد علاقات جديدة:

فألف الله بالنبى ... بالقيم التى بشر بها وأذاعها فى الناس، إخوانا فى الإيمان، وفرقت هذه القيم الإيمانية بين أقران اختلفت بهم الطريق حين هتف صوت النبوة فى المجتمع، فسلك بعضـهم طريق الإيمـان وبقى الآخر على طريقه القديمـة، وقيمه القديمـة، طريق الجاهلية وقيم الجاهلية.

كمـا أدت هـذه القيـم الجديـدة إلى تغيير فى المراتـب الاجتماعيـة، لأـن القيـم القديمـة الـتى كـانت تجعـل أسـاس الـترتيب فى البنية الاجتماعيـة بين الأشـخاص أو الفئات متمثلا فى المال، أو السـلالة والنسب، أو القوة الحربية ... هذه القيم قد زالت وحلت محلها قيمة جديدة غدت هى الأساس الذى يقوم عليه الترتيب الاجتماعى، وهى التقوى ۱، ومن ثم فقد أعز الله بالنبى ... بالقيم التى جاء بها الذلة التى كانت تفرضها القيم الجاهلية القديمة على الفقراء والمستضعفين، وأذل به العزة التى كانت تنشأ من قيم غير إيمانية.

من تاريخنا الإسلامى تحفل السيرة النبوية بمئات من الشواهد والنماذج.

فالأذلاء فى الجاهليـة كعمار بن ياسـر وبلال الحبشـى غدوا أعزاء فى المجتمع الجديد، لأن القيم الجاهلية التى كانت تفرض عليهم أن يكونوا أذلاء فى مرتبة اجتماعية متدنية قد زالت بالإسـلام. وجاء الإسـلام بقيم جديدة غيرت موقعهم فى المجتمع فجعلتهم من النخبة، والأعزاء فى الجاهليـة غـدوا أذلاء لأن القيم التى كانوا يتكئون عليها ويسـتمدون منها اعتبارهم الاجتماعى ويتبوؤن مركز النخبة فيه...

هذه القيم قد زالت بالإسلام وحلت محلها قيمة جديدة هى التقوى، وحيث أنهم لم يتحلوا بهذه القيمة الجديدة فقد غدوا من الأذلاء.

* ۱ - فى شرح مفهوم التقوى الإسلامى وبيان مكوناته وأبعاده راجع كتابنا (دراسات فى نهج البلاغة) فصل: المجتمع والطبقات الاجتماعية.

(۸۳)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۱)، عمار بن ياسر (۱)، العزّة (۱)، الجهل (۵)، الترتيب (۲)

صفحه ۶۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۴

وثمة نصوص فى نهج البلاغة تحدث فيها الإمام عن حالة العرب بالنسبة إلى تأثير النبوة فى أوضاعهم الحياتية والمعنوية.

ففى النص التالى صور أمير المؤمنين حالة المجتمع العربى الجاهلى عشية بعثة النبى محمد (ص)، فى جميع وجوه حياته التى كان عليها من النواحى الروحية والاجتماعية والأخلاقية. قال عليه السلام:

إن الله بعث محمدا (ص) نذيرا للعالمين، وأمينا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفى شر دار منيخون ۱ بين حجارة خشن وحيات صم ۲ تشربون الكدر، وتأكلون الجشب ۳، وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة ۵۴.

إنهم كانوا على شر دين.

كانت الأصنام فيهم منصوبة يتوجهون إليها بالعبادة والضراعة، كانوا، إذن، وثنيين، وكانت وثنيتهم، التى استعاروها من هنا وهناك، بدائية متخلفة خالية من الجمال الفنى والذوق إضافة إلى خلوها، بطبيعة الحال، من كل مضمون روحى سليم وكانوا فى شر دار.

كانت دارهم البادية القاحلة المجدبة التى تفرض عليهم شروط حياة صعبة قاسية جعلت من حياتهم سلسلة من الأخطار والمتاعب وألوان الحرمان.

وكانوا - بسبب ما هم عليه من إفلاس روحى لأنهم على شر دين، ومن تخلف فى حياتهم المادية لأنهم فى شر دار ... - بسبب هذا وذاك - كانوا على شر حال فى حياتهم الاجتماعية وعلاقاتهم الإنسانية، فهم يقطعون أرحامهم، وهم يسفكون دماءهم.

(۱) منيخون: مقيمون.

(۲) خشن: من الخشونة. والحيات الصم أخبث أنواع الحيات. كنى عن صعوبة مناخ البادية وقساوة العيش فيها.

(۳) الكدر: الماء الذى يخالطه الطين وغيره، والجشب من الطعام: الغليظ الخشن كناية عن بؤس حياتهم وفقرها، وانعدام وسائل الراحة فيها.

(۴) معصوبة: مشدودة، كناية عن استمرارهم على المعصية.

۵ - نهج البلاغة: رقم الخطبة ۲۶.

(۸۴)

مفاتيح البحث: مبعث النبى صلى الله عليه وآله (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، الطعام (۱)

صفحه ۶۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۵

وهم - بالإجمال - يكدحون باستمرار لتوفير حياة متخلفة، قاسية، فقيرة فى الشكل والمضمون فى ظل علاقات اجتماعية وإنسانية فاسدة.

* فى نص آخر يؤرخ الإمام للتغيير الذى أدخلته النبوة على حياة العرب، ويسجل ملامح عامة للحال التى انتقلوا منها وللحال التى صاروا إليها بعد الإسلام.

قال عليه السلام:

أما بعد فإن الله سبحانه بعث محمدا (ص) وليس أحد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعى نبوة ولا وحيا، فقاتل بمن أطاع من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم يحسر الحسير ويقف الكسير ۱ فيقيم عليه حتى يلحقه غايته، إلا هالكا لا خير فيه، حتى أراهم منجاتهم ۲ وبوأهم محلتهم ۳، فاستدارت رحاهم ۴ واستقامت قناتهم ۵.

كان العرب أميين لا يقرأون ومن ثم فقد كان الجهل سائدا فيهم، وكانوا بعيدى عهد بالنبوات ورسالات السماء ومن ثم فقد كانت حياتهم الروحية فقيرة هزيلة مشوهة. وقد جهد رسول الله فى إخراجهم من الظلمات ... كل الظلمات: ظلمات الروح والعقل والحياة، إلى كل النور، من التخلف إلى التقدم، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن العمى الروحى إلى نعمة الإيمان الكبرى.

وبذلك بلغهم ساحل النجاة فى الدنيا والآخرة.

وبذلك أعطاهم دورا عالميا - بما هم مسلمون - يحملون فيه الهدى والنور والكرامة إلى جميع الأمم بعد أن كانوا كمية مهملة لا قيمة لها ولا قدر ولا دور.

(۱) الحسير هو الذى أصابه الإعياء والتعب. والكسير المكسور الذى لا يقوى على السير، يريد أن النبى كان تحريضه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين يلاحظ حال من حدثت عنده شبهة أو خالط قلبه ريب فى الدين فلا يزال يرشده برفق وحب حتى يزيل من قلبه الريب ويجلو عن عقله الشبهة.

(۲) منجاتهم: ما به نجاتهم وهو الإسلام.

(۳) محلتهم: مركزهم فى المجتمع العالمى، وكونهم ذوى رسالة عالمية هى الإسلام.

(۴) استدارة الرحى كناية عن وفرة الأرزاق. واستقامة القناة كناية عن صلاح الحال واستقرار الحياة.

(۵) نهج البلاغة: رقم الخطبة ۱۰۴.

(۸۵)

مفاتيح البحث: القتل (۱)، الجهل (۲)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۶۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۶

وبذلك أعطاهم لين الحياة، وكرامة الحياة، واستقرار الحياة.

ولم تعد حياتهم قاسية صعبة، بل لقد استدارت رحاهم بالأرزاق.

ولم تعد حياتهم متوجسة متوحشة، بل لقد استقرت واطمأنت.

واستقامت قناتهم لم تعد مشرعة لأجل العدوان أو لأجل رد العدوان.

* سلام الله وتحياته على جميع الأنبياء والمرسلين.

(۸۶)

صفحه ۶۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٨٧

٢ - وعى التاريخ من المؤكد أن الإنسان العربى الجاهلى - قبيل الاسلام - كان يعوزه الوعى التاريخى بالمعنى الذى عرفته الشعوب المتحضرة ذات الثقافة المدونة، وذات المؤسسات السياسية والإدارية الراسخة العريقة. هذا فضلا عن أن يكون الوعى التاريخى بالمعنى الذى عرفه إنسان العصور الحديثة قد وجد لدى الإنسان العربى الجاهلى قبيل الإسلام.

وهذا الحكم ينطبق بوجه خاص على عرب الشمال، وإن لم يكن عرب الجنوب - كما سنرى - أفضل حالا منهم بكثير.

فقد كان العربى الجاهلى - قبيل الاسلام - يعيش حياة البداوة بما يلزمها من تنقل وارتحال طلبا للكلأ وللماء، ومن ثم لم يكن لدى العربى مؤسسات ثابتة، ونظم سياسية وإدارية.

وكانت الأمية غالبة على هذا المجتمع، ومن ثم فلم ينشئ ثقافة مدونة بأى نحو من الأنحاء إلا نقوشا نادرة لا تبلغ أن تكون ثقافة مدونة تسهم فى تكوين الشخصية الثقافية للإنسان - لا نستثنى من ذلك عرب الجنوب الذين كانوا قد فقدوا قبيل الإسلام - بانهيار نظام الرى عندهم - الكثير من سماتهم كشعب متحضر له ماض عريق، وغدوا أقرب إلى البداوة والأمية.

وكانت الحياة من البساطة والسذاجة بحيث أن أحداثها البارزة كانت نادرة جدا، ومحدودة المدى جغرافيا وبشريا، وهذه الأحداث هى التى شكلت مادة ما يسمى أيام العرب التى سنعرض للحديث عنها بعد قليل.

كما لم يكن لدى العربى الجاهلى شعور بالزمن المستمر كمفهوم حضارى، كان

(٨٧)

مفاتيح البحث: يوم عرفة (١)

صفحه ۶۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ٨٨

الزمن عنده مجرد تعاقب للظواهر الفلكية والفصول. ومن المعلوم أنه لم يكن لدى العربى الجاهلى تقويم.

ونتيجة لكل هذه العوامل لم تتكون لدى العربى أية خبرات تاريخية ماضية ذات شأن، ناشئة من وقوع الأحداث نفسها من ناحية والشعور بها من ناحية أخرى - لا أحداث مشتتة غير مترابطة - بل فى نطاق نظام للتعاقب الزمنى وللعلاقات الداخلية فيما بينها.

وبعبارة أخرى: لم يكن لدى العربى الجاهلى شعور باستمرار الأحداث وديمومتها، وتفاعلها الداخلى، وعلاقاتها بحاضره، وإمكانات تأثيرها فى المستقبل على النحو الذى يصح أن يسمى وعيا تاريخيا. لقد كان وعى الماضى على هذا النحو لدى العربى الجاهلى قبيل الإسلام معدوما.

نعم، لقد كان ثمة وميض من الشعور بالماضى لدى العربى الجاهلى.

كانت الذاكرة تحمل صورا غامضة، هلامية الشكل ومشوهة لهذا الماضى ناشئة من القصص التى كانت تسمى الأيام، ومن العناية بالأنساب. لقد كانت الأيام والأنساب كما البعد التاريخى للإنسان العربى.

إن هذا الوميض من الشعور بالماضى لا يرقى، بالتأكيد، إلى أن يكون وعيا تاريخيا بالمعنى الذى نفهمه الآن.

فقصص الأيام نادرا ما تملئها الأحداث الكبرى ذات الشأن السياسى والإنسانى وهو ما يعطى التاريخ حقيقته ومعناه. وغالب أحداثها يتكون من معارك صغيرة بين مجموعات قبلية، ويعطيها الخيال الشعرى والنصوص الشعرية المرافقة لها وهجا وحجما غير واقعيين.

كما أنها تفقد عنصر الترابط فيما بينها، ولا تأخذ فى جميع الأحوال بنظر الاعتبار عنصر السببية، ولا تقوم بينها علاقات داخلية.

وهى خالية من عنصر الزمن، وخلوها من عنصر الزمن ليس ناشئا من إهمال، بل ناشئ من عدم إدراك العربى الجاهلى لعامل الزمن التاريخى كما أشرنا آنفا.

(۸۸)

صفحه ۶۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۸۹

وكانت قصص الأيام فى حلقات السمر التى تعقد أمام الأخبية والخيام للتسلية والمتعة، وللمفاخرة فى بعض الحالات. ولم تكن تتداول كمادة علمية. والرأى الراجح أنها لم تدون على الإطلاق.

والأنساب وإن كانت تدل على شعور بالماضى من خلال وعى الانتماء إلى الآباء الذين تشتمل على ذكرهم شجرة النسب القبلية، إلا أن علمنا بأن شجرات الأنساب كانت تقتصر على مجرد ذكر الأسماء فقط دون أن تحتوى على أية مادة تاريخية، علمنا بهذا الوضع لشجرات الأنساب التى كانت تتداول عن طريق الروايات الشفوية يجعل قيمتها كمصدر لتكوين الوعى التاريخى معدومة.

ومن المؤكد أن شجرات الأنساب فى العصر الجاهلى لم تعرف أى شكل من أشكال التدوين ليتيح فرصة إضافة مادة تاريخية إليها. ولم تدون شجرات الأنساب فى كتب إلا فى عصر إسلامى متأخر نسبيا.

ويظهر لنا هذا الوميض من الشعور بالماضى لدى العربى الجاهلى فى الشعور الذى يصور مواقف أخلاقية للشاعر فى مجالات الحرب، والكرم، والوفاء، وما إلى ذلك، حيث تدفع الشاعر خشيته من (أحاديث الغد) التى تعكس مسلكية غير نبيلة إلى أن يجعل سلوكه منسجما مع قيم النبالة كما تقضى بها أخلاقيات المجتمع الجاهلى فيكون وفيا، وشجاعا حتى الموت، وكريما...

هذا الشعور يمكن أن يكون نواة للوعى التاريخى، ولكنه لا يرقى، بطبيعة الحال، إلى أن يكون وعيا تاريخيا بالمعنى الذى حددناه آنفا. إنه وعى ناشئ عن قيم أخلاقية بدوية الطابع، وليس عن وجود تاريخ يستوعبه الشعور والوجدان، وهو مقصور على حالات فردية لم تبلغ أن تكون وعيا عاما. وهو شعور بالخشية من تصرف شخصى أو موقف شخصى قد يدفع الآخرين إلى إدانته، وليس شعورا بإنجازات الآخرين وتفاعلا معها.

* كان هذا حال العربى الجاهلى

(۸۹)

مفاتيح البحث: الموت (۱)، الحرب (۱)، العصر (بعد الظهر) (۱)

صفحه ۶۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۰

ولكن الحال تغير بعد ظهور الإسلام تغيرا كاملا.

إن القرآن الكريم والسنة الشريفة قد كشفا للعربى تدريجا عن عمقه فى الزمان باعتباره مسلما. وغدا القرآن والسنة يغذيان على مهل وعى المسلم بعمقه التاريخى من خلال القصص التى تؤرخ للأمم الماضية، وأنبيائها، ومواقفها منهم باعتبارهم أنبياء، وحالات ازدهارها، وانحطاطها، وفنائها.

ومن خلال هذا الوعى أدرك المسلم أنه بإسلامه، وجهاده اليومى - بالسيف والكلمة - فى داخل الجماعة الإسلامية التى تبنى نفسها بعين الله وعلى يد رسول الله، وفى مواجهة المشركين ... أدرك بوضوح كامل أنه بعمله اليومى هذا يصنع تاريخا موصولا بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلمه من الكتاب والسنة. وهكذا وجد الوعى التاريخ لدى الإنسان المسلم.

* وللتاريخ وظيفة تتعدى شعورنا بالاستمرار والديمومة. وهذه الوظيفة تربوية أخلاقية.

لا يعنى هـذا أن التاريـخ يتحول إلى مادة وعظيـة فقط، فإن البحث والنقـد غرضان من أغراض التاريخ بلا شك، ولكن الوظيفة النهائية بعدهما هى، كما قلنا، تربوية أخلاقية.

وهذه الوظيفة تستمد معالمها وطبيعتها من طبيعة النهج الذى تسلكه الأمة فى بناء نفسها، ومن طبيعة الدور الذى تعد نفسها للقيام به فى محيطها الإقليمى أو على المسـتوى العالمى، ولذا نرى أن كل أمة ذات نهج فكرى مميز لشخصـيتها تجعل التاريخ مادة بانية لهذا النهج الذى ارتضته.

وهـذا لا يعنى - بطبيعـة الحال - أن يحرف التاريـخ ليكون أداة دعائية وسياسـية. إن الأمانة للحقيقة يجب أن تكون دائما مرعية، وإنما يعنى أن التاريخ ليس مادة ترف فكرى وتسـلية. إنه مادة شديدة الخطورة إذا تولى استعمالها فى الشأن العام رجال لا يقيمون للأخلاق وزنا ولا تحركهم روح رسالية، وأجهزة كذلك ... رجال وأجهزة يحركهم التعصب والغرور القومى والعنصـرى ... فى هذه الحالة قد يوجه التاريخ

(۹۰)

مفاتيح البحث: القرآن الكريم (۲)، الجماعة (۱)

صفحه ۶۹۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۱

ليكون مبررا نظريا وعاملا نفسيا لـدى الجماهير يخـدم الطغيان والاتجاهات العدوانيـة لدى السياسـيين ورجال الحرب ضد أمة أخرى، وفى هذه الحالة يعرض التاريخ للتزوير والتحريف.

والتاريخ حافل بأمثلة عن تسخير التاريخ لغايات غير أخلاقية وغير رسالية فى العصور القديمة وفى العصر الحديث.

وللتاريخ فى الإسلام - انطلاقا من هذا الفهم - وظيفة تتصل بطبيعة الإنسان المسلم وطبيعة المجتمع الإسلامى.

إن الإنسان المسلم إنسان أخلاقى يعتنق رسالة عالمية، والمجتمع الإسلامى مجتمع أخلاقى وذو رسالة عالمية.

وإذن فالتاريـخ ينبغى أن يخـدم الرساليـة والأخلاقيـة فى علاقـات المسـلم الداخليـة والخارجيـة، كما ينبغى أن يخـدم الرسالـة والروح الرسالية فى العالم.

وكلما حدث فى سـلوك المسلم أو سلوك الجماعة الإسلامية انحراف عن الأخلاقية أو انحراف عن الروح الرسالية فى ممارسة الحياة والتعامل مع الآخرين فإن التاريخ يسـتعمل، إلى جانب الوسائل التربوية الأخرى والتنظيمية لتصـحيح النظرة الخاطئة، وتقويم مسار الفرد والمجتمع.

والقرآن الكريم حافل بالشواهد على هذه الحقيقة نذكر منها شاهدا مميزا لأنه يتضـمن تعبيرا غدا مصطلحا إسلاميا فى الشأن التاريخى، هو مصـطلح أيام الله الـذى يعنى الأحـداث الكبرى فى تاريـخ كل أمة سواء أكانت نجاحات كبرى وانتصارات باهرة أو نكبات عظمى وانهيارات مأساوية.

وقد ورد هذا التعبير (أيام الله) فى القرآن الكريم مرة واحدة فقط، ذلك فى سـياق الآيات الكريمة التى تضمنت بيان تربية وتوجيه نبى الله موسـى بن عمران سـلام الله عليه لبنى إسـرائيل وهـدايتهم إلى الإيمان الصـحيح، ورفع مسـتوى إدراكهم من حالـة الجهالة والبدائية والمادية إلى المستوى الإيمانى - الحضارى. قال الله تعالى:

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور، وذكرهم بأيام الله. إن

(۹۱)

مفاتيح البحث: القرآن الكريم (۲)، موسى بن عمران (۱)، الكرم، الكرامة (۱)، الحرب (۱)، الجماعة (۱)، الشهادة (۱)، العصر (بعد الظهر) (۱)

صفحه ۷۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۲

فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ۱.

وورد ذكر هذا المصطلح فى نهج البلاغة فى موضعين:

أحدهما فى كلام للإمام عند تلاوته قوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ... ۲ قال فى وصفهم:

...وما برح لله.. عباد ناجاهم ۳ فى فكرهم، وكلمهم فى ذات عقولهم، فاستصبحوا: بنور يقظة فى الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه ... ۵.

وثانيهما فى كتاب له إلى عامله على مكة قثم بن العباس ۶، قال فيه:

أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله ۷.

* من هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس كان الإمام عليه السلام يتعامل فى توجيهه الفكرى، وفى وعظه، وفى تعليمه وتوجيهه السياسى مع التاريخ، وكان يوجه المسلمين أبى أن يعوا التاريخ على هذا الأساس، وأن يتعاملوا مع التاريخ من هذا المنطلق الذى يخدم الأخلاقية والرسالية.

ولعل الخطبة القاصعة ۸ أفضل مثال على طريقة تعامل الإمام على مع التاريخ بهدف التربية وتقويم سلوك المجتمع أخلاقيا، وتوعيته بمسؤوليته الرسالية، وسندرس فى

(۱) سورة إبراهيم (مكية - ۱۴) الآية: ۵.

(۲) سورة النورة (مدنية - ۲۴) الآية: ۳۶ و ۳۷.

(۳) ناجاهم: خاطبهم بالإلهام.

(۴) استصبح: أضاء مصباحه.

(۵) نهج البلاغة: رقم النص ۲۲۲.

(۶) قثم بن العباس بن عبد المطلب. كان من مساعدى الإمام على (ع) فى تجهيز رسول الله (ص) ودفنه، وهو آخر من خرج من القبر الشريف، ولاه أمير المؤمنين على مكة، فلم يزل واليا عليها إلى أن استشهد الإمام، واستشهد قثم بسمرقند، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية، وقبره فى سمرقند مشهور. وقد زرناه أثناء مشاركتنا فى المؤتمر الدينى.

(۷) نهج البلاغة: (باب الكتب) رقم النص ۶۷.

(۸) الخطبة القاصعة رقمها فى نهج البلاغة: ۱۹۲.

(۹۲)

مفاتيح البحث: مدينة مكة المكرمة (۲)، كتاب نهج البلاغة (۴)، قثم بن العباس (۱)، الحج (۱)، التجارة (۱)، البيع (۱)، الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۲)، الخليفة عثمان بن عفان (۱)، العباس بن عبد المطلب (۱)، سورة ابراهيم (۱)، الشهادة (۱)، القبر (۱)

صفحه ۷۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۳

فصل آت جوانب من هذه الخطبة.

ويمكن أن نكون فكرة مقاربة للحقيقة عن جهود الإمام الفكرية فى حقل التوعية بالتاريخ إذا لاحظنا أن الكثير مما ورد فى نهج البلاغة - وهو قليل من كثير من كلام الإمام وخطبه - إن لم يكن أكثر ما ورد فى كلامه فى النهج من المواد التالية (و.ع. ظ / ح. ذ. ر / ز. ج. ر / ع. ب. ر ...) كان الإمام قد خاطب به الناس فى حالات شتى وأزمان شتى، موجها تفكيرهم نحو التاريخ بهدف التربية وتقويم السلوك الفردى والاجتماعى فى شؤون الحياة عامة من روحية واجتماعية وسياسية. ولا يختص ما روى عنه فى هذا الشأن بالوعظ وحده كما ربما يتوهم البعض.

ومن أمثلة ما أشرنا إليه آنفا قوله عليه السلام فى مواضع من نهج البلاغة:

وعظتم بمن كان قبلكم ... فاتعظوا عباد الله بالصبر النوافع ...

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم، واحذروا ان تكونوا أمثالهم ...واتعظوا فيها بالذين قالوا (من أشد منا قوة) ۱.

إلى أمثال هذه العبارات التى ورد كثير منها فى خطبه وكتبه.

فقد كان الامام يقاتل بكل سلاح نزعه الشر والانحراف وتيار الفتنة التى بدأت تجتاح المجتمع الإسلامى. وكانت توعية المجتمع بالتاريخ أحد هذه الأسلحة.

(۱) سورة فصلت (مكية - ۴۱) الآية ۱۵: فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا: من أشد منا قوة...

(۹۳)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۲)، القتل (۱)، سورة فصلت (۱)

صفحه ۷۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۵

۳ - التاريخ يعيد نفسه هل يعيد التاريخ نفسه؟

من البديهى أن التاريخ لا يعود مرة أخرى إلى ساحة الحاضر أو المستقبل، إذا أردنا من هذه القضية عودة تفاصيله وجزئيات أحداثه، فالأحداث ليست أشياء مجردة تقع فى الفراغ دون أن تكون لها صلة بالبشر، وإنما الأحداث بما هى صنع البشر تحمل السمات الشخصية الخاصة لصانعيها: تحمل طابع مصالحهم الآنية، وأمزجتهم وعواطفهم، وأخلاقياتهم وطريقة فهمهم للحياة ... وقد تنعدم هذه السمات الشخصية المميزة مع أصحابها، ولن تعود على الإطلاق. وإذن، فالتاريخ بهذا المعنى لا يعود ولا يتكرر.

إن ما حدث فى الماضى قد حدث مرة واحدة، ولن يحدث مرة أخرى، لن يتكرر، على الإطلاق.

أما إذا أردنا من هذه القضية عودة نمط الحركة التاريخية ومظاهره العامة وآثارها النفسية والاجتماعية فى المجتمع فإن التاريخ يعود بالتأكيد حين تتوفر فى الحاضر ... فى نسيجه الاجتماعى وعلاقاته الإنسانية الأسباب الموضوعية التى أدت إلى نشوء نمط الحركة التاريخية فى الماضى.

إن الإنسان هو الإنسان فى كل زمان.

إنه يتحرك فى الزمان والمكان مدفوعا - فردا وجماعة ومجتمعا - بمصالحه وعلاقاته وعواطفه، والعقائد والشرائع والمثل والقيم

الأخلاقية والروحية إذا تأصلت فيه وتعمقت في وجدانه وكيفت نظرته إلى الكون والحياة والإنسان فإنها تكون قادرة على

(۹۵)

مفاتيح البحث: الجماعة (۱)

صفحه ۰۷۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۶

أن تدخل تغييرا عميقا على عواطفه ومصالحه وعلاقاته في المجتمع والعالم، ومن ثم فإنها تكون قادرة على تغيير تاريخه ونقله إلى مسار جديد، ما دامت لا تواجه عقبات تشل فاعليتها وتأثيرها.

أما إذا فشلت العقائد والشرائع والمثل والقيم الأخلاقية والروحية في إدخال التغيير المناسب لها على تكوين الإنسان النفسي وعلى تقديره لمصالحه، لأنها لم تتأصل في أعماقه ولم تغير نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، فإن تاريخه في هذه الحالة سيتكرر.

إن هذا التاريخ الجديد لن يحمل نفس السمات والخصائص الماضية في الغالب، ولكنه يحمل نفس الروح، ويخلف في المجتمع نفس الآثار التي كانت في الماضي تحمل أسماء جديدة وتقدم نفسها بمبررات جديدة لا تعدو أن تكون مجرد قشرة خادعة يستطيع المؤرخ الباحث أن يكتشف ما وراءها فيتجاوزها إلى العمق ليجد الواقع القديم تحت الأشكال الجديدة ۱.

* في أول خطبة خطبها أمير المؤمنين على بعد أن بويع بالخلافة في المدينة نرى أنه قد لاحظ عودة الأشكال القديمة للانقسامات القبلية والفئوية داخل المجتمع العربي الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي في عهد عثمان وبعد مقتله بكل ما كانت تحتويه هذه الأشكال من روح قبلية وعنصرية، وأخلاقيات جاهلية رجعية.

وقد كانت عودة هذه الأشكال القديمة حاملة مضمونها الرجعي نتيجة لضمور المثل العليا والقيم المؤثرة في حركة التاريخ الإسلامي، ونتيجة لضعف مؤسسة الخلافة في عهد عثمان، هذا الضعف الذي مكن القوى القديمة والقيم القديمة - التي لم تكن قد ماتت بعد، وإنما كانت تعاني من حالة خمود وضمور - مكنها من أن تستعيد فاعليتها، وتعود إلى التأثير في حركة التاريخ تحت شعارات مناسبة تنسجم مع الإسلام في

(۱) من الظواهر الهامة التي نقدر أنها تستحق من المفكرين والمؤرخين بحثا معمقا، ظاهرة الانقسامات الإقليمية في العالم العربي، فإننا نقدر أنها تعبير جديد عن القبلية، تحت أسماء جديدة وبمبررات تلائم المناخ الثقافي الحاضر والوعي السياسي السائد. ونقدر أن فشل فكرة الوحدة العربية لا- يرجع فقط إلى عمل الإستعمار التخريبي وإنما نشأ من وجود استعداد للتشرذم أعان الإستعمار على رسم سياساته وإنجاحها في هذا المجال ولولا ذلك لما وفق الإستعمار إلى بلوغ غايته.

(۹۶)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليهما السلام (۱)، القتل (۱)، الجهل (۱)

صفحه ۰۷۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۷

الشكل الخارجي.

لقد عادت إلى الظهور والفاعلية تلك القيم والمثل الجاهلية القديمة التي كانت تقود حركة التاريخ في المجتمع العربي وترسم ملامح هذا المجتمع وتوجه خطاه قبل بعثة الرسول الأكرم وانتصار الإسلام.

وقد رأى أمير المؤمنين على هذه القيم البائدة العائدة من خلال رصده للظواهر الجديدة التي تبدو في حركة الجماعات داخل المجتمع

الإسلامی، وحرکهٔ القیادات التی توجه هذه الجماعات سرا وعلانیهٔ.

وقـد رأی مع ذلک الأفاعیل التی سـتنجم عن هـذه الحرکـهٔ الرجعیهٔ للتاریخ فی الإسـلام، والمآسـی الکبری التی سـتنزل بالمسـلم فردا وجماعهٔ ومجتمعا ودولهٔ ومؤسسات نتیجهٔ لانبعاث هذه الروح الشریرهٔ من جدید.

قال علیه السلام:

ذمتی بما أقول رهینهٔ ۱ وأنا به زعیم ۲. إن من صـرحت له العبر عما بین یدیه من المثلات ۳ حجزته التقوی عن تقحم الشبهات ۴، ألا وإن بلیتکم قد عادت کهیئتها ۵ یوم بعث الله نبیه صلی الله علیه وسلم.

والذی بعثه بالحق لتبلبلن ۶ بلبلهٔ، ولتغربلن ۷ غربلهٔ، ولتساطن سوط القدر ۸ حتی یعود أسفلکم أعلاکم، وأعلاکم أسفلکم ... ۹.

(۱) رهینهٔ: من الرهن. جعل ذمته رهنا علی ما یقول.

(۲) زعیم: کفیل بصدق ما یقول.

(۳) العبر: ما أصاب الناس من مثلات عقوبات إذا دعاها الإنسان علی سبیل الاعتبار، فیتعظ بتجربهٔ الذین أصابتهم العقوبات من قبله.

(۴) الشبهات: الأفعال والمواقف الغامضهٔ التی لم یبت فی الشرع الرخصهٔ فی فعلها.

یرید أن العبرهٔ بالماضین تحجر الإنسان عن الوقوع فیما وقعوا فیه من أخطاء.

(۵) رجعت البلیهٔ کما کانت فی الماضی الجاهلی.

(۶) البلبلهٔ: الإختلاط، کنایهٔ عن الأزمات الاجتماعیهٔ والثورات.

(۷) الغربلهٔ: من الغربال: یرید أن التجارب الآتیهٔ ستمیز المواقف، وتکشف الأشخاص علی حقیقتهم.

(۸) السـوط: الخلط - سـوط القـدر: کمـا تمزج مـواد الطبـخ فی القـدر، وتختلـط وتغلی سـیکون المجتمـع نتیجـهٔ للثورات والأزمـات الاجتماعیهٔ.

(۹) نهج البلاغهٔ - رقم الخطبهٔ ۱۶.

(۹۷)

مفاتیـح البحث: الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السـلام (۱)، الرسول الأکرم محمـد بن عبد الله صـلی الله علیه وآله (۱)، الکرم، الکرامهٔ (۱)، الجهل (۱)، البعث، الإنبعاث (۱)، الجماعهٔ (۱)، کتاب نهج البلاغهٔ (۱)، الرهان (۱)

صفحه ۰۷۵

التاریخ وحرکهٔ التقدم البشری ونظرهٔ الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحهٔ ۹۸

یقول لهم: إن البلیهٔ (الفساد الاجتماعی، والانحطاط الأخلاقی والحضاری) التی کانت تسم الحیاهٔ العربیهٔ فی الجاهلیهٔ نتیجهٔ لسـیادهٔ قیم الجاهلیـهٔ ونظرهٔ الجاهلیهٔ إلی الکون والحیاهٔ والإنسان - هذه البلیهٔ قد عادت کما کانت عشـیهٔ بعثهٔ الرسول الأکرم (ص) لأن القیم التی ولدت هذه البلیهٔ فی الماضـی الجاهلی قد دبت فیها الحیاهٔ من جدید علی حساب القیم الجدیدهٔ التی جاء بها الإسـلام، هذه القیم التی تقلص نفوذها وتأثیرها، بسـبب عوامل متنوعـهٔ، علی الإنسان المسـلم، وأدی ذلک إلی حدوث ثغرات نفذت منها القیم القدیمهٔ فعادت من جدید.

ثم أنذر الإمام علی مجتمعه بأن هذه البلیهٔ التی عادت ستکون لها آثار مأساویهٔ علی المجتمع الإسلامی.

ستنجم عن هذه البلیهٔ الأزمات الاجتماعیهٔ والثورات التی ستلقی بالمجتمع فی غمار حروب أهلیهٔ مدمرهٔ، ولا بد أن تکون هذه الأزمات والحروب الأهلیهٔ أضرس، وأعم شرا، وأشد فتکا مما کان یحدث فی الجاهلیهٔ.

ستکون فی المجتمع نتیجهٔ لعودهٔ هذه البلیهٔ بلبلهٔ (اختلاط وتداخل) وشد وجذب ینتج عن الأزمات والثورات ویولدها.

وسيكون حال المجتمع - نتيجة لهذه البلية العائدة - حال القدر التى تغلى على النار وتختلط فيها المواد، ولا يستقر على حال، ولا ينعم بالطمأنينة، وإنما هو فى قلق دائم، واضطراب مستمر.

سيؤدى ذلك إلى الغربلة، وتمييز مواقف الرجال والجماعات، لأن المحن والأزمات تفرز الفئات الاجتماعية، وتحدد سماتها.

ولكن كل ما سيحدث لن يتضمن شيئا من الخير، بل سيعود على المجتمع بالشرور، وسيؤدى بالمجتمع إلى التمزق الذى يشل الفاعلية، ويعطل الطاقات الإيجابية، بل يهددها، ويعوق حركة التقدم.

ستكون جاهلية تتغشى بشعارات الإسلام، جاهلية بعثتها القيم الجاهلية التى عادت إلى الحياة، فكانت هى، بدل القيم الإسلامية الجديدة، الأسباب الموضوعية

(۹۸)

مفاتيح البحث: الجهل (۷)، البعث، الإنبعاث (۱)

صفحه ۰۷۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۹۹

لتحريك الإنسان المسلم فى الزمان والمكان.

هكذا يصور الإمام عودة التاريخ.

* وفى خطبة أخرى خطبها الإمام بذى قار ۱ وهو فى طريقه من المدينة إلى البصرة بعد أن خرج عليه الزبير بن العوام وطلحة بن خويلد وأم المؤمنين عائشة فاتحين بخروجهم أبواب الفتنة التى عصفت بالمسلمين، والحرب الأهلية التى مزقت وحدتهم ... هذه الفتنة التى ولدتها القيم الجاهلية التى تنبأ الإمام بها فى خطبته الأولى ... فى هذه الخطبة بين الإمام عليه السلام أن مسيره لمواجهة المظهر الأول للفتنة هو كمسيره مع رسول الله (ص) لمواجهة قوى الجاهلية، وأن الروح المحركة واحدة فى الحالين رغم اختلاف المظهر الخارجى الذى قد يوحى للساذجين بخلاف ذلك، ولكنه لا يخدع الخبير.

قال عليه السلام:

...أما والله إن كنت لفى ساقتها ۲ حتى تولت بحذافيرها ۳ ما عجزت ولا جبنت. وإن مسيرى هذا لمثلها، فلأنقبن ۴ الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. مالى ولقريش!! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ۵.

كان الإمام يتحدث عن شأن الجاهلية فى مواجهة الإسلام، وعن كفاحه مع رسول الله (ص) ضد الجاهلية. ثم بين أن مسيره هذا إلى البصرة لمثل ما كان يكافحه من مظاهر عناد الجاهلية فى حياة رسول الله (ص).

إن التاريخ قد عاد، ولكن تحت شعارات جديدة.

(۱) ذو قار: موضع قريب من البصرة. اشتهر فى التاريخ باعتباره الميدان الذى جرت فيه، أول ظهور الإسلام، فى سنة ۶۱۰ م معركة بين الفرس والعرب حيث هاجم ثلاثة آلاف عربى من قبيلة بكر بن وائل المنطقة الفراتية، وهزموا الفرس هزيمة حاسمة فى ذى قار.

(۲) الساقة: مؤخرة الجيش التى تسوقه. شبه الجاهلية بجيش مهزوم يطرده ويلاحقه.

(۳) ولت بحذافيرها: ذهبت وطردت بأسرها (الجاهلية).

(۴) النقب: الثقب.

(۵) نهج البلاغة: رقم الخطبة ۳۳.

(۹۹)

مفاتيح البحث: أمهات المؤمنين، ازواج النبى (ص) (۱)، حياة النبى (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۲)،

الزبير بن العوام (۱)، مدينة البصرة (۳)، الباطل، الإبطال (۱)، الجهل (۶)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۰۷۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰۰

قال ابن أبى الحديد فى شرح هذا النص:

وشبه عليه السلام أمر الجاهلية أما بعجاجة ثائرة، أو بكتيبة مقبلة للحرب، فقال:

إنى طردتها، فولت بين يدى، ولم أزل فى ساقتها أنا أطردها وهى تنطرد أمامى، حتى تولت بأسرها، ولم يبق منها شئ، ما عجزت عنها، ولا جبنت منها.

ثم قال: وإن مسيرى هذا لمثلها، فلأنقبن الباطل، كأنه قد جعل الباطل كشئ قد اشتمل على الحق واحتوى عليه، وصار الحق فى طيه، كالشئ الكامن المستتر فيه، فأقسم لينقبن ذلك الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه ۱.

وهكذا يصور الإمام عودة التاريخ حين تنشط الأسباب القديمة التى أنتجت الأحداث والمواقف القديمة، فتؤدى إلى تكرار المواقف والاتجاهات ولكن تحت شعارات جديدة تتناسب مع الثقافة السائدة فى المجتمع.

وثمة نصوص أخرى، غير ما ذكرنا، منثورة فى نهج البلاغة، تتضمن الدلالة على هذه الحقيقة.

(۱) ابن أبى الحديد - شرح نهج البلاغة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - الطبعة الأولى: ۱۳۷۸ هجرى = ۱۹۵۹ م / ج ۲. ص ۱۸۵ - ۱۸۶.

(۱۰۰)

مفاتيح البحث: إبن أبى الحديد المعتزلى (۲)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الباطل، الإبطال (۳)، الجهل (۱)، كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (۱)

صفحه ۰۷۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰۱

۴ - مصارع القرون عوامل انحطاط الأمم مصارع القرون تعبير استعمله الإمام فى إحدى خطبه فقال واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم ۱. ويريد به الأمم الماضية أو الأجيال الماضية، فالقرن فى اللغة جماعة الناس فى عصر واحد ۲. فالإمام فى هذا التعبير يوجه الأفكار نحو التأمل فى مصائر الأمم والشعوب، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ ويصيبها الانحطاط والتخلف؟.

ويتساءل الإمام فى خطبة أخرى - ربما تكون آخر خطبة، أو فى أواخر كلامه فى حشد عام ۳ - عن مصير الدول والشعوب القديمة، فيقول مخاطبا أصحابه:

...وإن لكم فى القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سنن المرسلين ۴، وأحيوا

(۱) نهج البلاغة: رقم الخطبة ۱۶۱.

(۲) وردت هذه الكلمة كثيرا فى الكتاب الكريم فى سور مكية ومدنية، والمراد بها، على الظاهر، هذا المعنى. وورد له فى كلام بعض أهل اللغة تفسير زمانى، فقيل: القرن مدة أغلب أعمار الناس، وهو سبعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: ثلاثون سنة. وقيل: القرن أهل عصر فيه نبى أو فائق فى العلم، قل زمانه أو كثر - وهذا التفسير الأخير يلحظ معنى حضاريا للكلمة.

(۳) قال الشريف فى نهج البلاغة: روى عن نوف البكالى، قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين على (ع) بالكوفة، وهو قائم على

حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومى، وعليه مدرعة من صوف، وحمائل سيفه من ليف، وفى رجليه نعلان من ليف، وكأن جبينه ثفنة بعير، فقال عليه السلام ... قال: وعقد للحسين عليه السلام فى عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه الله فى عشرة آلاف، ولأبى أيوب الأنصارى فى عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان.

(۴) ورد ذكر هؤلاء فى الكتاب الكريم مرتين: فى سورة الفرقان (مكية – ۲۵) الآية ۳۸ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وفى سورة ق (مكية – ۵۰) الآية ۱۲ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. والرس فى اللغة: البئر المطوية بالحجارة، والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود – أو لقوم بعد ثمود – أرسل الله إليهم رسولا فكذبوه فأهلكهم الله. وقيل أن الرس اسم نهر كان هؤلاء على شاطئه.

(۱۰۱)

مفاتيح البحث: القتل (۱)، الإمام الحسين بن على سيد الشهداء (عليهما السلام) (۱)، الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، أبو أيوب الأنصارى (۱)، مدينة الكوفة (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، ابن ملجم المرادى لعنه الله (۱)، جعدة بن هبيرة (۱)، سورة الفرقان (۱)، نوف البكالى (۱)، قيس بن سعد (۱)، سورة ق (۱)، الكذب، التكذيب (۱)، الكرم، الكرامة (۲)

صفحه ۰۷۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۰۲

سنن الجبارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن؟ ۱.

* لقد كان الوضع الداخلى لمجتمع الإمام أثناء حكمه العاصف يقتضيه أن يستعين بالتاريخ ليواجه ما كان يتردى فيه هذا المجتمع – فى العراق بوجه خاص – من انقسامات قبلية، ومواقف عنصرية، وتسلط لرؤساء المجموعات القبلية على قبائلهم، وافتتان كثير من النابهين فى المجتمع والقياديين فى المجموعات القبلية بالسخاء الذى كانوا يتسامعون به عن معاوية بالنسبة إلى أنصاره السياسيين... وكان يرى ببصيرته النافذة أن هذه الطريق تؤدى بالمجتمع إلى الكارثة: ستنهكه النزاعات الداخلية، وتخلخل بنيانه وتذهب بتماسكه، وتدفع بقياداته إلى خيانة مجتمعها والارتماء فى أحضان الحكم الأموى الاستبدادى فى سوريا، وتفقد العراق دوره القيادى فى دولة الخلافة، فتجعله تابعا صغيرا للشام.

وكان الإمام على يواجه هذا الخطر بشتى الأساليب، وعلى مختلف المستويات.

ومن الأساليب التى استعملها على المستوى الشعبى أسلوب التنظير بالتاريخ لحال مجتمعه، عاملا على أن يكون لدى الناس العاديين وعيا تاريخيا، ورؤية للحاضر واقعية تدرك ما فيه من خطورة وإحساسا بمخاطر الممارسات التى تسود المجتمع ... كل ذلك لأجل أن يبعث فى نفوسهم وعقولهم الحذر والتبصر حين تعرض عليهم خيارات سببت للأمم الماضية نكبات أضعفتها أو حطمتها.

ومن الأمور الهامة التى يجب التنبيه عليها أن الإمام فى تصويره لانحطاط الأمم ومصارع القرون لا يرد ذلك إلى أسباب غيبية، وإنما يعرض أسبابا موضوعية لهذا الانحطاط كما سنرى.

(۱) نهج البلاغة: رقم الخطبة ۱۸۲.

(۱۰۲)

مفاتيح البحث: دولة العراق (۲)، البعث، الإنبعاث (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۰۸۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٠٣

وأفضل الأمثلة التى يحتويها نهج البلاغة فى موضوعنا هو الخطبة المسماة القاصعة ١ وهو يعرض فيها الآفات التى تعرض مجتمع العراق للخطر، ويذكر النظائر التاريخية لذلك عارضا أسباب الانحطاط.

* عالج الإمام فى هذه الخطبة آفة شديدة الخطورة كانت تتعاظم وتستفحل فى مجتمع العراق فى ذلك الحين. تلك هى آفة الصراع الداخلى الذى كان يمزق وحدة المجتمع العراقى ويشل فاعليته وينعكس بآثاره السيئة وتفاعلاته المشؤومة على سائر دولة الخلافة.

وقد كان هذا الصراع يبدو للمراقب بوجوه متنوعة:

١ - الصراع القبلى:

فقد نشطت الروح القبلية والقيم القبلية، وعادت إلى الظهور فارضة منطقها فى رسم خريطة العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع، وكان ظهور الروح القبلية نتيجة لجملة من الأخطاء التى ارتكبت فى عهد إدارة الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

وكانت أخطاء فى السياسة، وفى الإدارة، وفى التنظيم الاقتصادى، وفى التوجيه الثقافى العام.

ويبدو أن هذه الروح القبلية قد سببت تخريبا واسع النطاق داخل المجتمع العراقى، ونرجح أن معاوية بن أبى سفيان كان يستغلها للإمعان فى تصديع وحدة مجتمع العراق.

ويبدا أن هذه الروح القبلية التى كان يذكيها أصحاب المصالح الخاصة

(١) قال ابن أبى الحديد فى شرح هذه الكلمة:

يجوز أن تسمى هذه الخطبة القاصعة من قولهم: قصعت الناقة بجرتها، وهو أن تردها إلى جوفها أو تخرجها من جوفها لتملأ فاها، فلما كانت الزواجر والمواعظ فى هذه الخطبة مرددة من أولها إلى آخرها شبهها بالناقة التى تقصع الجرة. ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية، من قولهم: قصعت القملة إذا هشمتها وقتلتها. ويجوز أن تسمى القاصعة لأن المستمع لها المعتبر بها يذهب كبره ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أى أذهبه، وسكنه.

شرح نهج البلاغة - ج ١٣ / ص ١٢٨.

(١٠٣)

مفاتيح البحث: الخليفة عثمان بن عفان (١)، معاوية بن أبى سفيان لعنهما الله (١)، دولة العراق (٥)، كتاب نهج البلاغة (١)، الوسعة (١)، إبن أبى الحديد المعتزلى (١)، كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (١)

صفحه ۸۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٠٤

قد أفلحت إلى حد بعيد فى تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشك والضغينة بين فئاته السياسية، وداخل كل فئة أيضا. يصور لنا ذلك نص فى إحدى خطب الإمام يحذر ويؤنب فيه مجتمعه، قال:

قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم ١ ونبت المرعى على دفنكم ٢. وتصافيتم على حب الآمال. وتعاديتم فى كسب الأموال. لقد استهام بكم الخبث ٣، وتاه بكم الغرور ۴، والله المستعان على نفسى وأنفسكم ۵.

وقد روى ابن أبى الحديد فى شرحه على نهج البلاغة ما يصور التخريب والتمزيق اللذين كانت تحدثهما هذه الروح القبلية، قال:

وقيل أن أصل هذه العصبية وهذه الخطبة أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا فى آخر خلافة أمير المؤمنين، وكانوا قبائل فى الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادى باسم قبيلته: يا للنخع! مثلا، أو يا لكندة نداء عاليا يقصد به الفتنة وإثارة الشر، فيتألب عليه فتيان القبيلة التى مر عليها، فينادون: يا لتميم! ويا لربيعة! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضى إلى قبيلته

فیستصرخها، فتسل السیوف وتثور الفتن، ولا یکون لها أصل فی الحقیقة إلا تعرض الفتیان بعضهم ببعض ۶.

وما لا یری ابن أبی الحدید له أصلا نری له أصلا فی دسائس معاویة أو عملائه الذین نقدر أنهم یشجعون أمثال هذه الممارسات القبلیة، ویمدونها بمزید من أسباب

(۱) الغل: الحقد، اتفقتم علی تمکین الحقد فی نفوسکم.

(۲) الدفن: جمع دفنة، ما یتجمد ویتلبد من الضابط وردت الماشیة، ینبت علیه العشب ونبتت المرعی علیه: استر بظواهر النفاق الاجتماعی فیبدو ظاهره سلیما أخضر وواقعه بشع منفر. شهروا أحقادهم التی یسترونها بالنفاق فیما بینهم بهذه القذارة التی یسترها العشب فتبدو جملة تخدع بظاهرها وهی فی الواقع قذرة نجسة.

(۳) استهام بکم: تعلق بکم الشیطان فأغواکم.

(۴) الغرور: ما یسبب الإنخداع.

(۵) نهج البلاغة - رقم الخطبة - ۱۳۳.

(۶) ابن أبی الحدید: شرح نهج البلاغة ج ۱۳ ص ۱۶۷ - ۱۶۸.

(۱۰۴)

مفاتیح البحث: إبن أبی الحدید المعتزلی (۳)، مدینة الکوفة (۲)، کتاب نهج البلاغة (۲)، الکسب (۱)، کتاب شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید (۱)، الدفن (۱)

صفحه ۸۲

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۰۵

الإثارة والهیاج لیزیدوا مجتمع العراق إنهاکا وتمزقا. وکذلک نری لها أصلا فی سیاسات رؤساء القبائل الذین کان نهج علی السیاسی یهدد سلطانهم ونفوذهم، فکانوا یشجعون العامة والبسطاء علی أمثال هذه الممارسات لیثبتوا سلطانهم علی قبائلهم.

۲ - الصراع العنصری:

لقد کان مجتمع العراق، کغیره من بلاد الإسلام فی ذلک الحین، یضم مجموعات کبری من المسلمین غیر العرب الذین أدی التوسع فی الفتوح خارج شبه الجزیرة العربیة إلی احتلال بلادهم فی إیران ومستعمرات الإمبراطوریة البیزنطیة (مصر وسوریا، وغیرهما)، ومن ثم أدی إلی دخول کثیر منهم فی الإسلام.

وقد کان هؤلاء - من الناحیة النظریة - یتمتعون بحقوق مساویة لحقوق المسلمین العرب کما یتحملون واجبات مساویة. لقد ضمن لهم الإسلام مرکزا حقوقیا مساویا تماما للمسلمین العرب، ولکنهم کانوا من الناحیة الواقعیة یعانون من التمییز العنصری بسبب انطلاق الروح القبلیة والعصبیة العربیة.

وقد ألغی الإمام علی فور تسلمه السلطة جمیع مظاهر التمییز العنصری والعصبیة العنصریة التی کان یعانی منها، بشکل أو بآخر، المسلمون غیر العرب.

وقد أثار ذلک ردود فعل سلبیة عند زعماء القبائل، فاحتجوا علی التسویة فی العطاء بینهم وبین الموالی (المسلمین غیر العرب)، واندفعوا ینصحون الإمام علیا قائلین:

یا أمیر المؤمنین، أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقریش علی الموالی والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس ۱.

وکان هؤلاء ینظرون فی نصیحتهم هذه وینطلقون فی نظریتهم السیاسیة هذه من التجربة التی کان یقوم بها معاویة بن أبی سفیان.

(۱) ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة.

(۱۰۵)

مفاتيح البحث: كتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفى (۱)، معاوية بن أبى سفيان لعنهما الله (۱)، دولة ايران (۱)، دولة العراق (۲)، جزيرة العرب (۱)، كتاب الأشراف للشيخ المفيد (۱)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (۱)

صفحه ۰۸۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰۶

ولكن الإمام عليا كان ينطلق فى ممارسته السياسية من قاعدة أخرى، فأجابهم قائلا:

أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟!! والله لا أطور ۱ به ما سمر سمير ۲، وما أم نجم فى السماء نجما ۳.

* وتشتمل الخطبة القاصعة على عدة شواهد تدل على أن ما كان يثير فى نفس الإمام قلقا عميقا ليس الصراع القبلى المستفحل وحده، بل الصراع العنصرى أيضا.

هذا الصراع بوجهيه - القبلى والعنصرى - كان، بالإضافة إلى أنه آفة فى ذاته، يؤدى إلى توليد آفات أخرى:

۱ - يعمق ويرسخ الواقع الاجتماعى القبلى والتكوين الاجتماعى القبلى للمجتمع فى الثقافة العامة، والبنية النفسية للفرد، وبذلك يحول دون تطور التركيب الاجتماعى من طور القبلية التى تقسم المجتمع إلى وحدات تقوم على علاقة الدم إلى طور التوحد على أساس العقيدة والشريعة والمؤسسات والمصالح المشتركة، وهو يؤدى بالتالى إلى أن يكون معوقا حضاريا أيضا يجمد المجتمع فى حالة التخلف على صعيد المؤسسات والإنجازات التنظيمية.

۲ - يزيد ويعزز سلطة رؤساء القبائل على قواعدهم القبلية، فيؤثر ذلك على فاعلية أجهزة السلطة المركزية ويضعفها.

۳ - يؤثر على تلاحم المجتمع - وهو فى حالة حرب مع القوى الخارجة على الشرعية فى الشام، ومع الخوارج.

(۱) أطور به: من طار يطور، بمعنى: حام حول الشئ، وقاربه، يعنى: لا أقارب الجور فيمن وليت عليه.

(۲) ما سمر سمير: يعنى مدى الدهر.

(۳) نهج البلاغة - رقم النص ۱۲۶. ما أم نجم فى السماء.. يعنى مدى الدهر. فى هذا الموضوع راجع كتابنا (دراسات فى نهج البلاغة) الطبعة الثانية، فصل (المجتمعات والطبقات الاجتماعية) وكتابنا (ثورة الحسين)، الطبعة الخامسة - ص ۱۰۱ - ۱۷۲.

(۱۰۶)

مفاتيح البحث: الشام (۱)، الخوارج (۱)، الحرب (۱)، الشراكة، المشاركة (۱)، الثورة الحسينية (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۰۸۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰۷

۴ - يعزز إمكانات تسلل معاوية بن أبى سفيان إلى داخل التكوينات السياسية فى مجتمع العراق، وهى القبائل.

* وننتقل الآن إلى عرض الشواهد من الخطبة القاصعة ۱.

بين الإمام أولا أن الكبرياء من صفات الله تعالى. ومن ثم فليس للناس أن يتكبر بعضهم على بعض.

ثم عرض، ثانيا، لكبرياء إبليس، وتعصبه ضد آدم مفتخرا بأصله، وذكر بأن كبرياء إبليس كانت كارثة عليه إذ قضت على منزلته العالية.

ثم قرن الإمام بين كبرياء إبليس وكبرياء البشر على بعضهم، واعتبر المتكبرين أتباعا لإبليس فى هذا الخلق الذميم:

صـدقه به أبناء الحمية ۲، وإخوان العصبيـة، وفرسان الكبر والجاهليـة، حتى إذا انقادت له الجامحـة منكم ۳، واستحكمت الطماعية منه فيكم - فنجمت ۴ الحال من السـر الخفى إلى الأمر الجلى - استفحل سلطانه عليكـم ۵. فأصبحتم أعظم فى دينكم حرجا، وأوروى فى دنياكم قدحا ۷ من الذين أصبحتم لهم مناصبين وعليهم متألبين.

وهكذا بين لهم الإمام أن الشـر والفساد الناشئين عن العصبية، والصراع الناتج منها لا يقتصر تأثيرها على الجانب الدينى والإيمانى فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى التأثير

(۱) نهج البلاغة - رقم الخطبة: ۱۹۲.

(۲) الحمية: الأنفة والغضب.

(۳) الجامحة: من جموح الفرس - أراد أن الفئة التى لم تطع إبليس وجمحت عنه عادت فأطاعته واتبعت سبيله فى الكبرياء. أو أن الفئة التى جمحت عن الشرع انقادت إلى إبليس.

(۴) نجم: ظهر. أى أن العصبية بعدما كانت خفية فى النفوس ظهرت فى ممارسات علنية.

(۵) استفحل: قوى واشتد وصار فحلا.

(۶) الحرج: لغـة فى الحرج - بفتـح الراء - وهو الإـثم. يريـد: إنكم بطـاعتكم لإبليس أصـبحتم أعظم إثما فى دينكم. وروايـة النسـخة المتداولـة من النهـج (فأصـبح)، ولاـ يسـتقيم المعنى عليها، وروايـة ابن أبى الحديـد فى شـرحه (فأصـبحتم) وقـد اعتمـدناها لأنها أوفق بالمعنى.

(۷) أورى: أشد قدحا وتوليدا للنار. كناية عن تخريب دنياهم بالفتن والقلاقل.

(۱۰۷)

مفاتيح البحث: معاوية بن أبى سـفيان لعنهما الله (۱)، دولة العراق (۱)، الإخفاء (۱)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الغضب (۱)

صفحه ۰۸۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰۸

على الوضع الحياتى الـدنيوى، لهذه العصبية (أورى فى دنياكم قدحا) من هؤلاء الذين تخافون منهم على امتيازاتكم المادية فتتعصـبون ضدهم.

ثم أثار الإمام فى أذهانهم ذكرى تاريخية يعرفونها من القرآن، هى قصة ابنى آدم:

ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمـة بنفسه من عـداوة الحسـد، وقدحت الحمية فى قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان فى أنفه من ريح الكبر الذى أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.

ثم يعود الإمـام إلى تـأنيب سامعيه على ما هم عليه من روح قبليـة، وتعصب عنصـرى ذميم، مبينا لهم أن هـذه الآفـة الخطيرة الوبيلـة قد ابتليت بها الأمم الماضية وذاقت مرارتها:

ألاـ وقـد أمعنتم فى البغى ۱، وأفسـدتم فى الأرض، مصارحـة لله بالمناصبـة ۲، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربـة (يقصـد بالمؤمنين أولئك الـذين توجه ضـدهم العصبيـة) فالله الله فى كبر الحميـة، وفخر الجاهليـة، فإنه ملاقـح الشـنآن ۳ ومنافـخ الشـيطان، التى خـدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية ۴. أمرا تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبرا تضايقت الصدور به.

ثم يوجه الأنظار بصورة مباشرة إلى القيادات التى تغذى هذه الآفة، وتؤجج نارها وهم زعماء القبائل:

ألا فالحـذر الحـذر من طاعـة ساداتكم، الذين تكبروا عن حسـبهم وترفعوا فوق نسـبهم ... فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان

الفتنة، وسيوف اعتزاء ۵ الجاهلية. فاتقوا الله

(۱) أمعنتم فى البغى: بالغتم فيه، من أمعن فى الأرض، أى ذهب فيها بعيدا.

(۲) مصارحة لله..: أى مكاشفة يعنى الإعلان بالمعاصى، وعدم التستر فى شأن العصبية والتكبر الجاهلى.

(۳) ملاقح جمع ملقح، وهو المصدر من لقحت: والشنآن: البغض يريد أن الكبر والفخر الجاهلى مكان البغضاء والحقد ومثارهما.

(۴) منافخ الشيطان: جمع منفخ، مصدر من نفخ: يعنى أن الكبر والفخر هما المكان الذى ينفخ فيه الشيطان من نفس الإنسان فيدفعها إلى الشر والجريمة.

(۵) اعتزاء الجاهلية: الاعتزاء هو الانتساب، أى أنهم يفتخرون بأنسابهم وآبائهم، كقولهم: يا لفلان، أو: يا لآل فلان.

مفاتيح البحث: يوم القيامة (۱)، القرآن الكريم (۱)، القتل (۱)، الجهل (۳)

صفحه ۰۸۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۰۹

ولا تكونوا لنعمه عليكم أضدادا، ولا لفضله عندكم حسادا، ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم ۱، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم فى حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق ... ۲.

ثم يعود الإمام إلى التنظير بالتاريخ، مذكرا بالنهايات الفاجعة للأمم والشعوب التى فتكت بها آفة التعصب والتناحر، مقابلا ذلك بالنهج النبوى الإنسانى البعيد عن الكبر:

فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته واتعظوا بمثاوى خدودهم ومصارع جنوبهم... فلو رخص الله فى الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه ... ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون - عليهما السلام - على فرعون وعليهما مدارع الصوف ۵، وبأيديهما العصى، فشرطا له - إن أسلم - بقاء ملكه، ودوام عزه، فقال: (ألا تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العز وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذل).

ويستمر الإمام فى التنظير التاريخى، داعيا مستمعيه إلى فحص المواقف التاريخية التى مرت على الأمم السابقة، وتجنب الاختيارات والتجارب التى أدت إلى الانحطاط والانهيار، واختيار المسلكية التى ثبت بالتجربة صلاحها:

...واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال. فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم.

فإذا تفكرتم فى تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء له عنهم ۶. ومدت العافية به عليهم،

(۱) المراد من هذه الجملة وما بعدها أن هؤلاء الزعماء يفسدون بنزعاتهم الشريرة حياتكم وإيمانكم وطهارة نفوسكم.

(۲) الأحلاس: جمع حلس. وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازما له، فقيل لكل ملازم أمر: هو حلس ذلك الأمر. فهؤلاء المغدون من رؤساء القبائل ملازمون للعقوق والتنكر لنعم الله ولأحكام الشرع وقواعد الأخلاق.

(۳) المثلات والوقائع: يقصد بهما عقوبات الله التى استحقوها نتيجة لانحرافاتهم.

(۴) المثوى: المنزل. مواضع حدودهم بعد الموت على التراب، ومصارع جنوبهم: مواقعها بعد الموت على التراب.

(۵) مدارع الصوف: جمع مدرعة - بكسر الميم - وهى كالكساء.

(۶) زاحت: بعدت. وله: لأجله، يعنى: الزموا كل أمر خافتهم الأعداء بسببه.

مفاتيح البحث: موسى بن عمران (۱)، الإختيار، الخيار (۱)، الأحكام الشرعية (۱)، الموت (۲)

صفحه ۰۸۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۱۰

وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم، من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتحاض عليها ۱، والتواصى بها.

واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم ۲، وأوهن منتهم ۳ من تضاغن القلوب ۴، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس وتخاذل الأيدى ... ۵.

ويستمر الإمام فى تنظيره التاريخى بتقديم أمثلة محددة من حياة الإسرائيليين والعرب، بعدما كان فى تنظيره السابق يذكر الأمم بشكل عام، دون أن يخص بالذكر أمة بعينها:

...وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم: كيف كانوا فى حال التمحيص ۶ والبلاء. ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء، وأجهد العباد بلاء ۷ وأضيق أهل الدنيا حالا. اتخذتهم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم المرار ۸، فلم تبرح الحال بهم فى ذل الهلكة وقهر الغلبة...

حتى إذا رأى الله سبحانه جد الصبر منهم على الأذى فى محبته ۹، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم فى مضايق البلاء فرجا، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكا حكاما، وأئمة أعلاما ... فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة ۱۰، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدى مترادفة ۱۱، والسيوف متناحرة، والبصائر نافذة ۱۲، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أربابا فى أقطار الأرضين،

(۱) التحاض، صيغة تفاعل من الحض بمعنى الحث والترغيب، يعنى أن يحث بعضكم بعضا على الاتحاد والتعاون.

(۲) الفقرة: واحدة فقر الظهر. ويقال لمن اصابته مصيبة شديدة: قد كسرت فقرته. يعنى اجتنبوا كل ما أضعف الأمم السابقة وسبب لها الانحطاط.

(۳) المنة: القوة، ومعنى الجملة كسابقتها.

(۴) تضاغن القلوب وتشاحن الصدور بمعنى واحد: تبادل البغضاء بين فئات المجتمع.

(۵) تخاذل الأيدى: ألا ينصر الناس بعضهم بعضا ولا يتعاونون فى حالات الخطر.

(۶) التمحيص: التطهير والتصفية.

(۷) أجهد العباد: أكثرهم تعبا.

(۸) المرار: شجر مر فى الأصل، كناية عما أصابهم من العذاب والهوان على أيدى الفراعنة.

(۹) رأى الله منهم جد الصبر، أى أشد الصبر.

(۱۰) الأملاء: الجماعات، الواحد: ملأ، يريد اتحاد الفئات الاجتماعية وتعاونها.

(۱۱) مترادفة: متعاونة.

(۱۲) البصائر نافذة: الإرادة عازمة جازمة غير مترددة للعلم بحقيقة الموقف أو الشئ.

(۱۱۰)

مفاتيح البحث: الكرم، الكرامة (۱)، الخوف (۱)، الهلاك (۱)، الصبر (۳)، العذاب، العذب (۲)

صفحه ۰۸۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۱۱

وملوكا على رقاب العالمين.

فانظروا إلى ما صاروا إليه فى آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة وتشتتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته. وسلبهم غضارة نعمته ۱، وبقى قصص أخبارهم فيكم عبرا للمعتبرين منكم.

فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبنى إسحاق وبنى إسرائيل عليهم السلام، فما أشد اعتدال الأحوال ۲ وأقرب اشتباه الأمثال.

تأملوا أمرهم فى حال تشتتهم وتفرقهم ليالى كانت الأكاسرة والقياصرة أربابا لهم. يختارونهم عن ريف الآفاق ۳، وبحر العراق ۴ وخضرة الدنيا، إلى منابت الشيح ومهافى الريح ۵، ونكد المعاش ۶ فتركوهم عالة مساكين، إخوان دبر ووبر ۷، أذل الأمم دارا، وأجدبهم قرارا، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها، فالأحوال مضطربة، والأيدى مختلفة، والكثرة متفرقة، فى بلاء أزل ۸ وأطباق جهل ۹، من بنات موؤودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة.

فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاـ فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها. والتفت الملة بهم فى عوائد بركتها، فأصبحوا فى نعمتها غرقين ۱۰ وفى خضرة عيشها فكهين ۱۱ قد تربعت الأمور بهم ۱۲ فى ظل سلطان قاهر وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب ۱۳

(۱) الغضارة: النعمة اللينة الطيبة.

(۲) ما أشد اعتدال الأحوال: ما أشبه الأشياء بعضها ببعض.

(۳) الريف: الأرض ذات الخصب والزرع، والجمع أرياف.

(۴) بحر العراق: دجلة والفرات. قال ابن أبى الحديد: ۱۳ / ۱۷۳ أما الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق، وأما القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق أى عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجع.

(۵) يقصد البادية الخالية من الزرع والمياه والعمران.

(۶) نكد المعاش: قلته، وصعوبة الحصول عليه، وخشونته.

(۷) عالة: فقراء (دبر ووبر) دبر البعير عقرة القتب. والوبر للبعير بمنزلة الصوف للضأن. يريد أنهم كانوا عالة فقراء يمثل البعير ثروتهم، ومرضه شغلهم الشاغل.

(۸) الأزل: الضيق والشدة، يريد بلاء شديدا شغلهم عن كل شئ.

(۹) أطباق، جمع طبق. أى جهل متراكم بعضه فوق بعض.

(۱۰) غرقين: من الغرق، مبالغة فى وصف ما هم فيه من النعمة.

(۱۱) فكهين: بمعنى ناعمين.

(۱۲) تربعت الأمور بهم، أى أقامت، من: ربع بالمكان أى أقام فيه، يعنى استقرار أحوالهم السياسية والمعيشية.

(۱۳) آوتهم الحال: ضمتهم وأنزلتهم، والكنف: الجانب.

(۱۱۱)

مفاتيح البحث: دولة العراق (۳)، اللبس (۱)، الجهل (۲)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، نهر الفرات (۱)، الشام (۱)، الإقامة (۱)

صفحه ۰۸۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۱۲

وتعطفت الأمور عليهم فى ذرى ملك ثابت ۱ فهم حكام على العالمين، وملوك فى أطراف الأرضين. يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم، لا تغمز لهم قناة، ولا تقرع لهم صفاة ۲...

وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه ۳، فلا تستبطئوا وعيده جهلا بأخذه وتهاونا ببطشه، ويأسا من بأسه فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضى بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصى، والحلماء لترك التناهى ۴.

(۱) تعطفت.. كناية عن السعادة والإقبال، يقال: تعطف الدهر على فلان، أى أقبل حظه وسعادته، والذرى الأعالى، جمع ذروة، كناية عن عزهم وقوتهم وامتناعهم.

(۲) لا تغمز.. لا تقرع.. مثل يضرب لمن لا يجترأ عليه لعزته وقوته.

(۳) الأمثال هى ما ورد فى القرآن بما قصه الله تعالى من أحوال الأمم القديمة وكيف نزلت بها الكوارث نتيجة لممارساتها المنحرفة.

(۴) التناهى مصدر تناهى القوم عن كذا، أى نهى بعضهم بعضا. يقول: لعن الله الماضين من قبلكم لأن سفهاءهم ارتكبوا المعصية. وحلماءهم لم ينهوهم عنها وهذا من قوله تعالى فى شأن بنى إسرائيل (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) سورة المائدة / ۷۹.

(۱۱۲)

مفاتيح البحث: الامر بالمعروف (۱)، الجهل (۱)، سورة المائدة (۱)، القرآن الكريم (۱)، الضرب (۱)

صفحه ۹۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۱۳

۵ - المعروف والمنكر والأكثرية الصامتة من فرائض الإسلام الكبرى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقد ورد تشريع هذه الفريضة فى الكتاب الكريم والسنة الشريفة فى عدة نصوص دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على جميع المسلمين بنحو الواجب الكفائى ۱.

كما وردت نصوص أخرى كثيرة فى الكتاب والسنة، منها ما يشتمل على بيان الشروط التى يتنجز بها وجوب هذه الفريضة على المسلم. ومنها ما يضئ الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه الفريضة، كما يوضح المبدأ الفكرى الإسلامى العام الذى ينبثق منه هذا التشريع، دل على وجوب هذه الفريضة من الكتاب الكريم قوله تعالى:

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أولئك هم المفلحون ۲.

فقد دلت هذه الآية على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من جهة دلالة لام الأمر فى ولتكن على الوجوب.

(۱) من جملة تقسيمات الواجب عند علماء أصول الفقه تقسيمه إلى واجب عينى وواجب كفائى. ويعنون بالواجب العينى ما يتعلق بكل مكلف ولا يسقط عن أحد من المكلفين بفعل غيره. ويعنون بالواجب الكفائى ما يطلب فيه وجود الفعل من أى مكلف كان، فهو يجب على جميع المكلفين ولكن يكتفى بفعل بعضهم فيسقط عن الآخرين. نعم إذا تركه جميع المكلفين فالجميع مذنبون. وأمثلة الواجب الكفائى كثيرة فى الشريعة منها تجهيز الميت والصلاة عليه، ومنها الحرف والصناعات والمهن التى يتوقف عليها انتظام شؤون حياة الناس ومنها الاجتهاد فى الشريعة، ومنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(۲) سورة آل عمران (مدنية - ۳) الآية: ۱۰۴.

(۱۱۳)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۳)، الامر بالمعروف (۲)، الكرم، الكرامة (۲)، النهى (۲)، الوجوب (۴)، أصول الفقه (۱)، سورة آل عمران (۱)، الوقوف (۱)، الصّلاة (۱)

صفحه ۹۱

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۱۴

کما أن ظاهرها أن الواجب هنا کفائی لا عینی، لأن مفاد الأمر تعلق بأن تکون فی المسلمین أمة تأمر وتنهی، لا بجمیعهم علی نحو العینیة الاستغراقیة وعلیه فإذا قامت جماعة منهم بهذا الواجب سقط الوجوب عن بقیة المکلفین کما هو الشأن فی الواجب الکفائی.

ولم یحدد فی القرآن والسنة عدد مخصوص لأفراد هذه الأمة، فیراعی فی عدد الأفراد القائمین بالواجب مقدار الوفاء بالحاجة.

وقد جعل الله تعالی فی کتابه الکریم وعی هذه الفریضة، وأدائها حین یدعو وضع المجتمع إلی ذلک، من صفات المؤمنین الصالحین، فقال تعالی:

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولیاء بعض یأمرون بالمعروف، وینهون عن المنکر، ویقیمون الصلاة ویؤتون الزکاة ویطیعون الله ورسوله أولئک سیرحمهم الله إن الله عزیز حکیم ۱.

فقد دلت الآیة المبارکة علی تضامن المؤمنین بعضهم مع بعض فی عمل الخیر والبر والتقوی، وأنهم جمیعا من جنود هذه الفریضة حین یدعوهم الواجب إلیها.

وسیاق الآیة الکریمة دال علی وجوب الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، من حیث أن بقیة ما ورد فی الآیة کله من الواجبات المعلومة فی الشریعة (الصلاة، والزکاة، وطاعة الله ورسوله) ۲، وإن لم تکن الدلالة السیاقیة من الدلالات التی لها حجیة فی استظهار الأحکام الشرعیة.

وکما ورد مدح المؤمنین والمؤمنات - کأفراد - فی الآیة الآنفة، فقد ورد فی آیة أخری مدح المسلمین کافة - کأمة ومجتمع - من حیث وعیهم لهذه الفریضة وعملهم بها، وتلک هی قوله تعالی:

(۱) سورة التوبة (مدنیة - ۹) الآیة: ۷۱.

(۲) ربما یکون المراد من طاعة الله ورسوله، بعد ذکر الأمر والنهی والصلاة والزکاة - الطاعة فی الشأن السیاسی، فلا یکون من ذکر العام بعد الخاص.

(۱۱۴)

مفاتیح البحث: الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر (۱)، الأحکام الشرعیة (۱)، القرآن الکریم (۱)، الکرم، الکرامة (۲)، الزکاة (۱)، النهی (۲)، الصّلاة (۲)، الوجوب (۱)، سورة البراءة (۱)

صفحه ۹۲

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۱۵

کنتم خیر أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنکر، وتؤمنون بالله ۱.

وقد مدح الله فی کتابه الکریم المسلمین من أهل الکتاب، أتباع الأنبیاء السابقین قبل بعثة النبی محمد (ص) بوعیهم لهذه الفریضة والعمل بها، مما یکشف عن أنها فریضة عریقة فی الإسلام منذ أقدم عصوره وصیغه، وأنها قد کانت فریضة ثابتة فی جمیع مراحله التشریعیة التی جاء بها أنبیاء الله تعالی جیلا بعد جیل. قال تعالی:

لیسوا سواء من أهل الکتاب أمة قائمة یتلون آیات الله آناء اللیل وهم یسجدون. یؤمنون بالله والیوم الآخر، ویأمرون بالمعروف وینهون عن المنکر، ویسارعون فی الخیرات وأولئک من الصالحین ۲.

* وقد کان إحیاء هذه الفریضة، وجعلها إحدی هواجس المجتمع من شواغل الإمام الدائمة.

وقد تناولها فى خطبه وكلامه – كما تعكس لنا ذلك النماذج التى اشتمل عليها نهج البلاغة – من زوايا كثيرة:

تناولها كقضية فكرية لا بد أن توعى لتغنى الشخصية الواعية، وباعتبارها قضية تشريعية تدعو الأمة والأفراد إلى العمل.

ومن هذين المنظورين عالجها بعدة أساليب.

* لقد أعطاها منزلة عظيمة، تستحقها بلا شك، بين سائر الفرائض الشرعية، فجعلها إحدى شعب الجهاد الأربع:

.. والجهاد منها – من دعائم الإيمان – على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصدق فى المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين ومن صدق فى المواطن قضى ما عليه، ومن

(۱) سورة آل عمران (مدنية – ۳) الآية: ۱۱۰.

(۲) سورة آل عمران (مدنية – ۳) الآية: ۱۱۳ – ۱۱۴.

(۱۱۵)

مفاتيح البحث: الامر بالمعروف (۳)، النهى عن المنكر (۲)، مبعث النبى صلى الله عليه وآله (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، أهل الكتاب (۲)، التصديق (۱)، الكرم، الكرامة (۱)، النهى (۱)، سورة آل عمران (۲)

صفحه ۰۹۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۱۶

شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة ۱.

وجعل الإمام هذه الفريضة، فى كلام له آخر، تتقدم على أعمال البر كلها، فقال:

...وما أعمال البر كلها، والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة ۲ فى بحر لجى ... ۳.

ومن السهل علينا أن نفهم الوجه فى تقدم هذه الفريضة على غيرها إذا لاحظنا أن أعمال البر تأتى فى الرتبة بعد استقامة المجتمع وصلاحه المبدئى – الشرعى والأخلاقى – وأن الجهاد لا يكون ناجعا إلا إذا قام به جيش عقائدى، وهذه كلها تتفرع من الوعى المجتمعى للشريعة والأخلاق، ومن الحد الأدنى للالتزام المسلكى بهما.

* فى بعض كلماته بين الإمام جانبا من الأسباب الموجبة لهذا التشريع، فقال:

فرض الله ... والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهى عن المنكر ردعا للسفهاء ۴.

فعامة الناس الذين قد يقعون فى إثم ترك الواجبات لأنهم لا يعرفونها على وجهها أو يجهلونها، يمكنهم الأمر بالمعروف من التعلم والتفقه، بالإضافة إلى أولئك الذين يقعون فى إثم ترك الواجب وهم يعرفون الواجب والحرام حيث يردهم الأمر بالمعروف إلى جادة الصواب والاستقامة، كما يرد إليها السفهاء الذين يتجاوزون فى لهوهم وعبثهم حدود الله.

* وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مراتب متدرجة من الأدنى إلى الأعلى، فهى

(۱) نهج البلاغة – باب الحكم – رقم النص: ۳۱.

(۲) النفثة – كالنفخة لفظا ومعنى بزيادة ما يمازج النفس من الريق عند النفخ.

(۳) نهج البلاغة – باب الحكم – رقم النص: ۳۷۴.

(۴) نهج البلاغة – باب الحكم – رقم النص: ۲۵۲.

(۱۱۶)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۱)، الامر بالمعروف (۳)، النهى عن المنكر (۲)، يوم القيامة (۱)، سبيل الله (۱)،

کتاب نهج البلاغة (۳)

صفحه ۹۴

التاریخ وحركة التقدم البشری ونظرة الإسلام – الشیخ محمد مهدی شمس الدین – الصفحة ۱۱۷

فریضة مرنة تستجیب للحالات المتنوعة، وللأوضاع المختلفة. فرب إنسان تنفع فی ردعه الكلمة، ورب إنسان لا ینفع فی شأنه إلا العنف.

ولكل حالة طریقة أمرها ونهیها التی یقدرها الآمر والناهی العارف، ویتصرف بقدرها فلا یتجاوزها إلی ما فوقها حیث لا تدعو الحاجة إلیه، ولا ینحط بها إلی ما دونها حیث لا یؤثر ذلك فی ردع السفیه عن غیه وحمله علی الاستقامة والصلاح.

وثمة حالات من الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر لا بد فیها من القتال، وهذه حالات تحتاج إلی أن یقود عملیة الأمر والنهی فیها الحاكم العادل. وفی هذه الحالات الخطیرة جدا لا یجوز لآحاد الناس أو جماعاتهم أن یقوموا بها دون قیادة حاكم شرعی عادل.

وإذا كانت مراتب الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر تتدرج صاعدة من الإنكار بالقلب إلی الإنكار باللسان إلی الإنكار بالید، وللإنكار باللسان درجات، وللإنكار بالید درجات...

وإذا كانت الحالات العادیة للأمر والنهی تتفاوت فی خطورتها وأهمیتها بما یستدعی هذه المرتبة من الإنكار أو تلك...

فإن الحالات الكبری التی لا بد فیها من تدخل الحاكم العادل والأمة كلها قد تبلغ درجة من الخطورة لا بد فیها من الإنكار بالقلب واللسان وأقصی حالات الإنكار بالید – أعنی القتال.

وهذا هو ما كان یواجهه المجتمع الإسلامی فی عهد الإمام علیه السلام، متمثلا تارة فی ناكثی البیعة الذین خرجوا علی الشرعیة واعتدوا علی مدینة البصرة، ولم تفلح دعوته لهم بالحسنی فی عودتهم إلی الطاعة واضطروه إلی أن یخوض ضدهم معركة الجمل فی البصرة. أو المتمردین علی الشرعیة فی الشام بقیادة معاویة بن أبی سفیان الذی رفض جمیع الصیغ السیاسیة التی عرضها علیه الإمام لیعود من خلالها إلی الشرعیة. أو المارقین الخوارج علی الشرعیة والذین رفضوا كل عروض السلام التی قدمت لهم، وأصروا علی الفتنة ومارسوا الإرهاب ضد الفلاحین والآمنین والأطفال والنساء...

(۱۱۷)

مفاتیح البحث: الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر (۲)، معاویة بن أبی سفیان لعنهما الله (۱)، مدینة البصرة (۲)، الشام (۱)، الخوارج (۱)، النهی (۲)، القتل (۲)، الجواز (۱)، الحاجة، الإحتیاج (۱)

صفحه ۹۵

التاریخ وحركة التقدم البشری ونظرة الإسلام – الشیخ محمد مهدی شمس الدین – الصفحة ۱۱۸

فی هذه الحالات وأمثالها علی المسلم المستقیم أن یبرأ من الإنحراف فی قلبه، وأن یدینه علنا بلسانه، وأن ینخرط فی أی حركة یقودها الحاكم العادل لتقویم الإنحراف بالقوة إذا اقتضی الأمر ذلك.

قال علیه السلام، فیما یبدو أنه تقسیم لمواقف الناس الذین كان یقودهم من المنكر المبدئی الخطیر الذی كان یهدد المجتمع الإسلامی كله فی استقراره، وتقدمه، ووحدة بنیه:

فمنهم المنكر للمنكر بیده ولسانه وقلبه، فذلك المستكمل لخصال الخیر. ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بیده فذلك متمسك بخصلتین من خصال الخیر ومضیع خصلة، ومنهم المنكر بقلبه والتارك بیده ولسانه فذلك الذی ضیع أشرف الخصلتین من الثلاث وتمسك بواحدة.

ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميت الأحياء ۱.

ونلاحظ أن الإمام سمى التارك، فى هذه الحالة الخطيرة، لجميع مراتب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ميت الأحياء ونفهم صدى هذا الوصف إذا لاحظنا أن إنسانا لا يستشعر الأخطار المحدقة بمجتمعه، ولا يستجيب لها أى استجابة، حتى أقل الاستجابات شأنا وأهونها تأثيرا، وأقلها مؤونة وهى الإنكار بالقلب الذى يقتضيه مقاطعة المنكر واعتزال أهله - أن إنسانا كهذا بمنزلة الجثة التى لا تستجيب لأى مثير، لأنها خالية من الحياة التى تشعر وتستجيب.

ويقول عبد الرحمان بن أبى ليلى الفقيه، وهو ممن قاتل مع الإمام فى صفين، أن الإمام كان يقول لهم حين لقوا أهل الشام:

أيها المؤمنون. إنه من رأى عدوانا يعمل به، ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه. ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الظالمين هى السفلى فذلك الذى أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونور فى قلبه اليقين ۲.

(۱) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص: ۳۷۴.

(۲) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص: ۳۷۳.

(۱۱۸)

مفاتيح البحث: النهى عن المنكر (۱)، عبد الرحمان بن أبى ليلى (۱)، الشام (۱)، الظلم (۱)، القتل (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۹۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۱۹

ونلاحظ هنا أن الإمام وضع للإنكار بالسيف - وهو أقصى مراتب الإنكار باليد - شرطا، هو أن تكون الغاية منه إعلاء كلمة الله لا العصبية العائلية أو العنصرية، ولا المصلحة الخاصة، والعاطفة الشخصية. وهذا شرط فى جميع أفعال الإنسان، وفى جميع مراتب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلا أن الإمام عليه السلام صرح به فى هذه المرتبة لخطورة الآثار المترتبة على القيام بها من حيث أنها قد تؤدى إلى الجرح والقتل.

* ويقدر الإمام أن كثيرا من الناس يتخاذلون عن ممارسة هذا الواجب الكبير فلا يأمرون بالمعروف تاركه ولا ينهون عن المنكر فاعله بسبب ما يتوهمون من أداء ذلك إلى الإضرار بهم: أن يعرضوا حياتهم للخطر، أو يعرضوا علاقاتهم الاجتماعية للاهتزاز والقلق، أو يعرضوا مصادر عيشهم للانقطاع ... وما إلى ذلك من شؤون.

وقد لحظ الشارع هذه المخاوف، فجعل من شروط وجوب الأمر والنهى عن المنكر عدم ترتب ضرر معتد به على الآمر والناهى.

ولكن كثيرا من الناس لا يريدون أن يمسهم أى أذى أو كدر. وهذا موقف ذاتى وأنانى شديد الغلو لا يمكن القبول به من إنسان يفترض فيه أنه ملتزم بقضايا مجتمعه كما هو شأن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر. فهو إنسان يستبد به القلق لأى انحراف يراه، ويدفعه قلقه وأخلاقه إلى أن يتصدى للانحراف بالشكل المناسب، وهو الذى قال فيه الامام فى النص السابق المستكمل لخصال الخير.

لقد نبه الإمام - فى موضعين من نهج البلاغة على أن التخاذل عن الأمر والنهى خشية التعرض للأذى ناشئ عن أوهام ينبغى أن يتجاوزها المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه، فلا يجعلها هاجسه الذى يشله فيحول بينه وبين الحركة المباركة المثمرة، فقال الإمام فيما خاطب به أهل البصرة فى إحدى خطبه، وقد كانوا بحاجة إلى هذا التوجيه، لما شهدته مدينتهم، وتورط فيه كثير منهم من فتنة الجمل:

وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه، وإنهما لا يقربان من

(۱۱۹)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۲)، النهى عن المنكر (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، مدينة البصرة (۱)، النهى (۱)،

الوجوب (۱)

صفحه ۰۹۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۰

أجل، ولا ينقصان من رزق ١.

ونوجه النظر إلى قوله عليه السلام أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خلقان من خلق الله عز وجل، فالله هو الآمر بكل معروف، والناهى عن كل منكر، وإذن، فإن المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه الواعى للأخطار المحدقة به، يمتثل - حين يأمر وينهى - لله تعالى ويتبع سبيله الأقوم.

وقال الإمام فى موقف آخر:

وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق ٢.

* قلنا إن إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمع الدائمة، وإحدى الطاقات الفكرية الحية المحركة للمجتمع كان من شواغل الإمام الدائمة.

وكان يحمله على ذلك عاملان:

أحدهما أنه إمام المسلمين، وأمير المؤمنين، ومن أعظم واجباته شأنا أن يراقب أمته، ويعلمها ما جهلت، ويعمق وعيها مما علمت، ويجعل الشريعة حية فى ضمير الأمة وفى حياتها.

وثانيهما هو قضيته الشخصية فى معاناته لمشاكل مجتمعه الداخلية والخارجية فى قضايا السياسة والفكر.

فقد كان الإمام يواجه فى مجتمعه حالة شاذة لا يمكن علاجها والتغلب عليها إلا بأن يجعل كل فرد بالغ فى المجتمع - والنخبة من المجتمع بوجه خاص - من قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى كل موقف تدعو الحاجة إليهما وخاصة فى المواقف الخطيرة، قضية التزام شخصى واع وصارم.

لقد شكا الإمام كثيرا من النخبة فى مجتمعه، وأدان هذه النخبة بأنها نخبة فاسدة

(۱) نهج البلاغة - رقم الخطبة ۱۵۶.

(۲) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص ۳۷۴.

(۱۲۰)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۲)، النهى عن المنكر (۱)، الحاجة، الإحتياج (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۰۹۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۱

فى الغالب لأنها لم تلتزم بقضية شعبها ووطنها وإنما تخلت عن هذه القضية سعيا وراء آمال شخصية وغير أخلاقية...

أكثر من هذا: لقد اتهم الإمام هذه النخبة مرارا بأنها خائنة. ومن مظاهر عدم التزامها بقضية شعبها أو خيانته هو تخليها الذى لا مبرر له عن ممارسة واجبها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وإذ يئس الإمام من التأثير الفعال فى هذه النخبة فقد توجه بشكواه رأسا إلى عامة الشعب محاولا أن يحركه فى اتجاه الإلتزام العملى بقضيته العادلة، موجها وعيه نحو الأخطار المستقبلية، محذرا له من تطلعات نخبته.

نجد هذا التوجه نحو عامة الشعب مباشرة ظاهرا فى الخطبة القاصعة التى تضمنت ألوانا من التحذير، النابض بالغضب، من السقوط فى

حبائل النخبهٔ.

وكانت قضيهٔ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – فيما يبدو – والتراخى أو اللامبالاهٔ التى تظهرها النخبهٔ نحو هذه القضيهٔ – إحدى أشد القضايا إلحاحا على ذهن الإمام وأكثرها خطورهٔ فى وعيه.

وكان أسلوب التنظير بالتاريخ إحدى الوسائل التى استعملها الإمام فى تحذيره لشعبه وفى تعليمه الفكرى لهذه الفريضهٔ.

لقد كانت شكواه وتحذيراته المترعهٔ بالمرارهٔ والألم نتيجهٔ لمعاناته اليوميهٔ القاسيهٔ من مجتمعه بوجه عام ومن نخبهٔ هذا المجتمع بوجه خاص.

ولا بد أن هؤلاء وأولئك قد سمعوا من الإمام مرارا كثيرهٔ مثل الشكوى التاليهٔ التى قالها فى أثناء كلام له عن صفهٔ من يتصدى للحكم بين الأمهٔ وليس لذلك بأهل:

إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالا ويموتون ضلالا. ليس فيهم سلعهٔ أبور ۱ من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعهٔ أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر ۲.

(۱) أبور – على وزن أفعل – من البور، الفاسد، بار الشئ أى فسد، وبارت السلعهٔ أى كسدت ولم تنفق، وهذا هو المراد هنا: أن العمل الحق بالقرآن كاسد لا يقبله الناس ولا يتعاملون معه.

(۲) نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ رقم: ۱۷.

(۱۲۱)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۲)، الشكوى (۱)، كتاب نهج البلاغهٔ (۱)، القرآن الكريم (۱)، الإنفاق (۱)

صفحه ۰۹۹

التاريخ وحركهٔ التقدم البشرى ونظرهٔ الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحهٔ ۱۲۲

كان النهج الذى سار عليه الإمام فى حكمه نهج الإسلام الذى يستجيب لحاجات عامهٔ الناس فى الكرامهٔ، والرخاء، والحريهٔ.

وكان هذا النهج يتعارض، بطبيعهٔ الحال، مع مصلحهٔ طبقهٔ الأعيان وزعماء القبائل الذين اعتادوا على الاستماع بجملهٔ من الامتيازات فى العهد السابق على خلافهٔ أمير المؤمنين على (ع).

وقد كان لهذه الطبقهٔ ذات الامتيازات أعظم الأثر فى الحيلولهٔ بشتى الأساليب دون تسلم الإمام للسلطهٔ فى الفرص التى مرت بعد وفاهٔ رسول الله (ص)، وبعد وفاهٔ أبى بكر، وبعد وفاهٔ عمر، ولكنه بعد وفاهٔ عثمان تسلم السلطهٔ على كراهيهٔ منه لها، وعلى كراهيهٔ من النخبهٔ له، فقد قبلت به مرغمهٔ لأن الضغط الذى مارسته الأكثريهٔ الساحقهٔ من المسلمين فى شتى حواضر الإسلام شل قدرهٔ النخبهٔ الماليهٔ وطبقهٔ الأعيان على التأثير فى سير الأحداث، فتكيفت مع الوضع الجديد الذى وضع الإمام عليا – بعد انتظار طويل – على رأس السلطهٔ الفعليهٔ فى دولهٔ الخلافهٔ.

وقد كشفت الأحداث التى ولدت فيما بعد عن أن هذا التكيف كان مرحليا، رجاء أن تحتال فى المستقبل، بطريقهٔ ما – لتأمين مصالحها وامتيازاتها.

وحين يئست طبقهٔ الأعيان هذه من إمكان التأثير على الإمام وتبددت أحلامهم فى تغيير نهجه فى الإدارهٔ وسياسهٔ المال وتصنيف الجماعات تغييرا ينسجم مع مصالحهم فيحفظ لها مراكزها القديمهٔ، ويبوئها مراكز جديدهٔ ويمدها بالمزيد من القوهٔ والسلطات على القبائل والموالى من سكان المدن والأرياف ... حين يئست هذه الطبقهٔ من كل هذا وانقطع أملها.. طمع كثير من أفراد هذه الطبقهٔ بتطلعاته إلى الشام ومعاويهٔ بن أبى سفيان، فقد رأوا فى نهجه وأسلوبه فى التعامل مع أمثالهم ما يتفق مع فهمهم ومصالحهم... وتخاذل بعض أفرادها عن القيام بواجباتهم العسكريهٔ فى مواجههٔ النشاط العسكرى المتزايد الذى قام به الخارجون عن الشرعيهٔ فى

الشام، هذا النشاط الذى اتخذ فى النهاية طابع الغارات السريعة وحروب العصابات.

وكان تخاذلا لا يمكن تبريره بجبنهم فشجاعتهم ليست موضع شك على الإطلاق.

ولا يمكن تبريره بقلتهم، فقد كانت الأمة قادرة على أن تزود حكومتها الشرعية

(۱۲۲)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، كتاب الغارات لإبراهيم بن محمد الثقفى (۱)، الشام (۲)، الكرم، الكرامة (۱)، الوفاة (۴)

صفحه ۱۰۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۳

بجيوش جرارة وجنود أقوياء مدربين جعلت منهم طبيعتهم، وثقافتهم، وحروب الفتح التى خاضوها مدة سنوات طويلة من خيرة المقاتلين فى العالم.

ولا يمكن تبريره بنقص فى التسليح وعدة الحرب وعتادها، فقد كانت معامل السلاح نشطة لتأمين احتياطى ضخم من السلاح لمجتمع كان لا يزال محاربا.

ولا يمكن تبريره بسوء الحالة الاقتصادية، فقد كان المال العام وفيرا بعد أن أصلحت الإدارة المالية فى خلافة الإمام.

لم يكن إذن ثمة سبب للتخاذل سوى الموقف السياسى غير المعلن الذى صممت النخبة من الأعيان وزعماء القبائل على التمسك به والتصرف فى القضايا العامة وفقا له، إلى النهاية، وذلك بهدف تفريغ حكومة الإمام على من قوة السلطة، وجعلها عاجزة عن الحركة بسبب عدم توفر الوسائل الضرورية لها، وهذا ما يؤدى فى النهاية إلى انتصار التمرد على الشرعية.

كان هذا الموقف السياسى غير المعلن هو سبب التخاذل.

وقد كان هذا الموقف غير معلن، بل كان قادة هذه النخبة يوحون بإخلاصهم وتفانيهم، لأن هذه النخبة كانت تخاف، إذا أعلنت موقفها وكشفت عن نواياها وأهدافها البعيدة وأمانيها المخزية، من جمهور الأمة أن يكتشف لعبتها ضد آماله ومصالحه، فيدينها ويعاقبها.

وقد حفظ لنا الشريف فى نهج البلاغة نصوصا كثيرة يلوم فيها الإمام نخبة مجتمعه لوما قاسيا مرا على تراخيهم وتخاذلهم عن القيام بالتزاماتهم العسكرية فى الدفاع عن الشرعية، ولا شك أن الإمام فى آخر عهده كان مضطرا للإكثار من هذا اللوم والتقريع، كقوله فى إحدى خطبه:

ألا ـ وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسرا وإعلانا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم ۱ إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم ۲،

(۱) عقر دارهم: أصل دراهم، والعقر: الأصل، ومنه: العقار للنخل، كأنه أصل المال.

(۲) تواكلتم: من وكلت الأمر إليك ووكلته إلى، أى لم يتوله أحد منا، ولكن أحال به كل واحد على الآخر.

(۱۲۳)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۱)، القتل (۱)، الحرب (۱)

صفحه ۱۰۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۴

حتى شنت ۱ عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان...

فيا عجبا! عجبا والله يميت القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحا لكم وترحا ۲ حين صرتم غرضا يرمى:

يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم: هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحر ۳، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء قلتم: هذه صبارة القر ۴ ... كل هذا فرارا من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر.

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال ۵ لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة - والله - جرت ندما وأعقبت سدما ۶.

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبى قيحا، وشحنتم صدرى غيظا، وجرعتمونى نغب التهمام أنفاسا ۷ وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما منى لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهأنذا قد ذرفت ۸ على الستين! ولكن لا رأى لمن لا يطاع ۹.

* بهذه المرارة، وبهذا الغضب، وبهذه السخرية، وبهذا الاحتقار كان الإمام يواجه هذه النخبة التى تخاذلت عن القيام بواجبها، أو خانت قضية شعبها.

ويبدو أن هذه الطبقة - أو فريقا منها - كانت تحاول، سترا لمواقفها التى عمل

(۱) شنت الغارات: فرقت، أى نشبت الحروب الصغيرة فى أماكن متعددة (حرب العصابات).

(۲) دعاء عليهم بالخزى والسوء: القبح، والترح.

(۳) حمارة القيظ: شدة حره. ويسبخ عنا الحر: بمعنى يخف، ويلطف الهواء.

(۴) صبارة الشتاء: بتشديد الراء - شدة برد الشتاء. وهذه هى الأعذار التى كانوا يبررون بها تخاذلهم ويلوذون بها دون كشف موقفهم السياسى الذى بيناه.

(۵) الحجال: جمع حجلة، وهى بيت يزين بالستور، والثياب، والأسرة.

(۶) السدم: الحزن والغيظ.

(۷) النغب: جمع نغبة: وهى الجرعة، والتهمام: الهمم، أنفاسا: جرعة بعد جرعة.

(۸) ذرفت: زدت على الستين.

(۹) نهج البلاغة - الخطبة رقم: ۲۷.

(۱۲۴)

مفاتيح البحث: إماتة القلب (۱)، كتاب الغارات لإبراهيم بن محمد الثقفى (۲)، الغضب (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الحزن (۱)

صفحه ۱۰۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۵

الإمام على فضحها، أن تتظاهر فى بعض الحالات بالغيرة والحمية الدينية، فتتخذ مواقف لفظية آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر دون أن تترجم ذلك إلى أفعال وممارسة عملية، شأنها فى ذلك شأن الكثيرين ممن يسترون خياناتهم وأنانيتهم، وحرصهم على المتاع الدنيوى بالمواقف الأخلاقية اللفظية.

ولكن الإمام عليا كان يعرف هؤلاء، ومن السهل معرفتهم فى كل زمان، وكان يفضح هذه المواقف المنافية بقسوة، لأنها تضيف إلى

جريمة الخيانة السياسية رذيلة النفاق والتمويه على بسطاء الناس، فيقول مبصرا مجتمعه بفساد العلاقات الناشئ من فساد النخبة:

...وهل خلقتم إلا فى حثالة ١ لا تلتقى إلا بذمهم الشفتان، استصغارا لقدرهم، وذهابا عن ذكرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ظهر الفساد فلا منكر مغير، ولا زاجر مزدجر. أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله فى دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده؟ هيهات! لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته.

لعن الله الآمرين بالمعرف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به ٢.

* وإذا كانت مصلحة الحكم المستبد الطبقى أو الفئوى تقضى بأن يصمت الشعب ولا يرتفع منه صوت اعتراض أو احتجاج، أو إدانة مهما أصابه من مظالم، ومهما حل بحقوقه من انتهاكات، فإن مصلحة الحكم الشعبى الملتزم بالمصالح الحقيقية للناس العاديين البسطاء هى على العكس من ذلك ... إن مصلحة هذا الحكم الذى يستمد فاعليته وقوته من مجموع الشعب هى فى أن يتكلم الناس فى الشأن السياسى مؤيدين أو منتقدين لحماية مصالحهم الحقيقية فى مواجهة البنى العليا فى المجتمع التى تتبع سياسات مضادة لمصالح مجموع الشعب على المدى القريب أو البعيد، والتى تعمل

(١) الحثالة: الردئ من كل شئ.

(٢) نهج البلاغة - الخطبة رقم ١٢٩.

(١٢٥)

مفاتيح البحث: العزّة (١)، كتاب نهج البلاغة (١)

صفحه ۱۰۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٢٦

باستمرار لتكوين حالات اجتماعية، ومشاغل واهتمامات فكرية تصرف فئات الشعب عن مصالحها الجوهرية ١ وتقعد بها عن مساعدة الحكم الشعبى الذى يمثل هذه المصالح ويعمل لتحقيقها، هذا إذا لم تفلح هذه البنى العليا فى أن تؤلب بعض فئات الشعب - نتيجة للتضليل - ضد هذا الحكم.

وسكوت الشعب فى حالة النشاط المعادى الذى تقوم به البنى العليا، أو عدم مبالاته، بترك الساحة خالية أمام هذه القوى لتفسد على الحكم الشعبى سياساته المستقبلية دون أن تخشى عقابا، لأن الحكم فى هذه الحالة يقف فى مواجهة تلك القوى وهو أعزل، وهذا يمنعها من التغلب عليه أو من تجاوزه. وهذا ما كان يحدث فى كثير من الحالات فى عهد الإمام عليه السلام، وكان يثير غضبه على النخبة لفسادها، ويحمله على كشف عيوبها أمام أعين الناس.

لقد كان الإمام عليه السلام حريصا أشد الحرص على أن يحرك الجماهير ويدفع بها دوما إلى أن تعبر عن رأيها، وتعلن عن مواقفها.

وتعكس لنا النصوص إدراك الإمام العميق للأهمية الكبرى والحاسمة التى تبينها هذه المسألة فى عمله السياسى، وذلك فى مظهرين:

الأول:

كثرة المناسبات التى أثار فيها الإمام موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتنوع الأساليب التى شرحه بها. وهذا أمر ملفت للنظر بالنسبة إلى حكم شرعى ثابت فى القرآن الكريم والسنة النبوية ويعتبره الفقهاء من الأحكام القطعية الضرورية، إن هذا الاهتمام المستمر على مسألة الأمر والنهى يكشف عن أن الإمام كان يواجه فى المجتمع حالة غفلة عن الحكم الشرعى بوجوب الأمر والنهى، وحالة تراخ عن القيام

(١) فى المؤتمر الذى عقده الخليفة عثمان بن عفان، عند تعاظم موجة الإحتجاج والتذمر - وجمع الولاة والعمال الكبار - لمعالجة الموقف المتفجر بالغضب والنقمة على سياسة الدولة - كان اقتراح عبد الله بن عامر، حاكم ولاية البصرة أن تحبس الجيوش حيث هى

(تجمر) ولا يؤذن لها بالعودة ليشغل الجنود بمشاكل حياتهم اليومية عن النشاط السياسى - ومن المؤسف أن هذا الاقتراح هو الذى تم العمل به فأدى إلى الفتنة الكبرى.

(۱۲۶)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۱)، الأحكام الشرعية (۲)، القرآن الكريم (۱)، النهى (۲)، الغلّ (۱)، الخليفة عثمان بن عفان (۱)، عبد الله بن عامر (۱)، مدينة البصرة (۱)

صفحه ۱۰۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۷

بهذه الفريضة الإسلامية على وجهها، وهذه الغفلة وهذا التراخى حملاه على أن يذكر المسلمين بفريضة الأمر والنهى ما استطاع.

الثانى:

عنف الأسلوب الذى عبر به الإمام عن أفكاره وعن معاناته حين كان يوجه خطاباته إلى المسلمين فى هذا الموقف أو ذاك مقرعا لائما، أو مشجعا حاثا لهم على أداء هذه الفريضة ... وهو ما يكشف عن أن الإمام يعانى من قلق عميق وغضب مكبوت نتيجة لما يراه فى المجتمع من إهمال. وتراخ.

* وقد حث الإمام المسلمين على الإلتزام العملى بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حياتهم العامة وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية بأساليب متنوعة، ونظر إليها من زوايا متعددة.

ومن جملة الأساليب التى اتبعها فى تعليمه الفكرى والسياسى بالنسبة إلى هذه الفريضة أسلوب التنظير التاريخى، فمن ذلك قوله فى الخطبة القاصعة:

وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلا بأخذه، وتهاونا ببطشه، ويأسا من بأسه، فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضى بين أيديكم، إلا ـ لتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصى، والحلماء لترك التناهى ۱.

نلاحظ أن الإمام عبر فى هذا النص، كما فى نصوص أخرى - عن إنكاره بشأن ما يراه فى مجتمعه من تهاون وتراخ فى امتثال فريضة الأمر والنهى، بأسلوب شديد الوقع يتجاوز النصيحة الرقيقة الهادئة إلى الإنذار الشديد، والتحذير من أهوال كبرى مقبلة، واستعان على تصوير ذلك بالتذكير بما حل فى القرن الماضى من اللعن نتيجة لإهماله هذه الفريضة أو تراخيه عن القيام بها.

(۱) نهج البلاغة: الخطبة رقم: ۱۹۲.

(۱۲۷)

مفاتيح البحث: الامر بالمعروف (۲)، النهى (۳)، الغفلة (۱)، الجهل (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۰۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۲۸

واللعن هنا ليس عقابا روحيا وأخرويا فقط، إنه هنا يأخذ معنى سياسيا، إن اللعن هو البعد عن رحمة الله ورعايته، وهذا يعنى أن الملعون يتعرض للنكبات السياسية والاجتماعية التى تؤدى به فى النهاية إلى الانحطاط والانهيار.

والظاهر أن الإمام يعنى بالقرن الماضى الإسرائيليين، فإن فى كلامه هنا قبسا من الآية الكريمة:

لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه

لبئس ما كانوا يفعلون ۱.

* فى النص التالى اتبع الإمام أسلوب التنظير بالتاريخ أيضا فى تعليمه الفكرى لمجتمعه بشأن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، معيدا إلى أذهان مستمعيه قصة ثمود القرآنية، والنكبة المرعبة التى أبادتهم حين عصوا أمر الله تعالى إليهم فى شأن ناقة نبيهم صالح (ع).

وليس من همنا هنا عرض الحادث التاريخى القرآنى، وإنما نبغى الكشف عن استخدام الإمام للتاريخ فى تعليمه الفكرى.

والإمام فى التنظير الوارد فى النص التالى يثير مسألة ذات أهمية بالغة فى العمل السياسى، وهى أن حركة التاريخ تقودها دائما جماعة قليلة العدد من الناس تملك القدرة على الحركة فتبادر إلى اتخاذ المواقف، فى حين أن غيرها من الناس يكون فى حالة سكون، فتكون بحركتها وقائع جديدة تحمل الناس على قبولها، وتضع السلطة أمام أمر واقع.

وحين تكون هذه الجماعة المتحركة القليلة العدد ملتزمة بقضايا مجتمعها، عاملة فى سبيل مصلحته، فإن واجب المجتمع أن يساندها ويقدم لها العون المعنوى والمادى فى جهادها.

(۱) سورة المائدة (مدنية – ۵) الآية: ۷۸ – ۷۹.

(۱۲۸)

مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۱)، الكرم، الكرامة (۱)، الجماعة (۱)، سورة المائدة (۱)

صفحه ۱۰۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۲۹

أما حين تعمل هذه الجماعة ضد مصالح المجتمع العليا والحقيقة – رغم ما توشى به عملها من ألوان خادعة – فإن على المجتمع أن يتحرك ويقف فى وجهها، ويلجم اندفاعها ذودا عن مصالحه.

أما سكوت المجتمع وسكونه وسلبيته تجاه مواقف هذه الجماعة فإنه جريمة يرتكبها فى حق نفسه، لأن الكارثة حين تقع فى النهاية نتيجة لأعمال الجماعة المتحركة لا تميز بين المسببين لها وبين الساكتين عنهم. إنها حين تقع تصيب بشرورها المجتمع كله، بل لعلها، فى قضايا السياسة والفكر، تصيب الساكتين عنها أكثر مما تصيب المسببين لها، والذين تكمن مصلحتهم فى الإنحراف والتزوير.

ومن هنا فإن ما اصطلح عليه فى لغة السياسة فى هذه الأيام باسم الأكثرية الصامتة، هذه الأكثرية التى لا تبدى فيما يجرى أمامها وعليها ولا تعيد، وإنما تقبل ما يقوم به الآخرون مختارة أو مرغمة، راضية أو ساخطة ...، هذه الأكثرية الصامتة بموقفها هذا تقوم بدور الخاذل للحق أو المتواطئ على الجريمة.

وذلك لأن الصمت فى هذه الحالات ليس علامة على البراءة والطيبة، وإنما هو علامة الجبن والغفلة والفرار من المسؤولية.

وهذه السلبية التى هى فى مستوى الجريمة لا تعفى من العقاب، والعقاب فى هذه الحالة لا تقوم به السلطة وإنما تقوم به القوانين الاجتماعية التى تصنع الكارثة، يقوم به القدر الذى لا يميز بين الساكن والمتحرك وإنما يجرف الجميع، يقوم به الله تعالى الذى يؤاخذ الجميع بذنوبهم: المتحركين بذنب المعصية، والساكتين بذنب توفير أجواء الجريمة أمام المجرمين ليرتكبوا جرائمهم.

ولذا، فإن الأكثرية الصامتة، من هذا المنظور، لا تضم أبرياء، وإنما تضم متواطئين وجبناء، سببوا، بإيثارهم للسلامة الشخصية العاجلة، كوارث عامة مستقبلية، وجبنهم الذى يكشف عن أنانيتهم الرخيصة والذليلة يكشف عن أنهم ليسوا جيلا صالحا لأن يبنى حياة مزدهرة.

إن الكوارث الاجتماعية، كالكوارث الطبيعية، تجرف فى طريقها، حين تقع النبات النافع والنبات الضار، ولا تميز بينهما فى الدمار.

(۱۲۹)

مفاتيح البحث: الصمت (۱)، الجماعة (۳)

صفحه ۱۰۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۳۰

قال عليه السلام:

...وإنه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شئ من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، ولا فى البلاد شئ أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب يومئذ حملته، وتناساه حفظته فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان فى طريق واحد لا يؤويهما مؤو ... فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا ... ۱.

وتصور الفقرة الأخيرة من هذا النص أبلغ تصوير واقع الانفصال بين الأمة وبين قيادتها الفكرية نتيجة لاغترابها الثقافى، وانفصالها - فى مجال تكوين المفاهيم والتوجيه - عن أصولها الفكرية.

وهذا الاغتراب الثقافى - الحضارى الناشئ عن هجر الأصول - وليس عن التفاعل مع الآخرين - يؤدى إلى موقف فى المنكر والمعروف خطير، فإن ثمة مقياسين للقيم والمثل الأخلاقية. أحدهما المقياس الموضوعى، والآخر المقياس الذاتى.

المقياس الموضوعى هو الذى يجعل شريعة المجتمع وعقيدته منبعا للقيم الأخلاقية ففى مجتمع إسلامى، مثلا، يكون منبع القيم هو العقيدة والشريعة الإسلاميتان.

وكذلك الحال فى مجتمع مسيحى مثلا أو بوذى.

وهذا المقياس يقضى بأن يكون المجتمع ملتزما بعقيدته وشريعته فى مؤسساته ونظمه وعلاقاته بدرجة تجعله تعبيرا عن تلك العقيدة والشريعة.

والمقياس الذاتى هو الذى يجعل منبع القيم الأخلاقية شخص الإنسان، فالإنسان فى هذه الحالة هو الذى يخترع أخلاقياته وقيمه التى تكيف سلوكه تجاه المجتمع وعلاقاته فى داخل المجتمع، ويستبعد هذا المقياس أى مصدر للقيم خارج الذات للقيم والأخلاقيات.

(۱) نهج البلاغة - الخطبة رقم ۱۴۷.

(۱۳۰)

مفاتيح البحث: كثرة الكذب (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۰۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۳۱

قال عليه السلام:

أيها الناس. إنما يجمع الناس الرضى والسخط، وانما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى ۱.

* وقد حذر الإمام بتجمعه فى إحدى استبصاراته نحو المستقبل من وضعية فكرية وثقافية تودى إلى هجر الأصول الثقافية والفكرية التى تكون روح المجتمع الإسلامى وتسمه بطابعه الخاص المميز له عن سائر التجمعات الثقافية - الحضارية، وتعطيه دوره المميز والخاص فى حركه التاريخ العالمى وبناء الحضارة ... وتؤدى به - نتيجة لانبثاقه عن أصوله - إلى أن يكون نسخة من ثقافة أخرى، ووحدة من وحدات حضارة أخرى، وتغدو الأصول الثقافية التى ترجع كلها إلى الكتاب والسنة مجرد أشكال يتداولها الناس دون أن

يكون لها دور فى تكوين المفاهيم، وبناء الشخصية، ورسم طريق العمل.

إن المسلمين أنفسهم، يومئذ سينبذون الكتاب باعتباره مصدرا للمفاهيم الفكرية، ويتجهون نحو منابع غريبة عن ثقافتهم وحضارتهم، وعقيدتهم وشريعتهم، وتاريخهم، يستمدون منها الغذاء العقلى والنفسى، والتوجيه السلوكى.

وننبه هنا إلى أن الاغتراب الثقافى الناشئ عن هجر الأصول – وهو ما حذر الإمام منه – غير الانفتاح الثقافى – الحضارى الذى يتولد من الطموح إلى التفاعل مع الآخرين واكتشاف صيغهم الحضارية والتعرف على فتوحهم الفكرية مع الحفاظ على الأصول، والأمانة للذات ومقوماتها ... فهذا الانفتاح أمر مطلوب مرغوب، وقد مارسه المسلمون وكانوا سادة فيه حين أنشأوا الحضارة الإسلامية العظيمة التى انفتحت على كل الإنجازات الخيرة فى الحضارات الأخرى، فاكتشفوها وكيفوها وفقا لقيم الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وأخلاقيات الإسلام المستمدة من الكتاب والسنة والفقه.

(۱) نهج البلاغة – رقم النص ۲۰۱.

(۱۳۱)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۰۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۳۲

وحينئذ يقع التعارض بين عقيدة المجتمع الرسمية وشريعته، وبين أخلاقيات وقيم أفراده وفئاته، ففى مجتمع إسلامى، مثلا، أو مسيحى أو بوذى، لا بد أن نكتشف – فى حالة شيوع المقياس الذاتى للقيم بين الأفراد – أن التزام المجتمع بعقيدته وشريعته التزام شكلى يرافق الإلحاد العملى.

والأثر الذى يترتب على التزام المقياس الموضوعى للقيم فى المجتمع أو المقياس الذاتى هام جدا.

أولا:

يؤدى اعتماد المقياس الموضوعى إلى نمو الفرد دون عقد وتمزقات داخلية، لأنه يوفر حالة التجانس والتكامل بين محتوى الضمير والعقل وبين التعبير السلوكى فى العلاقات مع المجتمع وفى داخله.

أما اعتماد المقياس الذاتى فإنه يؤدى إلى خلاف ذلك، لأن اتباع المقياس الذاتى يحدث للفرد تمزقات داخلية وعقدا فى نفسه، لأنه يجعله دائما فى حالة تعارض وتجاذب بين الزام العقيدة والشريعة وبين رغبات الذات باعتبارها مصدرا للقيم، ويؤدى ذلك إلى انعكاسات ضارة لا تقتصر على الأفراد، وإنما تتجاوزهم إلى المجتمع نفسه.

وثانيا:

إن المقياس الموضوعى بما يوفره من تجانس فى داخل الفرد بين أخلاقياته من جهة ومعتقده وشريعته من جهة أخرى يؤدى إلى تلاحم واسع النطاق داخل المجتمع، ويكون لدى المجتمع نظرة إلى المشكلات، ويؤدى أيضا إلى تكوين مواقف واحدة أو متقاربة بين الجماعات تجاه التحديات التى تواجه المجتمع.

أما اعتماد المقياس الذاتى فإنه يؤدى إلى العكس من ذلك. إنه يؤدى إلى تخلخل البنية الاجتماعية، وتعدد الفئات ذات المنازع الفكرية والسياسية المختلفة، ويكون مناخا ملائما لتولد المشاكل الاجتماعية وتعاظمها، لأن المقياس الذاتى لدى الأفراد والجماعات شديد التنوع والاختلاف.

(۱۳۲)

مفاتيح البحث: الوسعة (۱)

صفحه ۱۱۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۳۳
وهذا التشرذم يؤدى: أما إلى العجز عن اتخاذ مواقف موحدة على الصعيد القومى أو الوطنى نتيجة لتعدد الإرادات والميول، وأما إلى الاستسلام للدعاية السياسية التى يخطط لها وينفذها فريق من ذوى الأغراض والغايات الخاصة يخضع عقول الناس لمفاهيمه وقناعاته، ويحملها على قبول اختيارات قد لا تنسجم مع المصالح الحقيقية للأمة، وإنما تنسجم مع مصالح هذا الفريق الذى يملك وسائل الدعاية والإعلان والإعلام، وهذا هو ما يحدث فى العصر الحديث، ويؤدى إلى كوارث كبرى على الأصعدة الوطنية فى بعض الحالات، وعلى الصعيد العالمى فى بعض الحالات الأخرى، حيث يعرض سلام العالم كله أو سلام قارة بكاملها لمطامح ومطامع حفنة صغيرة من الناس تكيف عقول شعوب بكاملها، دافعة بها إلى اتخاذ مواقف سياسية تناقض مصالحها الوطنية، ومصالح جميع الشعوب، وقضية فلسطين أكبر شاهد على ما نقول.
لقد نبه الإمام عليه السلام إلى هذا الخطر، وحذر منه مجتمعه، فقال:
فيا عجبا، وما لى لا- أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها فى دينها، لا يقتصون أثر نبى، ولا يقتدون بعمل وصى، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون ۱ عن عيب. يعملون فى الشبهات ويسيرون فى الشهوات. المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا. مفزعهم فى المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم فى المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات ۲.
* وأخيرا، لقد بلغ من خطورة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الإمام على (ع) أنه جعلها إحدى وصاياه البارزة الهامة لابنيه الإمامين الحسن والحسين.
وقد تكررت هذه الوصية مرتين. إحداهما لابنه الإمام الحسن فى وصيته الجامعة
(۱) ولا يعفون: أى يستحسنون ما بدا لهم استحسانه، ويستقبحون ما خطر لهم قبحه بدون رجوع إلى دليل بين، أو شريعة واضحة. يثق كل منهم بخواطر نفسه، كأنه أخذ منها بالعروة الوثقى على ما بها من جهل ونقص (۲) نهج البلاغة - الخطبة رقم ۸۸.
(۱۳۳)
مفاتيح البحث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (۱)، الشهوة، الإشتهاء (۱)، الشهادة (۱)، الوصية (۱)، العصر (بعد الظهر) (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الجهل (۱)

صفحه ۱۱۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۳۴
التى كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين. والأخرى فى وصيته للإمامين الحسن والحسين فى وصيته لهما وهو على فراش الاستشهاد بعد أن ضربه ابن ملجم المرادى بالسيف.
قال عليه السلام فى الوصية الأولى:
...وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وباين ۱ من فعله بجهدك وجاهد فى الله حق جهاده ولا تأخذك فى الله لومة لائم ۲.
وقال عليه السلام فى الوصية الثانية:
...أوصيكما وجميع ولدى وأهلى ومن بلغه كتابى ... وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر فيولى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم ٣.

* سلام الله على على فى الخالدين.

(۱) باين: أى باعد وجانب.

(۲) نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النص: ٣١.

(۳) نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النص: ۴۷.

(۱۳۴)

مفاتيح البحث: الامر بالمعروف (۲)، النهى عن المنكر (۱)، ابن ملجم المرادى لعنه الله (۱)، الضرب (۱)، الوصية (۲)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۱۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۳۷

التاريخ فى مجال السياسة تمهيد السياسة لدى رجل العقيدة ورجل الدولة الحاكم القائد - وهو ما كأنه أمير المؤمنين على بن أبى طالب - أداة للتغلب على سلبيات الماضى والحاضر من أجل التوصل إلى أوضاع حياتية أفضل فى المستقبل لأكبر قدر من الناس.

والسياسة، فى الوقت نفسه، أداة للمحافظة على إيجابيات الماضى والحاضر أمام عواصف التغيير والتقلبات المفاجئة التى قد تحمل للمجتمع السياسى فى ثناياها نذر كارثة.

السياسة، إذن، ليست فن التغيير فقط، إنها فن الثبات أيضا.

إن السياسى الأمين على قضية مجتمعه، يعيش فى أبعاد الزمان كلها - ماضيه وحاضره ومستقبله - ويتعامل مع حقائق الماضى، وواقع الحاضر، وآمال ومخاوف ومطامح المستقبل، يقود، بحذر لا يبلغ الجمود ومغامرة لا تبلغ التهور، مجتمعه نحو آفاق جديدة دون أن يبتر استمراريته وبعده فى الماضى.

نقول هذا فى مواجهة دعاة التغيير منا فى عصرنا هذا، التغيير الذى يستهدف استئصال جذورنا لقذفنا فى الفراغ تحت شعار: ريادة المستقبل، جاعلين منا ساحة لتجربة النظريات والأفكار التى توضع فى مراكز الحضارة الحديثة فى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتى.

(۱۳۷)

مفاتيح البحث: على بن أبى طالب (۱)

صفحه ۱۱۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۳۸

نقول هذا داعين إلى إعادة النظرة فى هذا النهج لمصلحة نهج آخر أقل غلوا، وأكثر واقعية، وأوثق صلة بتكويننا العقيدى والحضارى والثقافى، وأشد مواءمة لمصالحنا فى الحاضر والمستقبل، وأوفق بدورنا الذى نطمح إلى استعادته لنساهم به فى إنقاذ الإنسان الحديث بتقويم الحضارة الحديثة، وتصحيح مسارها نحو وضعية ملائمة لتكوين الإنسان.

* لقد كانت سياسة أمير المؤمنين على (ع) - كما سنرى وجوها منها فى الفصول التالية..

محكومة بهاجس واحد كبير ونبيل: تكوين الإنسان المسلم المتكامل القوى السعيد، والمجتمع المسلم المتكامل القوى السعيد، الإنسان والمجتمع المؤهلين ليكونا قوة خيرة فى العالم، يمثلان طموح الإنسانية الدائم المتوهج نحو مثل أعلى.

وقد كانت، لذلك سياسة لا تستمد مقوماتها من الحفاظ على الذات وعلى مصالح الحاكم وأسرته، فلقد كانت أسرة أمير المؤمنين

على أكثر الناس حرمانا من خيرات حكمه، وكان هو عليه السلام أكثر حرمانا من أسرته.

وكانت سياسته تستضئ بنور الفكر، وتستهدى تعليم الله، وتنفلق من قيم الأخلاق والمناقب التى تشرف الإنسان، ولذا فقد كانت سياسة الإمام إنسانية بكل ما لهذه الكلمة من محتوى.

لم تكن أبدا سياسة الأفعال وردود الأفعال، وحسابات الأرباح والخسائر للحاكم وآله وبطانته ... هذه السياسة التى تحمل روح الطيش والغريزة، وتوجه بعقلية مزيج من روح الغاية وروح التجارة.

وقد كان أمير المؤمنين على فى سياسته أمينا لعقيدته، أمينا لشريعته، فلا ينحرف عنهما أبدا، ولا يتجاوزهما – كما لا يقصر عنهما – فى أمر من الأمور أو فى حالة من الحالات.

أمينا لأخلاقياته القرآنية – النبوية، ولذا فقد جعل من العمل السياسى ممارسة رفيعة للمناقب، أمينا لمجتمعه، فيشركه فى اتخاذ القرارات بعد أن يبصره بعواقب سوء الإختيار:

(۱۳۸)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۳)

صفحه ۱۱۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۳۹

...ولقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا ۱ ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم! قاتلهم الله! قد يرى الحول القلب ۲ وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة ۳ له فى الدين ۴.

وقال فى موقف آخر:

والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ۵ والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا استغمز ۶ بالشديدة ۷.

* وبعد هذا التمهيد، كيف تعامل أمير المؤمنين على بن أبى طالب مع التاريخ فى مجال تعليمه السياسى.

(۱) الكيس: الفطنة والذكاء.

(۲) الحول القلب: هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها.

(۳) الحريجة: التحرج والتحرز من الآثام.

(۴) نهج البلاغة – الخطبة رقم: ۴۱.

(۵) حديث مروى عن النبى (ص).

(۶) لا أستغمز على البناء للمجهول – لا يستضعفنى الرجل القوى. والغمز – بفتح الميم – الرجل الضعيف.

(۷) نهج البلاغة – رقم النص: ۲۰۰.

(۱۳۹)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، يوم القيامة (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، الجهل (۱)

صفحه ۱۱۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۴۱

۱ - حركة التاريخ فى مظهر التفاعل الاجتماعى الثورى البشر يتحركون دائما فى الزمان والمكان: يبدعون، ويتواصلون بالتجارة والصداقة تارة، وبالعداوة والحرب تارة، وبالفكر دائما.

ويتعاملون مع الطبيعة دائما. يكيفونها ويتكيفون معها، ويحبونها ويهربون منها فى بعض الأحيان.

وهم يواجهون الإخفاق وخيبات الأمل فى حالات، ويسعدون بنشوة النصر فى حالات أخرى.

ويشلهم اليأس عن الحركة فى بعض الحالات، ولكن سرعان ما يؤجج الأمل فى التقدم والمستقبل الأفضل فى قلوبهم جذوة الرغبة فى التغيير فيعودون إلى الحركة من جديد.

وهكذا يصنع البشر تاريخهم باستمرار. ينسجونه خيطا فخيطا، ويبنونه ذرة فذرة من ملايين الآمال الصغيرة، والمخاوف الصغيرة، والأحقاد الصغيرة، والشهوات الصغيرة، التى تنكر لهم كلها وتتراكم فتتكون منها عجينة التاريخ.

ولكنها لن تكون تاريخا ما لم تأخذ قواما معينا وما لم تتشكل بهيئة معينة ... ما لم تتضمن فكرة تغيير، وروح تغيير، وعزيمة تغيير، تجعل من آحاد الآمال والمخاوف والأحقاد والشهوات التى تبلغ الملايين شيئا واحدا كبيرا تنبض فيه روح واحدة تلف بوهجها كل المجتمع والجماعة، وتدفع بهم - لا فى طريق الحركات الأحادية المبعثرة - فى طريق حركة متدفقة هادرة، تحدوها رؤيا واحدة أو رؤى متقاربة تلتقى على التغيير. حينئذ تنشط حركة التاريخ التى كانت هادئة أو أمينة، وتتعاظم، وتلد الأحداث الكبيرة، وتدخل المجتمع والجماعة فى منعطف من التاريخ جديد.

(۱۴۱)

مفاتيح البحث: اليأس (۱)

صفحه ۱۱۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۴۲

قد يتم هذا التفاعل فى حال السلم والاستقرار الاجتماعى فتكون الفترة الزمنية التى يستغرقها التغيير - بعد فترة الإعداد والاختمار - طويلة نسبيا، لأن التغيير التاريخى يتم فى هذه الحالة وفقا لمعادلات السلم والاستقرار التى تجعل الإنسان أكثر أناة وتؤدة فى حركته، وأكثر قدرة على الإختيار.

وقد يتم هذا التفاعل فى حال الغليان الاجتماعى والقلق العام. فى هذا الحال تنشأ ظاهرتان:

الأولى - ظاهرة رفض وتمرد فى الجماهير، يغذيها ويؤججها اليأس من العدالة الرسمية، وينعشها الأمل فى مستقبل أفضل لهذه الجماهير يتوصل إليه دعاة التغيير.

الثانية - تقابل الأولى وتتولد منها، وهى إجراءات القمع التى تلجأ إليها السلطة الرسمية من أجل أن تضمن سيادة وثبات نظامها وقيمها.

إن هذا القمع يعزز روح اليأس والغضب، ويدفع إلى مزيد من التمرد والرفض، ويرص - بدرجة أعلى من الصلابة والتماسك - ملايين الآمال والمخاوف والأحقاد والشهوات، ويؤجج روح الغضب، ويدفع الجماهير، أكثر فأكثر، نحو العنف باتجاه التغيير.

فى هذه الحالة تقصر نسبيا، الفترة الحاسمة التى يستغرقها التغيير - بعد فترة الإعداد والاختمار -.. إن الأحداث تتسارع، ويتعاظم حجمها، وتتسع مساحة الفئات الاجتماعية التى تشارك فيها، وتتصاعد إلى أن تبلغ الذروة التى ينهار عندها العهد التاريخى الذى كان سائدا، ويدخل المجتمع فى منعطف من تاريخه جديد.

* إذن البشر لا يتوقفون عن صنع التأريخ، لكنهم قد يصنعون تاريخهم فى حال السلم، وقد يصنعونه فى حال الغليان والتوتر الاجتماعى، كما قد يصنعونه بالحرب.

وقـد لاحظ الإمام علی علیه السـلام حرکـة التاریـخ فی مظهرها الثانی لأن الظروف السائـدة فی مجتمعه کانت تدفع بهذا المجتمع نحو هذا المسار الدامی فی مواجهة مستقبله المکفهر، الحافل بالأنواء.

*(۱۴۲)

مفاتیح البحث: الإمام أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب علیهما السلام (۱)، الغضب (۲)، الیأس (۲)، الرفض (۱)

صفحه ۱۱۷

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۴۳

لقد تسببت أخطاء الحکم فی عهد الخلیفة عثمان بن عفان فی خیبة آمال فئات واسعة من المسلمین وغضبها. کما تسببت - إلی جانب ذلـک - فی انبعـاث کثیر من القیم والأخلاـق والمطامـح الجاهلیـة التی نشـطت للعمل من خلال ممثلیها ورموزها فی قمـة السـلطة فی مجالات السیاسة والاقتصاد والاجتماع. وقد أدی انبعاث هذه القیم الجاهلیة إلی تعارض فی المصالح بین ممثلی هذه القیم وبین أکثریة المسلمین الذین کانت تغتذی نفوسهم بالآمال التی تولدها قیم الإسلام فی العدالة الخالصة والمساواة ... هذا التعارض المأساوی الذی ما فتئت تغذیه أخطاء الحکم وسیاسات الرموز الجاهلیة العائدة، فتعمقه، وتزیده حدة، وتدفع به إلی مزید من الاتساع والانتشار.

وقـد تراکم کل ذلک علی مـدی سـنین، واتسع إلی أن شـمل حواضـر الدولة کلها. وأدی فی النهایة إلی عاقبته الوخیمة وثمرته المرة: ثورة شارک فیها الأغنیاء والفقراء، الساخطون بلا حقـد والحاقـدون من علیة القوم. وأدت الثورة إلی مقتل الخلیفة عثمان، وإلی دخول المسـلمین فی منعطف من تاریخهم جدید طلبوا من علی بن أبی طالب أن یقودهم فیه، ولکنه رفض طلبهم، لأنه أدرک - وهو الراعی للتاریـخ وأفـاعیله وآلیـة حرکته - أن حجم الحاجـات التی یفتقر إلیها الناس والآمال التی تعمر قلوبهم أکبر بکثیر من حجم الإمکانات التی توفرها مؤسسات الدولة، وأن حجم المعوقات التی یمثلها رموز العهد الماضی وقواه التی شلتها الثورة فاضطرت إلی الانکماش... حجم هذه المعوقات کبیر وخطیر، لأنها مستشریة فی جمیع مراکز السلطة، وقد قال لهم معلنا رفضه:

دعـونی والتمسـوا غیری، فإنـا مسـتقبلون أمرا له وجوه وألوان، لاـ تقوم له القلوب، ولاـ تثبت علیه العقول ۱. وإن الآفاق قـد أغامت ۲، والمحجة قد تنکرت ۳. واعلموا أنی إن أجبتکم

(۱) لا تقوم له القلوب: لا تجرئ علیه. لا تثبت علیه العقول: لا تکاد تفهمه وتحققه، یومئ بذلک إلی المشکلات الاجتماعیة والأزمات التی عصفت بالمجتمع کله.

(۲) أغامت: حجبها الغیم، کنایة عن صعوبة إیجاد الحلول المقبولة من الجمیع.

(۳) المحجة: الطریقة الواضحة - وتنکرت: التبس أمرها علی الناس.

(۱۴۳)

مفاتیح البحث: الخلیفة عثمان بن عفان (۲)، علی بن أبی طالب (۱)، الجهل (۲)، القتل (۱)، الوسعة (۱)، الرفض (۱)

صفحه ۱۱۸

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۴۴

رکبت بکم مـا أعلم، ولم أصغ إلی قول القائـل وعتب العاتب، وإن ترکتمونی فأنا کأحـدکم، ولعلی أسـمعکم وأطوعکم لمن ولیتموه أمرکم، وأنا لکم وزیرا، خیر لکم منی أمیرا ۱.

وقد ذکر الإمام، فیما بعد، بموقفه هذا فی مناسبات کثیرة، منها قوله فی کلام له عند خروج طلحة والزبیر علیه:

فأقبلتم إلی إقبال العوذ المطافیل علی أولادها ۲، تقولون: البیعة البیعة!!

قبضت كفى فبسطتموها، ونازعتكم يدى فجاذبتموها ۳.

ومنها قوله لطلحة والزبير أيضا:

والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة، ولا فى الولاية إربة ۴، ولكنكم دعوتمونى إليها، وحملتمونى عليها ... ۵.

وقال فى موقف آخر:

...وبسطتم يدى فكففتها، ومددتموها فقبضتها. ثم تداككتم على ۶ تداك الإبل الهيم ۷ على حياضها يوم وردها، حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير ۸، وتحامل نحوها العليل، وحسرت ۹ إليها الكعاب ۱۰.

(۱) نهج البلاغة - رقم النص: ۹۲.

(۲) العوذ المطافيل: الإبل والضباء ذات الأولاد، وهى جمع عائذة، ومطفل كناية عن اللهفة التى توجهوا بها إليه طالبين منه قبول بيعتهم، كما اللهفة التى تقبل بها أم الطفل على ولدها.

(۳) نهج البلاغة - رقم النص: ۱۳۷.

(۴) الإربة: الغرض والرغبة.

(۵) نهج البلاغة - رقم النص: ۲۰۵.

(۶) التداك الازدحام - تصوير لحالهم فى الإقبال على البيعة.

(۷) الهيم: العطاش: تصوير لرغبتهم العارمة فى إنجاز البيعة.

(۸) الهدج: مشى الضعيف. بيان لإقبال الجميع على البيعة، حتى أولئك الذين لهم من سنهم العالية أو مرضهم عذر يعفيهم من مشقة التزاحم على البيعة.

(۹) الكعاب: جمع كاعبة: الفتاة ينهد ثدياها. وحسرت كشفت عن وجهها كناية عن إقبال الناس جميعا وفرحتهم بالبيعة.

(۱۰) نهج البلاغة - رقم النص: ۲۲۹.

(۱۴۴)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۴)

صفحه ۱۱۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۴۵

لماذا أبى على بن أبى طالب أن يستجيب ؟...

لعله كان يأمل أن يمر المجتمع - بعد ما أصاب علاقاته من اهتزاز وتشويه فى العهد الماضى - فى مرحلة انتقال يقوده فيها رجال لا تتألب عليهم مراكز القوى الجديدة التى تمثل قيم الجاهلية...

ولكن تيار الرغبة كان عارما، كما تعكسه لنا النصوص الآنفة الذكر، ولم يكن من الممكن تحويل ولاء الجماهير وثقتها إلى بديل. لقد كان الرفض يعنى الكارثة، لأن القوى الجاهلية كانت قادرة - إذا استمر الفراغ فى السلطة - أن تعود من جديد بعد أن تكتل قواها المبعثرة، وحينئذ يحرم المجتمع الإسلامى حتى من تجربة تكون فى المستقبل نموذجا وملهما...

ولا نعدم فى نهج البلاغة نصوصا تضئ هذه المسألة، وتوحى بقوة أن الإمام كان يفكر على هذا النحو، وذلك كقوله فى كلام له عنونه الشريف الرضى ب ... يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحق:

...اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان، ولا التماس شئ من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك

ونظهر الإصلاح فى بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك ١.

وقوله فى كتاب منه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها:

...ولكننى آسى ٢ أن يلى ٣ أمر هـذه الأمـة سـفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولا وعباده خولا ٥ والصالحين حربا ۶، والفاسقين حزبا ... ٧.

(١) نهج البلاغة – رقم النص: ١٣١.

(٢) آسى: أحزن – الماضى منه: أسيت بمعنى حزنت.

(٣) يلى: يكون واليا وحاكما على الأمة.

(۴) دولا: جمع دولة، يعنى: لئلا يكون المال العام بأيدى السفهاء والفجار يتداولونه بينهم لمصالحهم مهملين مصالح الأمة فيه. والعبارة تومئ إلى قول الله عز وجل (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم – سورة الحشر – الآية ٧).

(۵) خولا: عبيد، يعنى لئلا يستعبدوا الناس ويذلوهم.

(۶) حربا – أعداء يحاربونهم.

(٧) نهج البلاغة – باب الكتب – رقم النص: ۶٢.

(١۴۵)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (٣)، على بن أبى طالب (١)، مالك الأشتر (١)، الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين (١)، الجهل (٢)، سورة الحشر (١)

صفحه ۱۲۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ١۴۶

وهكذا استـجاب على بن أبى طالب للرغبات الملحة المتلهفة، فقبل كارها – على ما يبدو – أن يتولى السلطة ويقود الأمة. وقد تبلورت وتحددت باستجابته وتوليه للسلطة ثلاث قوى سياسية – فكرية، هى:

١ – النهج الإسلامى الصافى النبوى: تمثله السلطة الشرعية (الخلافة) وعلى رأسها أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع).

والهـدف الآنى المباشـر والملـح لهذا النهج كان تصـحيح الأوضاع السياسـية والإدارية والاقتصادية فى المجتمع الإسـلامى الذى يتطلع بلهفة إلى تغييرات تحقق آماله. كما كان هذا الهدف يستبطن هدفا آخر هو إعادة الاعتبار النظرى والعملى للمفاهيم والقيم الإسلامية.

٢ – النهج الجاهلى المموه بالإسـلام: وقد كان هذا النهج يتمتع بسلطة واسعة وثابتة فى المنطقة السورية. وكانت له جيوب فى الحجاز، والعراق، ومصر، وغيرها من بلاد الإسلام.

وقـد بـدا منـذ اللحظة الأولى أن قائـد هـذا النهـج هو معاويـة بن أبى سـفيان، والهـدف الآنى والنهائى لهـذا النهـج هو تثبيت الأوضاع القديمة، وإجهاض النهج النبوى أو قمعه بإثارة المشاكل والفتن فى وجهه.

إنه الثورة المضادة. إنه قطع الطريق على حركة التغيير.

.. وقد عبر الإمام عن قادة هذا النهج بأنهم أرادوا رد الأمور على أدبارها وذلك فى كلام له عن أصحاب الجمل:

إن هؤلاء قد تمالأوا ١ على سخطة ٢ إمارتى، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، فإنهم إن تمموا على فيالـة ٣ هذا الرأى انقطع نظام المسلمين، وإنما طلبوا هذه الدنيا حسدا لمن

(١) تمالأوا: تواطأوا واتفقوا وتعاونوا.

(٢) السخطة: البغض والنعرة.

(۳) فيالة الرأى: ضعفه وسخفه.

(۱۴۶)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، معاوية بن أبى سفيان لعنهما الله (۱)، دولة العراق (۱)، على بن أبى طالب (۱)، الهدف (۱)، الوسعة (۱)

صفحه ۱۲۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۴۷

أفاءها ۱ الله عليه، فأرادوا رد الأمور على أدبارها. ولكم علينا العمل بكتاب الله، تعالى، وسيرة رسول الله (ص)، والقيام بحقه، والنعش ۲ لسنته ۳.

۳ - الموقف المتردد الحائر - إذا صح أن يسمى التردد موقفا -.

وتمثل هذا الموقف بعض القيادات الثانوية: (سعد بن أبى وقاص، عبد الله بن عمر..

وآخرون).

هـذا النهج لم يبلغ من الصـفاء والوعى درجة تحمله على أن ينضوى فى النهج النبوى وكانت مصالح رجاله من جهة وأثارة من التقوى فى أنفس بعضـهم من جهـة أخرى، قـد حملتا هؤلاء الرجال على التزام جانب الحيطـة والحـذر من النهـج الجاهلى فلم ينحازوا إليه فى هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قد والى النهج فى النهاية.

هؤلاء قال عنهم الإمام (ع):

خذلوا الحق، ولم ينصروا الباطل ۴.

ولما قال له الحارث بن حوط: أترانى أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ قال له الإمام:

يا حارث إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت ۵، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه.

فقال له الحارث بن حوط: فإنى أعتزل مع سعيد بن مالك وعبد الله بن عمر...

فأجابه الإمام قائلا:

إن سعيدا وعبد الله بن عمر لم ينصروا الحق، ولم يخذلا الباطل ۶.

(۱) أفاءها الله.. أرجعها إليه، من فاء بمعنى رجع.

(۲) النعش، من نعش ينعش: بمعنى رفع السنة إلى مقام العمل والتطبيق.

(۳) نهج البلاغة - رقم النص: ۱۶۹.

(۴) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم: ۱۸.

(۵) حرت: من حار أى تحير.

(۶) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم: ۲۶۲.

(۱۴۷)

مفاتيـح البحث: الرسول الأكرم محمـد بن عبد الله صـلى الله عليه وآله (۱)، عمر بن سـعد لعنه الله (۱)، عبـد الله بن عمر (۳)، سعيد بن مالك (۱)، الباطل، الإبطال (۳)، الضلال (۱)، كتاب نهج البلاغة (۳)

صفحه ۱۲۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٤٨

وكان بعض ممثلى هـذا الموقف يتمتعون باحترام محدود فى قواعدهم القبلية، وهذا الاحترام لم ينبع من ولاء فكرى بل من ولاء قبلى، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين نابع من صحبتهم للنبى (ص) ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية.

* وقد أدرك الإمام منذ اللحظة الأولى صعوبة موقفه، فكشف للأمة عن أن حركة التاريخ قد عادت ذات نبض جاهلى، فقد عاد التاريخ السابق على النبوة.. كما صارح الأمة بأن المواجهة مع القيم البائدة العائدة تقتضى الحكم بأن يكون قويا وصارما ... كما صارحهم بأن الآمال فى تغيير سريع وكامل نحو الأفضل ينبغى أن تتضامن قليلا ليتاح للسلطة الشرعية أن تواجه قوى الجاهلية بمرونة.

هذه الرؤية السياسية عبر عنها الإمام فى خطبة خطبها فى أول خلافته، فى المدينة، أو هى - حسب رواية الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين عن أبى عبيدة معمر بن المثنى - أول خطبة خطبها بالمدينة، قال فيها حسب رواية الجاحظ عن أبى عبيدة:

ألا لا يرعين مرع على نفسه ١ شغل من الجنة والنار أمامه. ساع مجتهد ينجو، وطالب يرجو، ومقصر فى النار...

اليمين والشمال مضلة، والوسطى الجادة ٢ منهج عليه باقى الكتاب والسنة وآثار النبوة. إن الله داوى هذه الأمة بدوائين: السوط والسيف، لا هوادة ٣ عند الإمام فيهما. استتروا فى بيوتكم ٤ وأصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم. من أبدى صفحته للحق هلك ٥ ...انظروا: فإن أنكرتم فأنكروا، وإن عرفتم فآزروا ... وقلما أدبر شئ فأقبل. ولئن رجعت

(١) لا يرعين.. أى لا يبقين، أرعيت عليه أى أبقيت: يقول: من سالم وهدأ فإنما سلم نفسه وأبقى عليها.

(٢) الجادة: الطريق المستقيمة الواضحة.

(٣) الهوادة: الرفق والصلح، وأصله اللين.

(٤) استتروا فى بيوتكم: لا يريد منع التجول كما يقولون فى أيامنا، وإنما يريد النهى عن التجمعات ذات الطابع التحزبى القبائلى التى تدفع إليها العصبية القبلية كما إنه لا ينهاهم عن النقد السياسى لأنه قال (فإن أنكرتم فأنكروا).

(٥) الصفحة: جانب الوجه، أو هى الوجه. يريد الإمام أن من تعرض للحق بمخالفته وتجاوزه يهلك، لأنه سيعاقب.

(١٤٨)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (١)، الجهل (١)، الهلاك (٢)، صلح (يوم) الحديبية (١)، المنع (١)

صفحه ۱۲۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٤٩

إليكم أموركم إنكم لسعداء وإنى لأخشى أن تكونوا فى فترة، وما علينا إلا الاجتهاد ... ١.

حذرهم، أولا، من إثارة القلاقل والاضطربات.

ثم أثار فى عقولهم وقلوبهم عقيدة البعث واليوم الآخر.

ثم بين لهم أن الإنحراف عن منهج الكتاب والسنة إلى اليمين أو إلى الشمال يؤدى بصاحبه إلى الضلال والتيه، ولذا فإن نبض الجاهلية العائد ضلال.

ثم كشف لهم عن أن المرحلة تقتضى الحكم أن يكون صارما (السوط والسيف)، ولذا، فإن على الناس ألا يخوضوا فى أى شأن يزيد الوضع سوءا بإثارة العصبيات القبلية والنزعات العشائرية، داعيا إياهم إلى أن يكفوا ويتوبوا عما سلف منهم من إفساد.

ثم أعطاهم حق الرقابة، وطالبهم بحقه فى تأييدهم ومؤازرتهم.

ثم أبدى تشاؤمه من المستقبل وشكه فى عودة النهج النبوى إلى سابق قوته (قلما أدبر شئ فأقبل)، ولكنه، مع ذلك، لم يفقد الأمل فى تحسن الأوضاع، (لئن رجعت إليكم أموركم إنكم لسعداء).

ثم حذرهم من أن على الآمال المشرقة فى التغيير نحو الأحسن ... نحو النهج النبوى الصافى، أن تضامن نفسها، وأن يعود أصحابها إلى شئ من الواقعية فى تطلعاتهم...:

وإنى لأخشى أن تكونوا فى فترة.

قال ابن أبى الحديد فى شرح هذه الفترة:

الفترة هى الأزمنة التى بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها، كالفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله، لأنه لم يكن بينهما نبى، بخلاف المدة التى كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام لأنه بعث فيها أنبياء كثيرون. فيقول عليه السلام: إنى لأخشى ألا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم، فتكونوا

(۱) ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ۱ / ۲۷۵ – ۲۷۶. ورواها الشريف الرضى فى نهج البلاغة بتغيير بعض العبارات، انظر الخطبة رقم ۱۷۶: ومن خطبة له عليه السلام فى الشهادة والتقوى وقيل: إنه خطبها بعد مقتل عثمان فى أول خلافته.

(۱۴۹)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، النبى عيسى بن مريم عليهما السلام (۱)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۲)، البعث، الإنبعاث (۱)، الضلال (۲)، الجهل (۱)، كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (۱)، الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين (۱)، القتل (۱)

صفحه ۱۲۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۵۰

كالأمم الذين فى أزمنة الفترة لا يرجعون إلى نبى يشافههم بالشرائع والأحكام.

وكأنه عليه السلام كان يعلم أن الأمر سيضطرب عليه.

ثم قال: (وما علينا إلا الاجتهاد) يقول: أنا أعمل ما يجب على من الاجتهاد فى القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين، فإن تم ما أريده فذاك، وإلا كنت قد أعذرت ۱.

* إن الإمام عليه السلام قبل الحكم، إذن، بمزيج من التشاؤم والأمل، ولكن سرعان ما تسرب الذبول إلى شعلة الأمل، فإن القوى المترددة سرعان ما أخذت تنحاز رويدا رويدا نحو المعسكر المناهض للنهج النبوى، إن لم يكن فى العلن ففى السر ... هذا من جهة، ومن جهة أخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التغيير تضغط فى سبيل التغيير دون أن تقدر ظروف المرحلة. وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيوية لئلا ينفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوى موالية للنهج النبوى، ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثورة المضادة.

* وهكذا، فبعد الصدمة التى شلت قوى الثورة المضادة، وبعد فترة الانتظار التى مرت بها الفئات الأخرى من الأمة، تفجر الموقف من جديد، وعاد الغليان إلى المجتمع، وعادت حالة الإختلاط والاضطراب المحمومة.

وظهرت للإمام على فى هذه المرحلة التى بلغت فيها أزمة الحكم وأزمة الفكر الذروة – ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تاريخ المستقبل للأمة الإسلامية حافلا بالأهوال والمآسى، وبكل ما فيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، فى بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة، وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى، رأى بحدس يضيئه نور نبوى، وعقل مستوعب لحركة التاريخ وآليتها

(۱) المصدر السابق: ۱ / ۲۸۱.

(۱۵۰)

صفحه ۱۲۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵۱

التى تكاد أن تكون رياضية - رأى الفتنة آتية بكل ظلامها، وحيلها، وتلبيسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الردة بقيمها الجاهلية، بلبسها للإسلام (لبس الفرو مقلوبا).

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدماء من ضحاياها، وأحس بأعمق أعماق كرامته الإنسانية ذل الإنسان المسلم فى مجتمع الردة، وبكى بحرارة ومرارة لكل ما سيصيب الناس بعده.

ورأى بعد ذلك نار الثورة تحرق كل شئ، وتهدم كل شئ، تستلهم حق الناس ومرارتهم ... ولكنها ثورة تقع فى أخطاء الفتنة فى أحيان، وفى مهاوى الردة فى أحيان، وقلما تهتدى الطريق الوسطى...

ورأى أخيرا، فى البعيد البعيد ... بعد طول عذاب وعناء، نور الأمل الآتى فى النهاية ... نور الخلاص.

(۱۵۱)

مفاتيح البحث: الظلم (۱)، الجهل (۱)

صفحه ۱۲۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵۳

۲ - الفتنة فتنة: تعبير قرآنى يدل، حين يسند إلى الله تعالى ويصدر عنه، تارة على الإختبار والامتحان الربانى بالنعمة، ومن هذا ما ورد فى قوله تعالى:

واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ۱ أو يدل فى موارد أخرى على الإختبار والامتحان الربانى بالمصاعب والشدائد، ومن هذا ما ورد فى قوله تعالى:

أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ۲ وهذه الفتن ذات وظيفة تربوية تعزز صلابة المؤمنين، وترفع درجة وعيهم، وتميز عنهم الدخلاء والمنافقين.

هذا التعبير القرآنى ذو المضمون التربوى الإيجابى، غدا عند الإمام على مصطلحا سياسيا - تاريخيا ذا مدلولات متنوعة يتصل بالحركة التاريخية للمجتمعات فى الحاضر وفى المستقبل.

وهو ذو مدلول سلبى بالنسبة إلى حركة التقدم النبوية.

إن الفتنة عند الإمام - باعتبارها ظاهرة سياسية - معوق لحركة التقدم، ونكسة فى

(۱) سورة الأنفال (مدنية - ۸) الآية: ۲۸ - ووردت آية أخرى مماثلة فى سورة التغابن _ مدنية - ۶۴) الآية: ۱۵.

(۲) سورة العنكبوت (مكية - ۲۹) الآية: ۲ - ۳.

(۱۵۳)

مفاتيح البحث: سورة الأنفال (۱)، سورة التغابن (۱)، سورة العنكبوت (۱)

صفحه ۱۲۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵۴

سير حركة النبوة، وهى، والحال هذه، ليست من صنع الله تعالى، وإنما هى من صنع البشر.

* قسم الإمام الفتنة إلى قسمين:

أحدهما: الفتنة بالمعنى القرآنى التربوى، واعتبر أن الفتنة بهذا المعنى ذات دور إيجابى، بشرط أن تكون استجابة الإنسان لها بروح إيمانى ملتزم، ووعى أخلاقى مسؤول، ولذا فلا معنى للاستعاذة بالله من الفتنة بهذا المعنى فإن ذلك سخف، لأنها تلازم طبيعة الحياة ووجود الإنسان، فلا توجد حياة مكتملة دون أن توجد معها فتنة بهذا المعنى.

وثانيهما: الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسية، وهذه هى الفتنة التى يحذر منها ويستعاذ منها، وهى التى أعطاها الإمام فى تعليمه الفكرى مدلولاتها السياسية - التاريخية.

وسماها (مضلات الفتن).

وقد شرح الإمام ذلك بقوله:

لا يقولن أحدكم: اللهم إنى أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضى بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التى بها يستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث، وبعضهم يحب تثمير المال ويكره انثلام الحال ۱.

* وليس من أهداف هذه الدراسة البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحا تربويا، وإنما الهدف منها هو البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحا سياسيا - تاريخيا، فلنر فيما يأتى تقسيم الإمام لها باعتبارها ظاهرة سياسية، وتحليله لآلية حركتها: كيف تبدأ

(۱) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص: ۹۳.

(۱۵۴)

مفاتيح البحث: الهدف (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۲۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵۵

وتنمو وتنتشر، وتوجيهه فى شأن الموقف الذى ينبغى اتخاذه حين تقع. ولنر دور على فى مواجهة الفتنة التى بدأت طلائعها فى عهده، وأخيرا رؤيته لفتنة بنى أمية بعده.

* يبدو من تحليل النصوص التى اشتمل عليها نهج البلاغة بشأن الفتنة والمقارنة بينها أن ثمة ثلاثة أنواع من الفتن:

۱ - الفتنة الشاملة.

۲ - الفتنة العارضة.

۳ - الفتنة الغالبة.

وهذه التسميات وضعناها نحن، ولم ترد فى كلمات الإمام على، على ضوء ما لاحظناه عن اتساع المساحة الفكرية التى تطبعها الفتنة بطابعها، وتؤثر بالتالى على الوضعية السياسية والعلاقات الاجتماعية والإنسانية داخل المجتمع.

أ - الفتنة الشاملة تكون الفتنة شاملة حين تكون نظاما فكريا يسود مجتمعا من المجتمعات ذات الحضارة أو البدوية - الرعوية،

فالحضارة التى تقوم الحياة فيها على قيم الضلال فى الفكر والأخلاق والضياع، وتبنى مؤسساتها السياسية والاجتماعية على الاعتبارات التى تنشأ من هذه القيم، وتحكم المجتمع السياسى فيها علاقات فاسدة ... هذه الحضارة تكون فتنة شاملة تصل إلى كل إنسان، وتنشر ظلالها خارج حدودها. إنها الجاهلية قديمها وحديثها فى ذلك سواء.

وكذا الحال فيما إذا كان نظام فكرى كهذا يكون روح وعقل مجتمع بدوى - رعوى، لم يبلغ مرحلة الحضارة ذات الإنجازات فى مجال التعامل مع الطبيعة والمؤسسات التنظيمية.

وقد صور الإمام عليه السلام هذه الفتنة الشاملة فى حديثه عن حال العالم، والعرب بوجه خاص - قبل بعثة رسول الله (ص) قال: (۱۵۵)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، بنو أمية (۱)، الجهل (۱)، الضلال (۱)، البعث، الإنبعاث (۱)

صفحه ۱۲۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵۶

...وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور ... والناس فى فتن انجذم ۱ فيها حبل الدين، وتزعزعت سوارى اليقين ۲ واختلف النجر ۳ وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل. عصى الرحمان، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان فانهارت دعائمه وتنكرت معالمه، ودرست سبله ۴ وعفت شركه ۵، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله ۶، بهم سارت أعلامه وقام لواؤه، فى فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها ۷ وقامت على سنابكها ۸، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، فى خير دار وشر جيران. نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم ۹.

فى هذا النص فصل الإمام على نظرته إلى نموذج من نماذج الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسية لمجتمع ما.

والسمات التى تميز الفتنة الشاملة فيما يفيده هذا النص هى:

۱ - مجتمع لا يحكمه نظام أخلاقى، وخال من الحياة الروحية السليمة. وهذا لا ينفى أن يتمتع المجتمع المذكور بنظام سياسى.

وهذه السمة يدل عليها قول الإمام انجذم فيها حبل الدين فالمجتمع منقطع الصلة بالوحى، ومن ثم فهو لا يتمتع بنظام روحى وأخلاقى.

۲ - مجتمع تسيطر على أفراده وفئاته روح الشك. ويتبع فيه - فى مجال القيم - المقياس الذاتى، لأنه لا يتمتع بمقياس موضوعى نتيجة لخلوه من النظام الأخلاقى والحياة الروحية.

(۱) انجذم: انقطع.

(۲) السوارى: جمع سارية، وهى الدعامة.

(۳) النجر: الأصل.

(۴) درست: انطمست.

(۵) عفت شركه: عفت: انمحت، وشركه جمع شراك: الطريق.

(۶) المناهل: جمع منهل، هو مورد النهر.

(۷) الخف للبعير: والظلف للبقر والشاء: كالقدم للإنسان.

(۸) السنابك جمع سنبك: طرف الحافر.

(۹) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۲.

(۱۵۶)

مفاتیح البحث: النوم (۱)، کتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۳۰

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۵۷

وهذه السمة الثانیة یدل علیها قول الإمام فی النص الآنف تزعزعت فیها سواری الیقین.

۳ - مجتمع منقسم علی نفسه إلی شیع وأحزاب، تمزقه الصراعات والنزاعات وتجعله خالیا من روح التضامن والتکافل. ومن ثم فلا توجه حرکته آمال متحدة وهدف أخلاقی کبیر، وإنما توجهه الرغبات الفردیة والفئویة بسبب عدم وجود نظام أخلاقی من جهة، وانتشار روح الشک واتباع المقیاس الذاتی فی القیم من جهة أخری.

وهذه السمة یدل علیها قول الإمام واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج وعمی المصدر...

هذه هی السمات التی تمیز الفتنة الشاملة، وتطبع المجتمعات المفتونة بطابعها.

وما جاء من أوصاف للمجتمع فی الفقرات التالیة من النص الآنف هی نتائج لهذه السمات الثلاث الکبری: فقدان النظام الأخلاقی والحیاة الروحیة / شیوع روح الشک واتباع المقیاس الذاتی فی القیم / الانقسامات الطبقیة والفئویة والعائلیة، وعدم وجود هدف عظیم ونبیل یوجه حرکة المجتمع التاریخیة.

هذه هی الفتنة الشاملة.

وتسمیتنا لهذه الفتنة ب (الشاملة) ناشئ من ملاحظة أنها مستوعبة لکل المجتمع بحیث لا یخلو منها أی مستوی من مستویاته وأی مظهر من مظاهر الحیاة فیه، فهی روحه وعقله:

روحه الملهمة، وعقله الموجه.

ب - الفتنة العارضة الفتنة العارضة: عثرة تعترض سیر المجتمع أثناء حرکته التقدمیة فتشیع الحیرة والالتباس فی بعض المواقف، وتعرض بعض الأشخاص القیادیین وبعض فئات المجتمع لاختبارات حرجة، وتحفز بعض القیم القدیمة للتعبیر عن نفسها، ولکن قوة اندفاع المجتمع فی حرکته التقدمیة، وقوة المبادئ التی تحکم سیره فی قلوب وعقول أفراده - تحول بین الفتنة وبین أن تنتشر وتتعمق وتضرب بجذورها فی ثنایا المجتمع، فسرعان ما ینکشف وجه الحق فیها، وتذبل حرکتها، ویخفت صوت الداعین إلیها بین

(۱۵۷)

صفحه ۱۳۱

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۱۵۸

الناس، بل یغدون موضعا للنقد والتجریح، وتجف الروافد الرجعیة التی تمدها بالحیاة والحرکة، ویتعافی المجتمع من نکسته، ویخرج من التجربة أکثر وعیا ویقظة.

وقد مرت علی المسلمین فی عهد رسول الله (ص) بعض الفتن العارضة التی تجاوزوها، بتوجیه رسول الله (ص)، بنجاح، وخرجوا منها دون أن تؤثر علی حرکة المجتمع الإسلامی المندفعة إلی الأمام.

ولعل أشد هذه الفتن العارضة التی واجهت المجتمع الإسلامی فی عهد النبی (ص) خطورة کانت فتنة الإفک، فی سنة ست للهجرة، فی أعقاب غزو رسول الله (ص) والمسلمین لبنی المصطلق من خزاعة.

وقبل الإفک ما حدث أثناء العودة من الغزوة المذکورة، حین أدی تزاحم علی الماء فی بعض منازل الطریق بین أجیر لعمر بن الخطاب

من بنى غفار اسمه (جهجاه)، وبين أحد حلفاء الخزرج واسمه (سنان بن وبر الجهنى)، واقتتلا، فصرخ حليف الخزرج: يا معشر الأنصار وصرخ أجير عمر بن الخطاب يا معشر المهاجرين. ونشط المنافقون، وعلى رأسهم (عبد الله بن أبى سلول)، لاستغلال التوتر الذى ولده هذا النزاع البسيط بين المهاجرين والأنصار، وهدد ابن أبى سلول بأنهم إذا عادوا إلى المدينة (ليخرجن الأعز منها الأذل)، وكادت الفتنة أن تجرف كثيرين...

ولكن حكمة رسول الله (ص) قضت على الفتنة فى مهدها.

وأنزل الله فى شأن هذه الفتنة الصغيرة العارضة سورة المنافقين (رقم ۶۳ فى المصحف) فضح فيها نوايا المنافقين وأساليبهم، وجعل منها درسا تربويا إيمانيا وسياسيا للمسلمين عمق وعيهم، وزاد يقظتهم، وعزز صلابتهم أمام أساليب النفاق.

أما فتنة الإفك فكانت أشد خطورة وأوسع انتشارا.

لقد كانت مرتعا خصبا للمنافقين يوهنون من خلالها مقام رسول الله (ص)، ويشوهون سمعته، ويلقون ظلالا من الريبة على طهارة بيته، فى مجتمع يقوم على قيم صارمة فيما يتعلق بالطهارة الجنسية، بما يؤدى إليه الهمس الخفى فى شأن كهذا فى مجتمع كهذا من سخريات وظنون والإشاعات تضعف التأثير النفسى لتوجيهات رسول الله (ص).

(۱۵۸)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۷)، المهاجرون والأنصار (۱)، الخليفة عمر بن الخطاب (۲)، النفاق (۳)، الإخفاء (۱)، الوسعة (۱)، الطهارة (۱)

صفحه ۱۳۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۵۹

وما هو أشد خطورة فى دس المنافقين واستغلالهم للإمكانات التى يتيحها الإفك، هو أن الفتنة أدت إلى تصدع تلاحم المسلمين أنفسهم، حيث استغل زعماء قبيلة الأوس تورط بعض أفراد قبيلة الخزرج فى إشاعة الحديث عن الإفك، للتعبير عن أحقاد قبلية جاهلية تحت ستار الغيرة على رسول الله (ص)، والتمسك بأهداب الدين.

فقال رئيس الأوس (أسيد بن حضير) مخاطبا رسول الله (ص) حين وجه عتابا رقيقا للذين روجوا الإشاعة الكاذبة، دون أن يسمى أحدا: يا رسول الله: إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم.

فقال سعد بن عبادة زعيم الخزرج رادا عليه:

كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم. أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ...

فقال أسيد بن حضير:

كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين...

وتساور الناس ۱ حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ۲.

وهكذا وجدت القيم الجاهلية القديمة متنفسا تعبر به عن نفسها من خلال هذه الفتنة متسترة بشعارات إسلامية.

ولكن حكمة رسول الله (ص)، ووعى المجتمع، ورسوخ المبادئ والقيم الإسلامية فى نفوس النخبة حصرت الفتنة فى نطاق ضيق، وحالت دون تأثير فى إحداث تفاعلات سيئة بالنسبة إلى حركة التقدم النبوية. وجاء الوحى بعد ذلك فقضى على الفتنة، حيث أنزل الله تعالى فى هذا الشأن سورة النور (السورة رقم ۲۴ فى المصحف) وجعل منها درسا تربويا، ومناسبة لسن تشريعات تتعلق بالعلاقات بين الجنسين

(۱) تساور الناس: قام بعضهم إلى بعض ليتقاتلوا.

(۲) تراجع سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا ورفيقه (الطبعة الثانية) ۱۳۷۵ هجرى = ۱۹۵۵ م / القسم الثانى – ص: ۲۸۹ – ۳۰۷.

(۱۵۹)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۳)، يوم عرفة (۱)، سعد بن عبادة (۱)، سورة النور (۱)، النفاق (۲)، الجهل (۱)

صفحه ۱۳۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۶۰

داخل المجتمع الإسلامى، فى نطاق الزوجية – من حيث العلاقات الزوجية وغيرها – وخارج الحياة الزوجية.

* هذان نموذجان للفتنة العارضة فى المجتمع الإسلامى فى عهد رسول الله (ص) وقد واجه المجتمع الإسلامى بعد وفاة الرسول (ص) فتنة عارضة ذات طابع سياسى محض هى فتنة السقيفة.

وقد بدأت هذه الفتنة حين تجاوز بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وصية رسول الله (ص) بإسناد الخلافة بعده إلى الإمام على بن أبى طالب، لأنه كان الشخصية الإسلامية الوحيدة التى تجمعت فيها المواهب والمؤهلات التى جعلتها قادرة على قيادة الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله (ص).

وقد حسم النزاع على منصب الخلافة بين المهاجرين والأنصار، فى سقيفة بنى ساعدة ۱، بمعزل عن الإمام على بن أبى طالب، لمصلحة قبيلة قريش، بمبايعة الخليفة الأول (أبى بكر) على أثر مناورات سياسية استخدم فيها منطق قبلى، وكادت تؤدى إلى انشقاق خطير داخل المجتمع الإسلامى الوليد ۲.

وقد كان العامل الأكبر والأبعد أثرا فى التغلب على فتنة السقيفة وآثارها الخطيرة هو موقف على بن أبى طالب.

فقد كان الإمام على بمؤهلاته المتفوقة بشكل مطلق على نخبة الصحابة، وبمواهبه النادرة الفريدة، وبالنص عليه من رسول الله (ص) خليفة من بعده ... كان لذلك كله رجل الشرعية الإسلامية الأصيل.

وكان هذا الوضع الحقوقى المؤاتى بالنسبة إليه يخوله حق المعارضة، ونقض القرار والإنجاز الذى اتخذ خارج الشرعية فى اجتماع السقيفة، سعيا وراء حقه فى تسلم السلطة.

(۱) سقيفة بنى ساعدة، مكان مسقوف بسعف النخل فى المدينة (يثرب)، وكانت مجمع الأنصار بعد الإسلام، ودار ندوتهم لفصل القضايا وإجراء المناورات.

(۲) يراجع للمؤلف: نظام الحكم والإدارة فى الإسلام. كما يراجع للمؤلف أيضا: ثورة الحسين – ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية (الطبعة الخامسة) الفصل الأول.

(۱۶۰)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۴)، المهاجرون والأنصار (۲)، على بن أبى طالب (۳)، الخليفة أبو بكر بن أبى قحافة (۱)، السقيفة (۵)، الزوج، الزواج (۳)، الغلّ (۱)، الوصية (۱)، الوفاة (۲)، المدينة المنورة (۱)

صفحه ۱۳۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۶۱

ولكن هذا الوضع الحقوقى النظرى بالنسبة إليه، كان يواجه وضعا اجتماعيا وسياسيا واقعيا.

فمن ناحيهٔ كـان المجتمع الاسـلامى الوليـد لاـ يزال مجتمعـا هشا من حيث التلاحم الـداخلى الناشـئ عن العقيـدهٔ الواحـدهٔ، لأن القيم الجاهلية كانت لا تزال سائدهٔ فى الحياهٔ العامهٔ للقبائل التى دخلت فى الإسلام فى عام الوفود قبل وفاهٔ النبى (ص) بسنهٔ وأشهر – أو أقل من سـنهٔ بالنسـبهٔ إلى إسـلام بعض هذه القبائل – وكانت هذه القيم الجاهلية فى أحسن الحالات مستكنهٔ تحت قشرهٔ رقيقهٔ من الإسلام، وكان لا بد من مضى وقت طويل قبل أن تذبل هذه القيم الجاهلية وتفقد حرارتها وفاعليتها.

وفى حالهٔ كهذه كان أى عمل سياسـى يتسم بطابع العنف سـيؤدى فى الراجح إلى تصدع خطير فى بنيهٔ المجتمع الإسـلامى وتماسكه، وقد يؤدى إلى ردهٔ واسعهٔ النطاق فى أوساط حديثى العهد بالإسلام.

ومن ناحيهٔ أخرى كان فريق من القبائل قد ارتد فعلا عن الإسـلام، واتبع بعض أدعياء النبوهٔ، وغدا يشـكل تهديدا حقيقيا للإسلام حين انتشـرت ظاهرهٔ التنبؤ واتجه قادتها إلى تحالف يوحد قواهم، فسيطروا على اليمن تقريبا فى الجنوب، وعلى مساحات واسعهٔ من الحجاز ونجد فى الشمال.

وقـد اتجه الإمـام على إلى المعارضـهٔ والاحتجـاج أول الأـمر. ورفض الاعتراف بالنتيجـهٔ التى أسـفر عنها اجتماع السـقيفهٔ، واعتصم فى منزله، وبـدا بوضوح أن موقفه سـيثير تفاعلات خطيرهٔ فى وجه اختيار السـقيفهٔ داخل المدينهٔ وخارجها ... ولكن الإمام عليا سـرعان ما واجه الواقع السياسى والاجتماعى للمجتمع الإسلامى الوليد، والأخطار التى ربما تعرض لها الإسلام نفسه نتيجهٔ لهذا الموقف.

ولو لم يكن على بن أبى طالب رجل العقيـدهٔ الأول، ورجل الرسالـهٔ الأول، الأكثر وعيا والأعظم شـعورا بالمسؤوليـهٔ، لما ألقى بالا إلى الواقع السياسـى والاجتماعى للإسـلام، ولمضـى فى معارضـته إلى نهايتها، مسـتغلا الواقع السياسـى والاجتماعى فى سبيل نجاح مسـعاه للوصول إلى السلطهٔ.

ولكنه كان بالفعل رجل العقيدهٔ الأول، ورجل الرسالهٔ الأول، وأعظم المسلمين

(۱۶۱)

مفاتيـح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صـلى الله عليه وآله (۱)، على بن أبى طـالب (۱)، السقيفهٔ (۲)، الإختيار، الخيار (۱)، الجهل (۲)، الوسعهٔ (۱)، الوفاهٔ (۱)

صفحه ۱۳۵

التاريخ وحركهٔ التقدم البشرى ونظرهٔ الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحهٔ ۱۶۲

إطلاقا شعورا بالمسؤولية تجاه الإسلام، وأعظمهم حرصا على ازدهاره وانتشاره وتعمقه فى العقول والقلوب.

ومن المؤكـد أن الحكم عنـده لم يكن مطلبا شخصـيا، بل وسـيلهٔ إلى بلوغ غايـهٔ تتجاوز الأشـخاص والأجيال والمصالـح الخاصـهٔ لتعم وتشمل ما بقى من عمر الدنيا، وما تضمره القرون المقبلهٔ من أجيال فى كل الأوطان وفى كل الأمم.

إن عليـا، بعـد رسول الله (ص) – كـان أب الإسـلام. وقـد تصـرف تصـرف الأب الحريص، فتحمل بصبر جميل نبيل جراحه الشخصـيهٔ وحرمانه فى سبيل قضيهٔ حياته الكبرى، قضيهٔ الإسلام.

ولاـ شـك فى أن جميع المسـلمين كـانوا يعرفون هـذه الحقـائق فى شخصـيهٔ وضـمير الإمـام على، ويبـدو أن منافسـيه السياسـيين قاموا بمغامرتهم الناجحهٔ ۱ معتمدين على جملهٔ معطيات من جملتها ثقتهم بأن الإمام سيقدم مصلحهٔ الإسلام العليا على مصالحه الخاصهٔ.

لقـد أشار الإمام فى كتاب له بعث به إلى أهل مصـر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها، إلى العامل السياسـى الذى حال دون مضيه فى المعارضهٔ، فقال:

...فأمسـكت يدى ۲ حتى رأيت راجعهٔ الناس ۳ قـد رجعت عن الإسـلام، يدعون إلى محق دين محمد (ص)، فخشـيت إن لم أنصـر الإسـلام وأهله أن أرى فيه ثلما ۴ أو هـدما تكون المصـيبهٔ به على أعظم من فوت ولاـيتكم التى إنما هى متاع أيام قلائل يزول منها ما

كان كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح ۵ الباطل

(۱) مما يوحى بشعور الجميع آنذاك بخطورة الإجراء الذى اتخذوه واشتماله على درجة كبيرة من المغامرة قول الخليفة عمر بن الخطاب فى خلافته فى تحذير غير مباشر وجهه إلى طلحة والزبير وغيرهما لما نمى إليه عنهم من آراء تتصل بطريقة انتقال السلطة على الأسلوب الذى تم فى السقيفة (كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله شرها).

(۲) أمسكت يدى: توقفت عن المشاركة فى الموقف الراهن.

(۳) راجعة الناس: الراجعون عن الإسلام، المرتدون.

(۴) ثلما: خرقا وانتهاكا.

(۵) زاح: ذهب وزال.

(۱۶۲)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۲)، مالك الأشتر (۱)، الباطل، الإبطال (۱)، الخليفة عمر بن الخطاب (۱)، السقيفة (۱)

صفحه ۱۳۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶۳

وزهق ۱، واطمأن الدين وتنهنه ۲. ۳ وقد خيب موقفه المبدئى الرسالى آمال كثيرين ممن كان إسلامهم موضع شك أو كانوا مسلمين مخلصين ولكنهم ينظرون إلى مسألة الحكم من زاوية المصالح القبلية والعائلية نتيجة لافتقارهم إلى النضج والوعى.

وقد حاول بعض هؤلاء أن يحملوه على تغيير موقفه المبدئى الرسالى، ولكنه رفض محاولاتهم، مصرحا بأن الموقف موقف فتنة، داعيا، إلى النظر فى الموقف وفقا لمقياس عقيدى إسلامى مبدئى، والابتعاد عن المنظور الجاهلى القبلى الذى بدت سماته فى تلك المحاولات.

وقد صرح بذلك فى مواقف كثيرة، منها قوله مخاطبا الناس حين دعاه أبو سفيان بن حرب والعباس بن عبد المطلب إلى أن يبايعا له بالخلافة:

أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة ۴ وضعوا تيجان المفاخرة. أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح.

هذا ماء آجن ۵، ولقمة يغص بها آكلها. ومجتنى الثمرة لغير إيناعها ۶ كالزارع بغير أرضه ۷.

* والسمات التى تميز الفتنة العارضة، فيما نستفيده من جملة ما ورد عن الإمام على فى هذا الشأن، ومن الدراسة التاريخية ...، أربع:

۱ - تتولد أزمة سياسية، قد تكون بسبب أحداث صغيرة، تكون غالبا غير مخطط لها بل عرضية، ولكن سرعان ما تدخلها بعض القوى الاجتماعية ذات الأهداف السرية

(۱) زهق: مات، يعنى هنا: زال الباطل تماما.

(۲) تنهنه: انتعش.

(۳) نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النص: ۶۲.

(۴) عرج عن الطريق: تنحى عنها. يعنى تنحوا عن الأسلوب الجاهلى فى الصراع السياسى وهو المنافرة والمفاخرة.

(۵) الآجن: الماء الذى تغير لونه وفسدت رائحته ولم يعد صالحا للشرب، يعنى بذلك الأسلوب السياسى الجاهلى.

(۶) الإيناع: النضج والصلاحية للأكل.

(۷) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۵.

(۱۶۳)

مفاتيح البحث: العباس بن عبد المطلب (۱)، البيعة (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، الباطل، الإبطال (۱)، الموت (۱)

صفحه ۱۳۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶۴

المخالفة لنظام المجتمع فى نطاق خططها للاستفادة منها ومن تلك الأزمة السياسية، فى سبيل الوصول إلى أهدافها.

وقد تتولد الأزمة السياسية بسبب أحداث ذات شأن كبير ومخطط لها - كما حدث فى السقيفة - ولكن الجماعات التى تصنع الحدث لا تستثمره لأهداف مخالفة لنظام المجتمع العام والسائد، بل تكون عازمة على الانسجام مع نظام المجتمع، ساعية إلى تعزيزه وفقا لفهمها الخاص، عاملة على أن يكون ذلك من خلال سلطتها هى.

۲ - فى الحالتين الآنفتين تحرك الفتنة العارضة بعض القيم القديمة التى قضى عليها النظام الجديد، إما بسبب ضعف رقابة النظام لانشغال أجهزته بالمشكلات السياسية الآنية، أو بسبب التسامح مع بعض القوى السياسية غير الواعية لأجل كسب ولائها فى الصراع السياسى الدائر. ولكن هذه القيم القديمة، فى جميع الحالات، لا تعود سافرة صريحة، إنما تعود مموهة بشعارات جديدة.

۳ - (فى الغالب) تتولد الأحداث التى تكون مناخ الفتنة من مشكلات يثيرها أشخاص عاديون أو ذوو قيمة ثانوية فى السلم الاجتماعى، كما أنها تقع على أشخاص من هذا القبيل كما هو الحال فى فتنة النزاع على الماء بين الغفارى والجهنى، ولكن علاقات الدم والصداقة والمصالح والمطامح سرعان ما (تسيس) الأحداث وتستغلها. وقد يحدث أن تتولد الأحداث من مشكلات يثيرها أشخاص ذوو شأن كبير فى المجتمع أو تصيب هذه الأحداث أشخاصا من هذا النوع، كما هو الحال فى حادثة الإفك وفى أحداث السقيفة.

۴ - تواجه القيادة الحقيقية الشرعية هذه الفتنة بسياسة تتسم بالهدوء، وروح المسؤولية العالية، وتتجنب اتخاذ أية إجراءات أو مواقف انفعالية وانتقامية، لما يؤدى إليه ذلك من عواقب خطيرة تزيد الموقف تعقيدا والفتنة استحكاما، وتتيح للقوى الخفية المعادية للنظام (المنافقون، مثلا فى المجتمع الإسلامى) أن تستغل الوضع الطارئ لتحقيق أهدافها (لاحظ السمة رقم (۱).

وبدلا من مواجهة أحداث الفتنة العارضة بالعنف والانفعال، تحرص القيادة على

(۱۶۴)

مفاتيح البحث: السقيفة (۲)، الكسب (۱)، النفاق (۱)

صفحه ۱۳۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶۵

مواجهتها بأسلوب يعطى الأولوية فى الحل لمصلحة القضايا المبدئية والعامة، لا للجانب الشخصى والعائلى.

هذه هى، فيما نرى، أبرز سمات الفتنة العارضة.

ج - الفتنة الغالبة هذا النوع الثالث من أنواع الفتنة، هو، كما يدل عليه الوصف الذى اخترناه له، دون الفتنة الشاملة، وفوق الفتنة العارضة.

وقد تنشأ الفتنة الغالبة من تدهور سياسى عقيدى - تشريعى كبير يحل بالمجتمع أثناء حركته الانبعاثية، أو بعد بلوغه الذروة.

كما قد تنشأ من فتنة عارضة تهمل القيادة جانب الحكمة فى مواجهتها، أو تغفل عنه، فتتعاظم عثرة المجتمع، وتتغذى الحالة الانحرافية

بالتناقضات المستكنة فى أعماق التركيب الاجتماعى، كما أنها تتغذى بالقيم القديمة التى أجبرها النظام الجديد على أن تنسحب من دائرة العمليات الاجتماعية إلى الظلام.

وتفشل النخبة فى علاج العثرة بسب عجز هذه النخبة، أو بسبب تناحر أجنحتها وانحياز بعض الأجنحة إلى خط الإنحراف.

وعامل الزمن فى مصلحة الإنحراف، فكلما مضى على الإنحراف يوم دون أن يوضع له حد ودون أن يقوم، يزداد رسوخا وتمكنا، ويستوعب مساحة جديدة من المجتمع، ويكون لدى مزيد من الناس قناعات فى صالحه بينما تزداد النخبة عجزا، وعزلة، وتفقد مزيدا من مواقعها.

وقبل مضى زمن طويل على الإنحراف الذى أنشب مخالبه فى كيان المجتمع، وفشلت النخبة فى القضاء عليه - يشيع هذا الإنحراف، ويطبع كثيرا من أوجه الحياة، ويغدو عرفا أو قانونا أو سنة متبعة، تحميه وتصونه قناعات تتأصل فى الثقافة، وتغدو جزءا من تكوين المجتمع الثقافى.

قلنا: إن هذا يحدث قبل مضى زمن طويل على حدوث الإنحراف، لأن الإنحراف عادة يكون إلى جانب اليسر والسهولة والحياة الهينة وهذا ما يغرى بالاتباع

(۱۶۵)

صفحه ۱۳۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶۶

لأنه أوفق بهوى النفوس، وأبعد عن التبعة والتضحية.

ولكن الإنحراف (الفتنة) لا يبلغ درجة الشمول واستيعاب كل مؤسسات المجتمع، ولا يستطيع أن يغير بنيته الثقافية من جميع وجوهها، ولا يقدر على أن يستوعب فى مفاهيمه وقيمه الجديدة المبتدعة أو القديمة المحياة - كل الفئات الاجتماعية، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقضى نهائيا على حركة المجتمع التقدمية. إنه يعوقها ولكنه لا يعطلها، يشوهها ولا يمسخها، إنه لا يبلغ درجة الفتنة الشاملة، وإنما يكون فتنة غالبة.

تبقى مع الإنحراف الغالب روح الطهارة والأصالة شائعة فى المجتمع بوجه عام، تغذى حركته التقدمية فى أكثر من وجه من وجوه حياته ونشاطاته، وإن كانت هذه الروح تتعرض دائما للنكسات بالنسبة إلى عامة المجتمع، ولكنها تبقى على وهجها الكامل وفاعليتها الكاملة فى جماعات قد تكون محدودة وصغيرة، منبثة فى ثنايا المجتمع سلمت من الإنحراف فلم ينل منها شيئا، وبقيت ثابتة على الصراط المستقيم.

هذه الجماعات الأصيلة الطاهرة هى طليعة الكفاح ضد الفتنة الغالبة فى داخل المجتمع.. هى التى تحول بين الفتنة وبين أن تستوعب كل المجتمع وتغدو شاملة، وهى التى بكفاحها الدائب الصبور تحول بين الفتنة وبين التمكن والاستقرار، وتجعلها فى حالة حرب مستمرة.

ومن هنا فإن المجتمع فى حالة الفتنة الشاملة يتمتع باستقرار وثبات نتيجة لتناغم المؤسسات مع القيم مع القناعات الشعبية مع الثقافة العامة، فهذه كلها تتكامل وتتساند، وتتوفر نتيجة لذلك حالة من التوازن توفر بدورها استقرارا وثباتا.

أما فى الفتنة الغالبة فإن الأمر على خلاف ذلك، لأنه يوجد تنافر قليل أو كثير بين المؤسسات والقيم والقناعات والثقافة، وهذا يؤدى إلى أن يعانى المجتمع باستمرار من القلق والفوران والتمزق، نتيجة لوجود القوى المناهضة للفتنة، هذه القوى التى تضطر حركتها الأصيلة المناهضة نظام الفتنة إلى أن يتحرك ضدها.

* والفتنة الغالبة، فى عالم الإسلام، هى الفتنة التى استفحلت فى آخر عهد الخليفة عثمان بن عفان، وقاد الإمام على بن أبى طالب

حركة التصدى لها طيلة السنى

(۱۶۶)

مفاتيح البحث: الخليفة عثمان بن عفان (۱)، كتاب الصراط المستقيم لعلى بن يونس العاملى (۱)، على بن أبى طالب (۱)، الحرب (۱)، الطهارة (۱)

صفحه ۱۴۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶۷

الأخيرة من حياته ... واستمرت بعد استشهاده، وزادت ضراوة وعنفا حين فترت الهمم وتقاعست العزائم عن التصدى الفعال لها، فانتصرت وسادت - قبل عهد الثورات - حركة الردة.

ومن هنا فقد كثر كلام الإمام على عن هذه الفتنة من جميع وجوهها: نعرض أسباب وبدايات حدوثها، وآلية حركتها، والموقف منها.

أ - كيف تبدأ الفتنة؟

كيف تبدأ الفتنة؟. قال عليه السلام:

إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا على غير دين الله. فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ۱ ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين ۲ ولكن يؤخذ من هذا ضغث ۳ ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه. وينجو (الدين سبقت لهم منا الحسنى) ۵۴.

هذا النص يكشف عن عاملين يكونان الفتنة الغالبة:

أحدهما:

تغليب المقياس الذاتى فى القيم على المقياس الموضوعى أهواء تتبع فبدلا من أن يكون المرجع فى القيم النظام العقيدى والتشريعى للمجتمع، يتجاوز رواد الفتنة هذا النظام فيرجعون إلى النوازع الذاتية والعاطفية والمصلحية فتكون هى المقياس بالمعتمد وهو المرجع الأخير فى القيم والسلوك، وعلى ضوء ما تمليه تتخذ المواقف من الأحداث والأشخاص.

(۱) المرتاد: الطالب.

(۲) اللبس: الملابسة والمخاطبة.

(۳) الضغث من الحشيش القبضة منه. يعنى يخلط شئ من الحق بشئ من الباطل فيشتبه أمرهما وتحصل الفتنة.

(۴) سورة الأنبياء (مكية - ۲۱) الآية ۱۰۱.

(۵) نهج البلاغة - الخطبة رقم: ۵۰

(۱۶۷)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۱)، سورة الأنبياء (۱)، الباطل، الإبطال (۱)

صفحه ۱۴۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۶۸

ثانيهما:

سقوط القانون وانتهاك حرمته على الصعيد العملى ...: وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله، وتغلب العامل الشخصى بالاحتيال على الشرعية القانونية التى يحتفظ لها المفتونون بالاحترام النظرى، ويتظاهرون بتطبيقها، بينما هى على الصعيد العملى تنتهك كلما تمكن

الأقوياء من انتهاكها.

هذان العاملان: سقوط المقياس الموضوعى فى القيم على صعيد الأخلاق والعلاقات الاجتماعية والسياسية، وسقوط الشرعية القانونية على صعيد المؤسسات العامة والعلاقات والوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... هذان العاملان هما جوهر الفتنة الغالبة.

ويحدث حينئذ أن تتكون القناعات الموالية للفتنة الغالبة لدى فئات اجتماعية جديدة ...: ويتولى عليها رجال رجالا على غير دين الله يتعزز بها موقع الإنحراف فى المجتمع، ويعمق رسوخه فى القلوب والعقول، ويتسع مداه فيشمل مساحات جديدة من الحياة.

ولكن الفتنة – كما ذكرنا آنفا – لا تبلغ درجة الشمول، بل يبقى للحق فى المجتمع سلطان، ويبقى للشرعية فى المجتمع أعوان، هم الذين سبقت لهم منا الحسنى وهم الذين يقودون حركة الكفاح ضد الباطل والفتنة من أجل الحق الخالص الذى لا يلتبس بالباطل.

* ب – كيف تتحرك الفتنة وتنمو؟

ويصف الإمام فى نص آخر كيف تبدأ الفتنة، ويصور آلية حركتها وانتشارها فى المجتمع، وذلك فى سياق وصفه للفتنة الغالبة التى كانت نذرها تطل على المجتمع الإسلامى فى عهده:

(۱۶۸)

مفاتيح البحث: الباطل، الإبطال (۲)

صفحه ۱۴۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۶۹

...ثم إنكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت، فاتقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النقمة ۱، وتثبتوا فى قتام العشوة ۲ واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها ومدار رحاها.

تبدأ فى مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية. شبابها كشباب الغلام ۳، وآثارها كآثار السلام ۴ يتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم. يتنافسون فى دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريحة ۵. وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء ۶ ويتلاعنون عند اللقاء ۷.

فى هذا النص صور الإمام آلية حركة الفتنة، ونموها وانتشارها فى المجتمع، فأبرز الملامح التالية:

۱ – إن شيوع روح الترف فى المجتمع، واستغراق النخبة فى الترف يؤديان بالمجتمع إلى أن يفقد روحه النضالية الرسالية، ويحرص على حياته الهينة الناعمة، وعلى توفير الوسائل الملائمة لبلوغ مستوى من الحياة أكثر نعومة ولينا.

كما أن النخبة فى هذه الحالة تصاب بالترهل والعجز والجبن.

وشيوع هذه الروح، روح الترف، فى مجتمع لا يزال فى مرحلة تكوين نفسه، ومحاط بالقوى المضادة الخائفة، ويحتوى تركيبه الداخلى على نقاط ضعف ناشئة من كونه يضم جماعات لم تتمثل بعد بدرجة مرضية وعميقة رسالته التى يعتنقها ويبشر بها – ... شيوع هذه الروح فى مجتمع كهذا – وهو ما كأنه المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين – يجعله مهيأ لنمو روح الفتنة فيه وانتشارها.

لقد حذر الإمام من هذا بقوله: (احذروا سكرات النعمة)....

(۱) البوائق: جمع بائقة، وهى الواهية، والمصيبة الكبيرة.

(۲) القتام: الغبار، العشوة الظلام. يعنى أن الموقف الآتى شديد الإلتباس لأنه مظلم فى نفسه ويثور مع ذلك حوله الغبار. ويعنى بذلك الفتنة الآتية.

(۳) شباب الغلام: فتوته وعنفوانه، والفتنة تبدأ هكذا ذات عنفوان.

(۴) السلام الحجارة الصم، وأثرها فى الأبدان الجرح والكسر.

(۵) مريحة: منتنة.

(۶) يتزايلون: يتفارقون وينفصل بعضهم عن بعض.

(۷) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۱.

(۱۶۹)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۴۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۷۰

۲ - تقع فى الحياة العامة أحداث، أو يواجه المجتمع حالات معينة، تسبب هذه أو تلك التباسا فى طريقة التعامل مع بعض المفاهيم الرسالية ومفاهيم المعتقد على ضوء الواقع الذى حصل (مثلا: التغيرات التى نشأت نتيجة لتوسع حركة الفتح فى إيران والمستعمرات البيزنطية ... والاحتكاك بالحضارتين الإيرانية، والرومانية - الشرقية.. - أو الحيرة التى نشأت نتيجة لمقتل الخليفة عثمان بن عفان...) فى هذه الحالات قد تتخذ النخبة أو القيادة السياسية للمجتمع قرارات مرتجلة، وتخضع لآلية الفعل ورد الفعل، بعيدا عن التروى (مثلا: كالذى حدث عند مطالبة الإمام على بعد البيعة فورا بأن يقبض على المتهمين بقتل عثمان ويعاقبهم، فقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوما ممن أجلب ۱ على عثمان؟ فقد أجابهم الإمام جواب رجل الدولة المسؤول الناظر إلى عواقب الأمور، البعيد عن الانفعال: يا إخوتاه! إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لى بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم ۲ يملكوننا ولا نملكهم! وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، والتفت إليهم أعرابكم ۳ وهم خلالكم ۴ يسومونكم ما شاؤوا ۵ وهل ترون موضعا لقدرة على شئ تريدونه! إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة ۶. إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك.

فاصبروا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها ۷ وتؤخذ الحقوق مسمحة ۸.

فاهدأوا عنى، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى، ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة، وتسقط منة ۹، وتورث وهنا وذلة. وسأمسك الأمر ما استمسك، وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى ۱۰.

(۱) أجلب عنه: أعان عليه.

(۲) على حد شوكتهم: الشوكة الشدة، أى لم يضعف هيجانهم.

(۳) التفت ... انضمت إليهم واختلطت بهم.

(۴) وهم خلالكم ... أى بينكم.

(۵) يسومونكم.. يكلفونكم بما يريدون من الأفعال والمواقف.

(۶) مادة: مددا وأنصارا.

(۷) تقع القلوب مواقعها: تهدأ وتستقر بعد اضطرابها بسبب هيجان الفتنة.

(۸) مسمحة: أى سهلة ميسرة وهذا حين تهدأ العواطف، ويثوب الناس إلى المنطق والقانون.

(۹) المنة: القوة والقدرة، ينهاهم عن الأعمال المرتجلة المتسرعة التى تسبب انشقاقا وتمزقا فى المجتمع يضعفه ويوهن قوته.

(۱۰) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۶۸.

(۱۷۰)

مفاتيح البحث: الخليفة عثمان بن عفان (۱)، دولة ايران (۱)، القتل (۱)، الجهل (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۴۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٧١

وهكـذا نرى الإمام يطلب إلى هؤلاء المتعجلين أن يلزموا جانب التروى، وأن يتركوا له اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، وألا يخضعوا لمنطق الفعل ورد الفعل لأن هذا يؤدى إلى التباس فى المفاهيم، وتخبط فى المواقف، وأخطاء فى القرارات تجعل المناخ العام أكثر ملاءمة لروح الفتنة. وقد أشار الإمام إلى ذلك بقوله:

وتثبتوا فى قتام العشوة...

٣ - حين يتهيأ المناخ الملائم نتيجة للعاملين الآنفى الذكر تبدأ الفتنة بظواهر انحرافية بسيطة وهينة، يقابلها المجتمع بوجه عام، ونخبته السياسية والفكرية بوجه خاص، بالتسامح واللامبالاة، وهذا ما يوفر لهذه الظواهر الانحرافية مناخ الأمان وفرص الاتساع والنمو. وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: تبدأ فى مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية.

٤ - وعلى خلاف وضع الفتنة حين تبدأ خفية حية، تلوذ وراء المبررات وتغطى نفسها بشعارات خادعة، فإنها حين تنمو وتتسع وتؤول إلى فظاعة جلية يكون لها عنفوان وتسلط وبطش، وتبدأ بطبع آثارها العميقة فى بنية المجتمع، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: شبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السلام.

٥ - بعد انتشار الفتنة، واتساع المساحات التى تستوعبها من فئات المجتمع، تكون قناعات تجعلها أشد رسوخا فى الذهنية العامة، وتغدو ثقافة شائعة ترتكز إليها السلطة التى تقود حركة الفتنة، وتوجه المجتمع وفقا لقوانينها، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: يتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم...

٦ - ولكن الوضع السياسى لقادة الفتنة - بعد انتشارها، وتأصلها فى بنية المجتمع - لا يبقى موحدا ومتلاحما، وإنما تبرز التناقضات والسمات الشخصية لكل فئة، والمطامع والمخاوف الخاصة بكل جماعة. وحينئذ تنقسم قيادة الفتنة إلى فئات متخاصمة متناحرة، وتجر المجتمع وراءها إلى التخاصم والتناحر والحروب الأهلية، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله ...: وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللقاء.

*(١٧١)

صفحه ۱۴۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٧٢

وهذا نص يصرح فيه الإمام لأصحابه بما ينتظرهم من الفتنة وويلاتها من بعده، محملا إياهم مسؤولية نشوء الفتنة وانتشارها وما يترتب على ذلك من شرور، لأنهم كانوا سلبيين أمام مظاهر تسرب روح الفتنة إلى مجتمعهم السياسى وبنيتهم الثقافية، وهذا ما وفر للفتنة أجواء النمو والانتشار، وكانوا متخاذلين، مهملين لواجبهم، لم يتحملوا مسؤوليتهم فى نصرة قضيتهم، وحماية نظامهم الشرعى العادل:

أيها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوى عليكم. لكنكم تهتم متاه بنى إسرائيل، ولعمرى ليضعفن لكم التيه من بعدى أضعافا، بما خلفتم الحق وراء ظهوركم، وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد ... ١.

ج - ما موقف المسلم من الفتنة حين تبدأ؟

ما موقف المسلم من الفتنة حين يذر قرنها؟

فى الفتنة - كما رأينا - يختلط الحق بالباطل، ويلتبس الصواب بالخطأ، فلا يتميز أحدهما من الآخر.

وفی هـذه الحالـة یکون الموقف الأسـلم والأوفق بالشـرع هو الابتعاد عن الفتنـة والامتناع عن المشارکـة مع هذا الطرف أو ذاک، إذ لا یأمن المشارک من أن یقع فی الباطل وهو یری أنه ینصر الحق، أو یحارب الحق وهو یری أنه یحارب الباطل.

وهذا هو الموقف الذی نصح الإمام بالتزامه حین تقع الفتنة، ویلتبس فیها الحق بالباطل، فقد قال:

کن فی الفتنة کابن اللبون. لا ظهر فیرکب، ولا ضرع فیحلب ۲.

(۱) نهج البلاغة – الخطبة رقم: ۱۶۶. ویومئ فی الجملة الأخیرة إلی أنهم اتصلوا بمعاویة وتخلوا عن الحاکم الشرعی.

(۲) نهج البلاغة – باب الحکم – رقم ۱. وابن اللبون هو ابن الناقة إذا کمل له سنتان. وهو فی هذه الحالة لا ینفع للرکوب لأنه لا یقوی علی حمل الأثقال، ولیس له ضـرع لیحلب، کنی الإمام بـذلک عن أن الإنسان الواعی فی الفتنة یقف علی الحیاد فلا یکون ذا نفع لأی طرف من أطرافها.

(۱۷۲)

مفاتیح البحث: الباطل، الإبطال (۳)، کتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۴۶

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام – الشیخ محمد مهدی شمس الدین – الصفحة ۱۷۳

ولکن هـذا الموقـف یکـون صوابـا حین لاـ یکون الإمـام العـادل موجودا، ولاـ یتـاح للمسـلم أن یتـبین الحق من الباطـل فی الأحـداث والمواقف التی تجری أمامه، أما حین یکون الإمام العادل موجودا، ویتخـذ من الفتنة موقفا، فإن علی المسـلم أن ینسـجم فی مواقفه مع مواقف الإمام العادل، ولیس له أن یبقی علی السـلبیة متـذرعا بأنه یخشـی الوقوع فی الباطل، وإنما یکون موقفه هـذا، فی هـذه الحالـة، جبنا وخـذلانا للحق، بل إنه یکون، من بعض الوجوه، خیانة ومساهمة فی الفتنة، لأنه بسـلبیته غیر المبررة قد یضـلل آخرین یجدون فی سلبیته تبریرا لمواقفهم.

وقد واجه الإمام أثناء فترة حکمه العاصـفة مثل هذه المواقف الجبانة السلبیة الخائنة من قبل بعض القیادات فی مجتمعه تجاه الفتنة التی أثارتها قوی الثورة المضادة، فقال مرة یخاطب الناس:

أیها الناس، ألقوا هـذه الأزمـة ۱ التی تحمـل ظهورهـا الأثقال من أیـدیکم، ولا تصـدعوا ۲ علی سـلطانکم، فتـذموا غب فعالکم ۳ ولا تقتحموا ما اسـتقبلتم من فور نار الفتنة ۴، وأمیطوا عن سـننها ۵ وخلوا قصـد السبیل لها ۶، فقد لعمری یهلک فی لهبها المؤمن، ویسـلم فیها غیر المسلم.

إنما مثلی بینکم کمثل السراج فی الظلمة، یستضیئ به من ولجها ... ۷.

فالإمام هنا ینهی جمهوره عن المشارکة فی الفتنة ولکنه لا یقرهم علی الموقف السلبی منها، وإنما یأمرهم بالتصدی لها.

إن المشارکة فیها تعنی التآمر معها، والسلبیة أمامها تعنی عدم التصدی لها،

(۱) الأزمـة، جمع زمـام، کنی عن قضایـا الفتنـة بالنیـاق التی یمسـک أصـحابها بأزمتهـا، وهی تحمـل علی ظهورها الأثقال. یقول لهم: اترکوا قفا الفتنة ولا تخوضوا فیها لتخلصوا من آثارها.

(۲) لا تصدعوا: لا تتفرقوا عن الحاکم الشرعی.

(۳) غب فعالکم: عواقبها.

(۴) فور النار: تعاظمها وارتفاع لهبها.

(۵) أماط: نحی وأزال. والسنن: الطریق. یعنی تنحوا عن طریق الفتنة وابتعدوا.

(۶) قصد السبیل: الطریق. أی اترکوا الفتنة تسیر فی طریقها ولا تشترکوا فیها.

(۷) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۸۷.

(۱۷۳)

مفاتيح البحث: الهلاك (۱)، الباطل، الإبطال (۲)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۴۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۷۴

وكلاهما خطأ. الموقف السليم هو مواجهتها مع الإمام الحاكم العادل، لأن الحق - بوجوده - بين ظاهر، فهو الهادى، وهو الدليل الذى لا يضلل، وهو السراج فى الظلمة، ظلمة الفتنة، وكل ظلمة.

وقد حدث أن بعض المسلمين فى بدايات خلافة أمير المؤمنين على التبس عليهم الأمر فى الفتنة التى أثارها خروج طلحة والزبير، وعصيان معاوية نتيجة لموقف أبى موسى الأشعرى الذى قال للناس فى الكوفة حين دعوا إلى قمع عصيان طلحة والزبير: إن الموقف موقف فتنة، وأن الموقف السليم منها هو الامتناع عن المشاركة فيها.

وقد أوضح الإمام إذ ذاك أن الموقف من الفتنة التى يلتبس فيها الحق بالباطل هو هذا، ولكن الأمر يختلف حين يتضح جانب الحق بوجود الإمام العادل أو بأية وسيلة أخرى، فإن السلبية فى هذه الحالة تكون خيانة.

ومن هنا فقد سمى الإمام خروج طلحة والزبير فتنة، ودعا الناس إلى مواجهتها وقمعها، لأن وجه الحق فيها بين، فقد كتب إلى أهل الكوفة عند مسيره إلى البصرة:

...واعلموا أن دار الهجرة ۱ قد قلعت بأهلها وقلعوا بها ۲، وجاشت جيش المرجل ۳، وقامت الفتنة على القطب ۴، فأسرعوا إلى أميركم، وبادروا جهاد عدوكم ۵.

د - موقف الإمام على من فتنة عصره ما دور الإمام على، وما موقفه من الفتنة التى عصفت بالمجتمع الإسلامى فى عهده؟.

نظرة إلى التاريخ السياسى والفكرى للإسلام تكشف بوضوح عن أن الإمام عليا كان المنقذ الأكبر للإسلام من التشوه والمسخ بالفتنة التى عصفت رياحها المجنونة

(۱) دار الهجرة: هى المدينة المنورة.

(۲) قلع المكان بأهله: نبذهم وطردهم. وقلع فلان بمكانه: نبذه وابتعد عنه.

(۳) جاشت: اضطربت، والمرجل: القدر: يعنى أن دار الهجرة قد اضطربت بأهلها بسبب الفتنة التى نشبت فيها وانطلقت منها.

(۴) قامت الفتنة على القطب: وجدت من يوجهها ويرعاها ويغذيها بالأفكار والقوى، فاشتدت وعظم خطرها.

(۵) نهج البلاغة - باب الكتب - الكتاب رقم ۱.

(۱۷۴)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، مدينة الكوفة (۲)، مدينة البصرة (۱)، الباطل، الإبطال (۱)، الظلم (۲)، كتاب نهج البلاغة (۱)، المدينة المنورة (۱)

صفحه ۱۴۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۷۵

بالمسلمين منذ النصف الثانى من خلافة عثمان.

ولولا توجيه على الفكرى، ومواقفه السياسية، ومواجهته العسكرية للفتنة فى شتى مظاهرها الفكرية والسياسية والعسكرية لتشوه الإسلام،

وانمسخ، وتقلص. ولكن الإمام عليا، بموقفه الواضح الصريح الرافض لأية مساومة، كان المنقذ الذى كشف الفتنة ودعاتها، ووضع المسلمين جميعا أمام الخيار الكبير: مع الفتنة أو ضدها؟.

ولا يهم بعد ذلك أن الفتنة حازت إلى جانبها جمهورا كبيرا من الناس، المهم أنها افتضحت، وبافتضاحها سلم الإسلام من التشوه ومن خطر التزوير، وكان على الذين انحرفوا أن يجدوا لأنفسهم مبررات.

وقد كان توقع نشوء الفتنة، والخوف منها ومن أفاعيلها وعواقبها، هاجسا عاما عند المسلمين. يكشف عن ذلك السؤال عنها، وعن الموقف الصواب منها، وكثرة حديث الإمام عن أخطارها وملابساتها.

وقد كان الإمام على بروحانيته العالية السامية، وإسلاميته الصلبة الصافية، وروحه الرسالية التى تفوق بها على جميع معاصريه، وحكمته وشجاعته، وسيرة حياته الناصعة التى ابتدأت بالإسلام ... كان هو الرجل الوحيد المرصود لمواجهة الفتنة، وإنقاذ الإسلام منها.

لقد أعلمه رسول الله (ص) بذلك، وأدرك هو دوره من خلال رصده لحركة المجتمع التاريخية.

وهذا نص عظيم الأهمية يكشف لنا عن الدور المرصود للإمام على فى مواجهة الفتنة، يتضمن الرؤية النبوية لمستقبل الحركة التاريخية من جهة، والرؤية النبوية لدور الإمام على فى هذه الحركة.

وقد أورد الشريف الرضى هذا النص، كما أورده ابن أبى الحديد فى شرحه (۹ / ۱۰۵ - ۱۰۷) برواية الشريف وبرواية أخرى أكثر بسطا. ويبدو أن الرواية الأخرى تقريرية حدث بها الإمام، ورواية الشريف خطابية، جاءت جوابا منه على سؤال، فقد قام إليه رجل - وهو يخطب - فقال: يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن الفتنة، وهل

(۱۷۵)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين (۱)، الخوف (۱)

صفحه ۱۴۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۷۶

سألت رسول الله (ص) عنها؟ فقال عليه السلام:

إنه لما أنزل الله سبحانه قوله (ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ۱ علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله (ص) بين أظهرنا. فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التى أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: (يا على، إن أمتى سيفتنون من بعدى)، فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لى يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت ۲ غنى الشهادة، فشق ذلك على، فقلت لى: (أبشر، فإن الشهادة من ورائك) فقال لى: (إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟) فقلت: يا رسول الله: ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.

وقال: (يا على، إن القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع) قلت: يا رسول الله: فبأى المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: (بمنزلة فتنة) ۳.

وإذن، فقد كان الإمام مرصودا لمواجهة الفتنة وفضحها.

لقد كان منقذ الإسلام بعد رسول الله (ص) من التزييف والتحريف، فحقق بمواجهته للفتنة صيغة الإسلام الصافى، فى المعتقد والفكر والتشريع والعمل، وغدت الفتنة أزمة فى داخل الإسلام، ولم تفلح فى أن تكون هى الإسلام.

وقد عبر الإمام فى أكثر من مقام عن دوره العظيم الفريد فى التاريخ، من حيث كونه القيادى الوحيد الذى استطاع أن يواجه الفتنة

ويفضحها، فقال مما قال:

...فإنى فقأت عين الفتنة ۴، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيرى، بعد أن ماج غيهبها ۵ واشتد كلبها ۶.

(۱) سورة العنكبوت (مكية – ۲۹) الآية: ا و ۲.

(۲) جاز عنه الشئ: أبعده عنه.

(۳) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۶.

(۴) فقأت عين الفتنة: تغلبت عليها.

(۵) الغيهب: الظلمة. يعنى أنى واجهتها فى عنفوانها وقوتها.

(۶) الكلب: داء معروف يصيب الكلاب. يعنى أنه واجهها وهى فى هذه الحالة عن الأذى والشر الشديدين. والخطبة فى نهج البلاغة، رقم: ۹۳.

(۱۷۶)

مفاتيح البحث: الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۲)، الشكر (۱)، الشهادة (۳)، الصبر (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، سورة العنكبوت (۱)

صفحه ۱۵۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۷۷

لقد حدثت داخل الإسلام فتن كثيرة، ولكن أعظم هذه الفتن خطورة وأشدها تخريبا فتنة بنى أمية التى عصفت رياحها السوداء الشريرة المجتمع الإسلامى منذ النصف الثانى من عهد عثمان، وتعاظمت خطورتها بعد مقتله. واستغرقت مواجهتها الفكرية والسياسية والعسكرية معظم جهود أمير المؤمنين على فى السنين الأخيرة من حياته.

وقد كان الإمام يغتنم كل فرصة سانحة ليحدث مجتمعه عن هذه الفتنة، ويبين له أخطارها الآنية والمستقبلية من أجل إيجاد المناعة النفسية منها، والوعى العقلى لأخطارها، والعزم العملى على مواجهتها وقمعها، والتصميم على رفضها حتى بعد انتصارها.

قال عليه السلام، إن الفتن إذا أقبلت شبهت ۱، وإذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبلات، ويعرفن مدبرات، يحمن حوم الرياح، يصبن بلدا، ويخطئن بلدا. ألا وإن أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بنى أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها ۲ وخصت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها ۳.

فهى فتنة عمت بليتها لأن روادها الحكام أنفسهم، ومن ثم فشرورها السياسية والفكرية تشمل المجتمع كله.

وهى فتنة خصت بليتها لأن أعنف ضرباتها ستوجه إلى الصفوة المؤمنة الواعية التى بقيت سليمة من داء الفتنة، ووضعت نفسها فى مواقع كفاح الفتنة الغالبة.

والمسؤولية فى هذه الفتنة ملقاة على المبصرين فيها، الذين يعرفونها ويعرفون وجه الحق ويجبنون عن مواجهتها، أو يتواطؤون، ضد الحق، معها.

أما من عمى عنها، وجهل أبعادها وأخطارها فهو معذور بجهله.

(۱) شبهت: اشتبه فيها الحق بالباطل، وإذا أدبرت وخلص الناس منها تميز حقها من باطلها.

(۲) عمت خطتها: يعنى أنها فتنة غالبة تصيب ببلائها أهل الحق.

(۳) نهج البلاغة: الخطبة رقم: ۹۳.

(۱۷۷)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، بنو أمية (۲)، القتل (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الباطل، الإبطال (۱)

صفحه ۱۵۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۷۹

۳ - انتصار حركة الردة لا نعنى بالردة هنا الردة الدينية عن الإسلام، فقد سبق أن رأينا التوجيه النبوى لعلى حين سأل رسول الله (ص): فبأى المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردة أم بمنزلة فتنة؟ فقال (ص) بمنزلة (فتنة).

وإنما نعنى الردة السياسية والفكرية. فإن الفتنة حين انتصرت سياسيا بعد استشهاد أمير المؤمنين على راحت تمكن لنفسها بفرض قيمها الفكرية والاجتماعية فى الثقافة العامة، وتطبع العلاقات فى داخل المجتمع بطابعها.

* لقد كان الإمام يرى ببصيرته النافذة أن الفتنة ستنتصر، وكانت هذه الرؤية إحدى مسببات ألمه العميق.

وكان يرى أن الفتنة لا تقاوم إلا بالكفاح، أما السكوت عنها ومهادنتها فيتيحان الفرصة أمامها لكى تنتصر.

وكان يؤرقه أن مجتمعه، لأسباب شتى، آثر أن يواجه الفتنة بالسكوت عنها، أو - بعبارة أخرى - آثر ألا يواجه الفتنة الآتية.

وكان يقارن بين أصحابه وبين أصحاب رسول الله (ص)، فيريهم أن التوجيه الثقافى واحد، وأن القيادة واحدة، ولكنه يرى أن درجة الإخلاص متفاوتة:

...والله ما أسمعكم الرسول شيئا إلا وها أنا ذا مسمعكموه، وما أسماعكم اليوم بدون أسماعكم بالأمس، ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة فى ذلك الزمان، إلا وقد أعطيتم مثلها فى هذا الزمان.

ووالله ما بصرتم بعدهم شيئا جهلوه، ولا أصفيتم به

(۱۷۹)

مفاتيح البحث: صحابة (أصحاب) رسول الله (ص) (۱)، الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله (۱)

صفحه ۱۵۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۸۰

وحرموه ۱، ولقد نزلت بكم البلية جائلا خطامها ۲، رخوا بطانها ۳ فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود ۴.

وقد تكرر منه المقارنة بين حال أصحابه وحال أصحاب رسول الله (ص) فى عدة مواقف.

وكان يرى فى طريقة مواجهة أصحابه للفتنة الآتية نذر انتصار هذه الفتنة من بعده، وقد كشف عن رؤيته هذه لمجتمعه فى عدة مواقف، منها قوله:

...أما والذى نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقى. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتى، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا ۵.

ويكشف هذا النص - كغيره من النصوص المماثلة له - عن أن انتصار الفتنة لم يكن فى تقدير الإمام عليه السلام وتحليله ناشئا من قدر غيبى، وإنما نشأ من توفر الأسباب الموضوعية على أرض الواقع السياسى والاجتماعى الذى كانت عوامله تتفاعل فى المجتمع

السياسى المواجه للفتنة.

لقـد فقـد هـذا المجتمع فـاعليته، وتخلى عن روح الكفاح فى مواجهـة الفتنـة، وانفصل عمليا عن قيادته فسـقط فى السلبية، وآثر الحياة السهلة الخالية من تبعات الرسالة والجهاد.

ومن ذلك قوله عليه السلام:

(١) أصفيتم.. خصصتم به دون غيركم.

(٢) الخطـام ما جعل فى أنف البعير ليقاد به، فإذا لم يكن ثمـة قائـد تاه البعير ولم يسـلك طريق السـلامة، كنى بـذلك عن الفتنـة التى تعيث فسادا فى المجتمع.

(٣) البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير ليحفظ استقرار ما عليه من راكب أو حمل فإذا استرخى أدى ذلك إلى خطر السـقوط. كنى بذلك عن أخطار الفتنة.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٨٩.

(۵) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٧.

(١٨٠)

مفاتيح البحث: صحابة (أصحاب) رسول الله (ص) (١)، كتاب نهج البلاغة (٢)

صفحه ۱۵۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ١٨١

...ثم يـأتى بعـد ذلك طالع الفتنـة الرجوف ١، والقاصـمة الزحوف ٢، فتزيغ قلوب بعـد اسـتقامة، وتضل رجال بعد سـلامة، وتختلف الأهواء عنـد هجومها، وتلتبس الآراء عنـد نجومها ٣ من أشـرف لها قصمته ۴ ومن سـعى فيهـا حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر فى العانة ۵ قـد اضـطرب فيهـا معقود الحبـل، وعمى وجه الأمر. تغيض فيها الحكمـة ۶، وتنطق فيها الظلمـة، وتـدق أهل البدو بمسـحلها ٧ وترضهم بكلكلها ٨ ... فلا تكونوا أنصاب الفتن ٩ وأعلام البدع، والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة ١٠.

فى هذا النص بين الإمام بعض سمات انتصار الفتنة:

١ - استيلاء الفتنة على مساحات جديدة فى المجتمع: تضل رجال بعد سلامة وتتعمق الأفكار المنحرفة تزيغ قلوب بعد استقامة.

٢ - تلف المجتمع حيرة شديدة نتيجة للانتصار غير المتوقع الذى فرض مفاهيم جديدة لم تكن مألوفة.

٣ - تحطم الفتنة - فى أوج انتصارها - كل من يتصدى لها مواجهة.

وفى نص آخر بين الإمام وجوها أخرى لانتصار الفتنة:

...فعند ذلك أخذ الباطل مآخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلت

(١) الرجوف: شديد الرجفان والاضطراب، تدخل الاضطراب والقلق على المجتمع.

(٢) القاصمة: الكاسرة، والزحوف: المتحركة التى تسعى للانتشار فى المجتمع.

(٣) نجوم الآراء ظهورها يعنى أن الفتنة تسبب البلبلة الفكرية فى المجتمع، فتمكن للشعارات الدخيلة من التسرب والشيوع.

(۴) أشرف لها: تعرض لها، قصمته: كسرته.

(۵) يتكادمون.. ينهش بعضـهم بعضا، والعانة هى الجماعة من الحمر الوحشـية، يعنى أن سلطان القانون، فى حالة انتصار الفتنة، يسقط، ويسود سلطان الغريزة.

(۶) تغيض.. تختفى، غاض الماء: غار تحت الأرض.

(۷) دق: فتت وطحن. والمسحل: المبرد أو المطرقة، يعنى أن شرورها الاجتماعية تصل إلى أهل البدو – مع بعدهم عن يد السلطة – فتحطم علاقاتهم، وتهدد أمنهم.

(۸) الرض: التهشيم، والكلكل: الصدر، يعنى أنها تطبق عليهم، فتشل حركتهم وتحطم مقاومتهم.

(۹) أنصاب: علامات.

(۱۰) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۵۱.

(۱۸۱)

مفاتيح البحث: الباطل، الإبطال (۱)، الجهل (۱)، الجماعة (۲)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۵۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۸۲

الداعية، وصال الدهر صيال السبع العقور ۱، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم ۲ وتواخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق، فإذا كان ذلك كان الولد غيظا ۳ والمطر قيظا ۴ وتفيض اللئام فيضا وتغيض الكرام غيضا ۵. وكان أهل ذلك الزمان ذئابا، وسلاطينه سباعا، وأوساطه أكالا، وفقراؤه، أمواتا، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسبا، والعفاف عجبا، ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوبا ۶.

فى هذا النص فصل الإمام ملامح الفتنة عندما تنتصر، وتغلب على المجتمع، فتتسلط على مؤسساته، وتعمق جذورها فيه، وتبسط مفاهيمها وقيمها عليه.

ويمكن تلخيص هذه الملامح فى النقاط التالية:

۱ – تأصل روح الطغيان فى الحكم، ونزعة التجبر والاستبداد فى الحاكمين، وانحسار الروح الرسالية فى مؤسسات الحكم.

۲ – فساد العلاقات الإنسانية داخل المجتمع، وتدنى المستوى الأخلاقى، وشيوع أخلاق المنفعة بين الناس. وما أروع قوله فى تصوير جانب من هذه الظاهرة (واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب).

۳ – انحطاط مؤسسة الأسرة، وشيوع الإباحة الجنسية.

ويلخص ذلك كله قوله عليه السلام: (ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوبا) وهذا كقوله فى نص آخر:

أيها الناس، سيأتى عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه ۷.

(۱) صال.. هجم للفتك والاعتداء.

(۲) الفنيق: الفحل من الإبل، والكظوم الصمت والسكون – يعنى أن الباطل بعد أن كان ذليلا صامتا، غدا، فى الفتنة، عالى الصوت هادرا.

(۳) بسبب الفتنة تفسد أخلاق الأجيال الشابة فيكونون سببا لغيظ أهلهم.

(۴) القيظ: شدة الحر. يعنى أن الأمور والسياسات تقع فى غير مواقعها فلا تفيد بل تضر.

(۵) غاض الماء فى الأرض: اختفى وغار فيها. يعنى يندر فى الفتنة حين تغلب وجود ذوى الأخلاق الكريمة فى مراتبهم الاجتماعية لأنهم يخفون أنفسهم ويبتعدون عن الأضواء.

(۶) نهج البلاغة – الخطبة رقم: ۱۰۸.

(۷) نهج البلاغة – الخطبة رقم: ۱۰۳.

(۱۸۲)

مفاتيح البحث: الكذب، التكذيب (۱)، الباطل، الإبطال (۲)، الكرم، الكرامة (۲)، الصدق (۲)، كتاب نهج البلاغة (۲)، الصمت (۱)

صفحه ۱۵۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۸۳

۴ - المعاناة تنتصر الفتنة، فتأتى بحكم غير عادل، لا يرى فى الأمة إلا موضوعا لتسلطه ومصدرا للمال.

وهى غير أخلاقيـة، لأـن قادتها يتبعون فى سـياسة الناس منطق الغريزة، لا منطق القانون والعدالـة. ومن هنا وهناك فلا بـد أن يكون لها ضحايا كثيرة.

ومن ضحاياها خصومها السياسيون الذين حاربوها فى الماضى، وغلبوا على أمرهم فى النهاية.

ومن ضحاياها خلفاؤها الذين ساندوها فى أيام ضعفها، واستغنت عنهم فى أيام قوتها.

ومن ضـحاياها الغـافلون عن شـرورها وأخطارهـا، الـذين كـانوا محايـدين فى المعركـة الـدائرة بينهـا وبين أهـل الحق، ثم دهشوا عند انتصارها، فاحتجوا أو أظهروا معارضـتهم لها. وأكبر ضـحاياها الأمـة كلها حين تحولها الفتنـة المنتصـرة إلى موضوع للتسـلط، ومصـدر لصنع الثروات، وتوفير أسباب الترف واللهو لنخبتها، وجهازها القمعى، وحلفائها.

وهكـذا تبـدأ معاناة الأمـة من الفتنة، من ظلمها وتسـلطها، من عدوانها الذى ينتشـر كالوباء فيصـيب كل فئة من المجتمع المغلوب على أمره بشتى ألوانه: العدوان الأخلاقى، والعدوان السياسى، والعدوان الاقتصادى.

وقد صور الإمام على وجوها من معاناة الأمة وعذاباتها بعد انتصار الفتنة فى لوحات معبرة تكاد تنطق بالحركة الحية.

(۱۸۳)

صفحه ۱۵۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۸۴

من ذلك قوله عليه السلام:

...وأيم الله لتجـدن بنى أميـة لكم أرباب سوء بعدى، كالناب الضـروس (۱) تعذم بفيها (۲)، وتخبط بيـدها، وتزبن برجلها (۳) وتمنع درها (۴).

لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم، أو غير ضائر بهم.

ولاـ يزال بلاـؤهم عنكم حتى لاـ يكون انتصـار أحـدكم منهم إلاـ كانتصار العبـد من ربه والصاحب من مستصـحبه. ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية، وقطعا جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى (۶).

وهكذا يعانى الناس من الفتنة بعد انتصارها ألوانا من الشر:

۱ - حكم الطغيان الذى يقضى على كل معارضة له بالرأى والمذهب، وهو لا يقضى عليه بهوادة ولين، وإنما بالعنف والقسوة.

۲ - والإذلال الذى يمحق كرامة الإنسان ويشوه روحه، فيحوله إلى عبد لا يجرؤ على رفع صوته والتعبير عن رأيه، وإنما يخضع بالطاعة العمياء الصماء التى لا خيار فيها ولا تنبثق من قناعة وإنما يفرضها الخوف من العذاب.

* ومن ذلك قوله عليه السلام:

والله لا يزالون حتى لا يـدعوا لله محرما إلا اسـتحلوه، ولا عقـدا إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مـدر ولا وبر (۷) إلاـ دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم (۸)، وحتى يقوم الباكيان، يبكيان: باك يبكى لـدينه وباك يبكى لدنياه، وحتى تكون نصـرة أحدكم من أحدهم كنصـرة العبد

(۱) الناب: الناقة المسنة، والضروس: الناقة السيئة الخلق.

(۲) عذم الفرس: إذا أكل بجفاء، أو عض.

(۳) تزبن: تضرب برجلها من يقترب منها.

(۴) الدر: اللبن. يعنى أنها غير ذات فائدة مع كونها مصدرا للتخريب والأضرار.

فالفتنة شر كلها، ولا خير فيها.

(۵) شوهاء: قبيحة المنظر، ومخشية: مخوفة مرعبة.

(۶) العلم: الدليل الهادى فى متاهات الصحراء. نهج البلاغة، رقم: ۹۳.

(۷) بيت المدر: ما بنى بالحجارة، وبيت الوبر: الخيمة. يعنى أن شر الفتنة لا يقتصر على سكان المدن وإنما يشمل الريف والبدو.

(۸) نبا به سوء رعيهم: شرد الناس، وأقلق حياتهم من (نبا به المنزل): إذا لم توافقه.

(۱۸۴)

مفاتيح البحث: بنو أمية (۱)، الخوف (۱)، العذاب، العذب (۱)، الجهل (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الأكل (۱)

صفحه ۱۵۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۸۵

من سيده، إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه، وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنا، فإن أتاكم الله بعافية فاقبلوا، وإن ابتليتم فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين (۱).

فى هذا النص يكشف الإمام عن وجوه أخرى من المعاناة والعذاب:

۱ - سقوط حرمة القانون عند الطغمة الحاكمة التى يفترض فيها، وهى تحكم باسم الدين، أن تحافظ عليه من حيث التطبيق.

۲ - انتشار الظلم، وعدم اقتصاره على الحواضر والمدن، بل يشمل جميع مستويات الأمة فيعانى منه سكان المدن وبدو الصحراء.

۳ - الإذلال، وهدر كرامة الإنسان الذى يتحول، لطول ما يعانى من الإذلال، إلى ما يشبه أخلاق الرقيق.

إن هذا الواقع يجعل المعاناة شاملة فى قضايا الدين وقضايا الدنيا، ويكون أشد الناس بلاء ومعاناة أكثرهم وعيا، وأصلبهم عودا فى مواجهة إغراء الفتنة وإرهابها.

ولكن الإمام يوصى هذه الفئة المستنيرة التى لم تستهلكها الفتنة بالصبر، لأن الفتنة فى هذه المرحلة لا تقاوم، وكل جهد يبذل فى مقاومتها جهد ضائع مهدور يزيد الشرعية ضعفا ووحدة وعزلة دون أن يؤثر على الفتنة، وهى فى أوج انتصارها شيئا.

* ومن ذلك قوله عليه السلام:

راية ضلال قد قامت على قطبها (۲) وتفرقت بشعبها (۳) تكيلكم بصاعها (۴)، وتخبطكم بباعها (۵)، قائدها خارج من الملة، قائم على الضلة، فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفالة كثفالة القدر (۶) أو

(۱) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۹۸.

(۲) استحكم أمرها كالرحى حين تستقر على قطبها.

(۳) الشعب: الفروع. يعنى أن الفتنة تغلغلت فى جميع ثنايا المجتمع.

(۴) تشمل الناس بشرها دون تمييز كما يكال الحب بالصاع.

(۵) تضرب بذراعها جميع الأمة فلا يمتنع منها أحد، مأخوذ من (خبط الشجرة) ضربها بالعصا ليسقط ثمرها أو يتناثر ورقها.

(۶) الثفل: نفاية الشئ، وما لا خير فيه منه، وثفالة القدر ما يبقى فيه من هذا القبيل.

(۱۸۵)

مفاتيح البحث: الشهادة (۱)، الظلم (۱)، الضلال (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۵۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۸۶

نفاضة كنفاضة العكم (۱) تعرككم عرك الأديم (۲)، وتدوسكم دوس الحصيد (۳) وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبة البطينة (۴) من بين هزيل الحب (۵).

فى هذا النص يتابع الإمام الكشف عن وجوه المعاناة:

سيادة حكم الطغيان بسبب أن الشريعة مهملة من حيث التطبيق لأن الراية راية ضلال، ولذا فإن هذا الحكم يتصرف بوحى الغريزة لا على ضوء القانون، ونتيجة ذلك أن الحكم يدوس الأمة ويسحقها، ويذهب بكل صلابة وعنفوان فيها ليحولها إلى كيان مطواع لا إرادة له ولا اختيار، كالجلد الذى سحق وعرك حتى لان ففقد كل صلابة، وكالحصيد الذى ديس حتى تفتت.

ولكن الفتنة، مع ذلك، لا تفلح فى القضاء على كل شئ، فرغم الظلم المادى والمعنوى، والتشويه الثقافى تبقى نخبة النخبة محافظة على ذاتها، إنها تكون قليلة العدد حقا، ولكنها أصيلة، صافية، منيعة على الطغيان، والتشويه والإغراء والإرهاب.

* ومن ذلك قوله عليه السلام:

تغيض فيها الحكمة (۶)، وتنطق فيها الظلمة، وتدق أهل البدو بمسحلها (۷) وترضهم بكلكلها (۸) يضيع فى غبارها الوحدان (۹)، ويهلك فى طريقها الركبان، ترد بمر القضاء، وتحلب عبيط

(۱) النفاضة ما يسقط من الثوب أو البساط بالنفض، والعكم: العدل الذى يجعل على الدابة ويحمل فيه المتاع.

(۲) العرك: الدلك الشديد، والأديم: الجلد.

(۳) الحصيد: الغلات المحصودة.

(۴) البطينة: السمينة.

(۵) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۰۸.

(۶) تغيض: تختفى، يعنى أن الحكمة فى الفتنة تختفى فى الناس فلا يتعاملون بما تقضى به من عدالة وأخلاق.

(۷) المسحل: المبرد أو المطرقة.

(۸) الرض: التهشيم. والكلكل: الصدر.

(۹) الوحدان: جمع واحد، يعنى المنفردون.

(۱۸۶)

مفاتيح البحث: الظلم (۱)، الإختيار، الخيار (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۵۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۸۷

الدماء (۱) وتثلم منار الدين (۲) وتنقض عقد اليقين. يهرب منها الأكياس (۳) ويدبرها الأرجاس (۴) مرعاد مبراق كاشفة عن ساق، تقطع فيها الأرحام، ويفارق عليها الإسلام، بريها سقيم، وظاعنها مقيم ... بين قتيل مطلول (۵)، وخائف مستجير، يختلون بعقد الأيمان ۶) (...) ۷).

يبرز الإمام فى هذا الفصل – كما فى النص الثانى من هذا الفصل – شمول الظلم لأهل البدو، وهذا يعنى – بملاحظة التركيب الاجتماعى، والوضع الثقافى للمجتمع الإسلامى فى ذلك الحين – أقصى درجات الشمول للظلم والطغيان، فأهل البدو – بسبب طريقة حياتهم – بعيدون عن متناول السلطة وأجهزتها ومن ثم فهم يتمتعون بفرص أكثر من أهل المدن للنجاة من كثير من شرور الطغيان السياسى. ولكن هذه الفتنة المنتصرة يبلغ من قوتها وعنفها أن هؤلاء البدو – أهل الوبر – لا يسلمون منها، بل تسومهم سوء العذاب.

كما أبرز الإمام فى هذا النص الوجوه الأخرى للمعاناة: الإذلال، وسياسة القمع، وتجاوز الشريعة والقانون، وانحطاط العلاقات الإنسانية.

* وقال عليه السلام:

...فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا وأدخله الظلمة ترحة (٨)، وأولجوا فيه نقمة، فيومئذ لا يبقى لهم فى السماء عاذر، ولا فى الأرض ناصر.

أصفيتم بالأمر غير أهله (٩) وأوردتموه غير مورده، وسينتقم الله ممن ظلم، مأكلا بمأكل، ومشربا بمشرب، من مطاعم العلقم،

(١) عبيط الدماء: الطرى منها.

(٢) الثلم: الكسر، يعنى أنها تنتهك الدين وتقلص نفوذه وولايته بترك العمل به وظلم أهله والداعين إليه.

(٣) الكيس: الحاذق العاقل.

(۴) الأرجاس: الأشرار.

(۵) قتيل مطلول: مهدور الدم، لا دية ولا قصاص.

(۶) الختل: الخداع، يعنى يخدعون الناس بحلف الأيمان وإظهار شعار الإسلام.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١۵١.

(٨) ترحة: حزن وألم.

(٩) أصفيت فلانا كذا: أعطيته إياه خالصا، يعنى أعطيتم السلطة السياسية فى الإسلام إلى غير أهلها.

(١٨٧)

مفاتيح البحث: الظلم (١)، كتاب نهج البلاغة (١)، الحزن (١)، الدية (١)

صفحه ۱۶۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ١٨٨

ومشارب الصبر والمقر (١)، ولباس شعار الخوف ودثار السيف (٢)، وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام (٣) (۴).

فى هذا النص بين الإمام أيضا طابع الشمول لهذه الفتنة. وذكر جمهور الناس فى كل عصر بالسبب الموضوعى الذى ولدها، ومكن لها، وهو تجاوز الشرعية فى الحاكم والنظام، والانسياق وراء المصالح الخاصة، والأنانيات الفردية والقبلية، وعدم تحمل مسؤوليات الصراع ضد الباطل وأهله.

* ومن ذلك قوله عليه السلام مخاطبا الخوارج، مخبرا لهم بما سيكون عليه حالهم فى نظام الفتنة الآتى حيث لا يجدون الإنصاف والعدل، والتفهم لأوضاعهم وآمالهم التى يجدونها فى نظام العدل الذى يقوده الإمام.

أما إنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا، وسيفا قاطعا، وأثرة (۵) يتخذها الظالمون فيكم سنة (۶).

* تنتصر الفتنة، وتسود مفاهيمها، وتفرض على المجتمع قيمها، وتمضى على ذلك السنون، والفتنة تزداد قوة ومناعة وتسلطا، ويمتد سلطانها لينفذ فى كل زاوية وعلى كل صعيد فى المجتمع، ويسود الإعتقاد بأن كل شئ قد انتهى، وبأن التاريخ قد استقر على هذه الصيغة إلى النهاية، وتنشأ على هذا الإعتقاد أجيال بعد أجيال.

ولكن هـذا الإعتقاد خاطئ، فحركة التاريخ لا تتوقف عند صـيغة بعينها، بل هى دائبة التقلب والتغير، وسـيكون لانتصار الفتنة واسـتقرار سلطانها نهاية قد لا تنتهى بها الفتنة، ولكنها تواجه مقاومة جديدة.

(۱) الصبر: عصارة شجر مر، والمقر: السم.

(۲) الشعار من الملابس ما يكون على الجلد، والدثار ما يكون على الثياب.

(۳) الزاملة الناقة أو الدابة التى يحمل عليها المتاع.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۸.

(۵) الأثرة: الاستبداد بالخيرات دون الآخرين.

(۶) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۵۸.

(۱۸۸)

مفاتيح البحث: الخوارج (۱)، الباطل، الإبطال (۱)، الخوف (۱)، الصبر (۲)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۶۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۸۹

تنشأ هـذه المقاومة من حق اسـتعاد بعضا من حيويته فهو لا يطيق السـكوت، فيعبر عن نفسه بالثورة، لا لينتصـر، فقد يكون انتصار الحق بعيـد المنال فى هذه المرحلة من التاريخ، ولكن ليكسـر من غلواء الفتنة، ويعطل جانبا من عملها التخريبى فى عقيدة الأمة وشخصـيتها، وذلك حين يسلب الفتنة الشعور بالاستقرار والأمان، فيحملها على اتخاذ موقف الدفاع عن نفسها والتخلى عن بعض مناهجها التخريبية، ويحملها على أن ترتد ولو قليلا إلى الصواب.

أو تنشأ هـذه المقاومـة من أزمات داخل الفتنـة نفسـها، تولـد فتنا تزعـج أهل السـلطان القـديم، وتأتى إلى سدة السـلطان بقوم آخرين، ويكون بين أولئك وهؤلاء فرج لأهل الإيمان، ونهضة لأهل الحق فى غفلة أهل السلطان.

قال عليه السلام:

حتى يظن الظان أن الـدنيا معقولة على بنى أمية (۱)، تمنحهم درها (۲)، وتوردهم صـفوها، ولا يرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها، وكذب الظان لذلك، بل هى مجة (۳) من لذيذ العيش يتطعمونها برهة، ثم يلفظونها جملة (۴).

وقال عليه السلام فى نص آخر يخاطب بنى أمية:

فما احلولت لكم الدنيا فى لذتها، ولا تمكنتم من رضاع أخلافها (۵) إلا من بعد ما صادفتموها جائلا خطامها (۶)، قلقا وضينها (۷)، قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود (۸)، وحلالها بعيدا غير موجود، وصادفتموها والله، ظلا ممدودا إلى أجل معدود.

(۱) معقولة..: مقصورة عليهم، دائمة لهم، من عقل الناقة إذا حبسها بالعقال فى مكان بعينه.

(۲) الدر: اللبن، يعنى خيرات الدنيا والذاتها.

(۳) مجة: مصدر مرة، من مج الشراب من فيه، يعنى أنها لا تدوم لهم كما يتوهم الناس وإنما يمجونها ويلفظونها رغما عنهم.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۸۷.

(۵) الأخلاف جمع خلف: حملة ضرع الناقة.

(۶) الخطام: ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به، يعنى أن تخاذل أهل الحق عن نصرة الحق مكن لأهل الباطل من الإنتصار.

(۷) الوضين: حزام عريض يشد به الرحل على الناقة، وهو كناية عن تخاذل أهل الحق الذى مكن لأهل الباطل من النصر.

(۸) السدر: شجر النبق، والمخضود: المقطوع شوكه. يعنى أنكم انتصرتم بأقوام يستحلون حرام الله، ولا يتورعون من شئ.

(۱۸۹)

مفاتيح البحث: بنو أمية (۲)، الرضاع (۱)، الظنّ (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)، الباطل، الإبطال (۲)

صفحه ۱۶۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۹۰

فالأرض لكم شاغرة (۱)، وأيديكم فيها مبسوطة وأيدى القادة عنكم مكفوفة، وسيوفكم عليهم مسلطة، وسيوفهم عنكم مقبوضة. ألا وإن لكل دم ثائرا، ولكل حق طالبا. وإن الثائر فى دمائنا كالحاكم فى حق نفسه، وهو الله الذى لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب. فاقسم بالله يا بنى أمية: عما قليل لتعرفنها فى أيدى غيركم، وفى دار عدوكم (... ۲).

وقال عليه السلام:

.. فاقسم ثم أقسم لتنخمنها أمية من بعدى كما تلفظ النخامة (۳)، ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبدا ما كر الجديدان (۴) (۵).

* وهكذا يرى الإمام ببصيرته التى تضئ آفاق المستقبل الملفح فى ظلمات الزمان إلا فى حركة التاريخ الهادرة، والقوى السياسية التى يحبل بها المجتمع فى الحاضر وسيلدها فى الآتى من الأيام، لتحرم الفتنة من لذات انتصارها، وتتراجع إلى مواقع الدفاع عن نفسها، وتبدل القوى الحاكمة بقوى جديدة، عادلة أو ظالمة.

(۱) شاغرة: خالية، يعنى لم يقاومكم أحد.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۰۵.

(۳) نخم: أخرج النخامة من صدره، وهى المواد المخاطية، كنى بذلك عن سلطان بنى أمية.

(۴) الجديدان: الليل والنهار. يعنى أنهم لا يعودون إلى السلطة أبدا.

(۵) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۸.

(۱۹۰)

مفاتيح البحث: بنو أمية (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۶۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۹۱

۵ - الثورة الفتنة تنمو، ويتسع سلطانها، ويزيد شيئا فشيئا عدد الساخطين عليها: من أبنائها الذين نبذتهم بعد أن استغنت عنه، ومن الصفوة الذين قامت فى أساسها ضدهم، ومن أولئك الذين لم يكن يعنيهم الأمر فى شئ، ولكنهم اكتشفوا - بعد انتصار الفتنة التى لم يحاربوها أول الأمر - أنهم قد غدوا من ضحاياها ... هؤلاء جميعا الذين تجملهم كلمة أمير المؤمنين فى تصويره لمعاناة الناس من الفتنة بقوله:

...وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكى لدينه، وباك يبكى لدنياه (۱).

ويرى هؤلاء جميعا أن النظام، نظام الفتنة، ظالم. وكل فريق يرى ظلم هذا النظام من منظوره الخاص:

بعضهم يرى ظلم النظام من منظوره النفعى الخاص، أو الفئوى، أو القبلى، دون أن يبالى بانتهاك الثورة لحقوق أشخاص آخرين أو فئات أخرى، ودون أن يبالى بتجاوز النظام للشريعة وتعطيل دور الأمة الرسالى فى العالم، وتحويلها إلى فئات محتربة متخاصمة فقدت وحدتها الداخلية.

وبعضهم الآخر يرى ظلم النظام من منظور رسالى وشرعى يتجاوز مصالحه الشخصية ومصالح فئته وقبيلته.

كل الفئات الساخطة على النظام ترى ظلم هذا النظام ... هذا الظلم الذى هو

(۱) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۹۸.

(۱۹۱)

مفاتيح البحث: الظلم (۲)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۶۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۹۲

حصيلة التعارض بين القانون كما يراه كل فريق من منظوره الخاص وبين سياسة الدولة.

وتتأهب كل فئة - بوسائلها الخاصة - للعمل من أجل تصحيح الوضع القائم برفع التعارض بين الواقع السياسى للدولة وبين القانون، بإرغام الدولة على أن تعود فى سياستها إلى القانون، أو بتغيير الفئة الحاكمة نفسها.

والوسيلة إلى إنجاز عملية التصحيح هذه هى الثورة.

إذن، عملية الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة وممارساته قد تكون ثورة عادلة، وقد تكون أزمة فى داخل الفتنة نفسها. نعنى: فتنة جديدة تولد من فشل الفتنة الحاكمة فى إرضاء قوى سياسية فى المجتمع تحمل نفس المفاهيم التى تحملها الفتنة الحاكمة (۱).

إن الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة له فائدة إيجابية كبرى وهامة سواء أكان القائمون بالاحتجاج عادلين أو مفتونين.

هذه الفائدة هى إدخال الاضطرابات والقلق على هذا النظام وحرمانه من فرص الاستقرار والشعور بالأمن التى تتيح له المضى فى تزوير الشريعة وإفساد القيم. وتتيح لقوى الخير والحق الصامدة فى الأمة أن تتنفس قليلا، وتمارس دورها فى توعية الأمة بحرية نسبية لم تكن لتتاح لها لو أن نظام الفتنة نعم بالسلام والاستقرار.

* وقد كان موقف الإمام إيجابيا من حركات الإحتجاج على نظام الفتنة الذى سيقوم من بعده، لأنه إذا لم يكن من المتاح - نظرا لما تقضى به حركة التاريخ - انتصار الشرعية الكاملة فى المدى المنظور، فان من الخير ألا تتاح لنظام الفتنة فرصة للتمكن والاستقرار، ومن الخير أن يبقى نظام الفتنة فى أجواء الخوف والحذر، وحالة الدفاع.

(۱) نحن نعبر بمصطلح (ثورة) فى التاريخ الإسلامى عن العمل السياسى الذى يتمتع بالشرعية، وما عدا ذلك لا نسميه ثورة، وإنما نسميه تمردا، أو خروجا، أو فتنة.

وإنما جعلنا عنوان هذا الفصل (الثورة) - مع أن البحث فيه يشمل الإحتجاج بالعنف بجميع ألوانه (الشرعية وغير الشرعية) لغرض بيانى فقط. هو إيثار بساطة العنوان على تعقيده.

(۱۹۲)

مفاتيح البحث: الخوف (۱)

صفحه ۱۶۵

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۹۳

ومن هنا كان توجيهه بشأن الخوارج الذين تمظهرت فيهم الفتنة بمظهر الرفض المطلق للأنظمة القائمة، ومن ثم فهم مؤهلون لأن يشكلوا قوة مزعجة لنظام الفتنة المنتصر.

لقد نهى الإمام عن قتال الخوارج من بعده، مع إنه، هو، قاتلهم فى خلافته، - لأنهم - حين قاتلهم وقتلهم فى النهروان بعد أن رفضوا كل عروض السلام، وبعد أن رفضوا التخلى عن مواقفهم - كانوا يمثلون قوة هادمة لنظام عادل، أما فى نظام الفتنة فإنهم يمثلون قوة

شالة وشاغلة لهذا النظام الجائر المنحرف عن أن يمارس طغيانه المادى والسياسى، وينفذ خطط التحريف العقيدى والشرعى. قال عليه السلام:

لا تقاتلوا الخوارج بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه (۱).

وقد كان عليه السلام يرى الثورة آتية.

إنه لا يصف هذه الثورة بأنها عادلة مستقيمة، أو ظالمة مفتونة، وإنما يرى أن نظام الفتنة المنتصر لا يتمتع طويلا بانتصاره واستقراره، بل ستسلب منه لذة النصر وحرية الحركة التى يتيحها النصر والاستقرار السياسى والاجتماعى، ثورات دامية تتوالى فتقضى فى النهاية على فتنة بنى أمية، وتزيل ملكهم.

قال، وهو يحدث جمهوره عن الفتنة وانتصارها، والمعاناة من ويلاتها وشرورها:

...ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم (۲)، بمن يسومهم خسفا (۳)، ويسوقهم عنفا، ويسقيهم بكأس مصبرة (۴)، لا يعطيهم إلا السيف، ولا يحلسهم إلا الخوف (۵) فعند ذلك تود قريش - بالدنيا وما فيها - لو يروننى مقاما واحدا، ولو قدر جزر جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه (۶).

(۱) نهج البلاغة، رقم النص - ۶۱.

(۲) الأديم الجلد، وتفريجه سلخه: يعنى أن الله يسلخ سلطان بنى أمية عن الأمة مع شدة رسوخه ولصوقه.

(۳) الخسف: الذل. يعنى أن الثورة الآتية تعاملهم بالإذلال.

(۴) مصبرة مملوءة إلى أصبارها بمعنى حافتها، يعنى لا يرحمهم ولا يخفف عنهم.

(۵) حلس البعير: كساء يوضع على ظهره، يعنى أن الثورة الآتية تلبس بنى أمية الخوف.

(۶) نهج البلاغة - رقم النص: ۹۳.

(۱۹۳)

مفاتيح البحث: بنو أمية (۳)، الخوارج (۳)، القتل (۳)، الخوف (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، الصبر (۱)

صفحه ۱۶۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۹۴

والإمام يرى أن من الهموم الكبرى لنظام الفتنة المنتصر تشتيت القوى السياسية والعقيدية المناهضة له، سواء أكانت هذه القوة أو تلك قد حافظت على نقائها الإسلامى أو تلوثت بغبار الفتنة بشكل أو بآخر.

ولكنه يرى أيضا أن محاولات نظام الفتنة لتشتيت القوى المضادة له لن تستمر فى النجاح، فان حركة التاريخ تعمل على تجميع هذه القوى من جديد وفقا لصيغ سياسية جديدة، ويكون ذلك إيذانا بنهاية الاستقرار لنظام الفتنة الأموى.

قال عليه السلام:

...وأيم الله لو فرقوكم تحت كل كوكب، لجمعكم الله لشر يوم لهم (۱).

وقال عليه السلام:

افترقوا بعد ألفتهم، وتشتتوا عن أصلهم، فمنهم آخذ بغضن أينما مال مال معه على أن الله تعالى سيجمعهم لشر يوم لبنى أمية، كما تجتمع قزع الخريف (۲)، يؤلف الله بينهم، ثم يجمعهم ركاما كركام السحاب (۳)، ثم يفتح لهم أبوابا يسيلون من مستشارهم كسيل الجنتين، حيث لم تسلم عليه قارة، ولم تثبت عليه أكمة (۴)، ولم يرد سننه رص طود ولا حداب أرض (۵)، يزعزعهم الله فى بطون أوديته (۶) ثم يسلكهم ينابيع فى الأرض، يأخذ بهم من قوم حقوق قوم، ويمكن لقوم فى ديار قوم وأيم الله ليذوبن ما فى أيديهم بعد

العلو والتمكين كما تذوب الألية على النار (۷).

*(۱) نهج البلاغة – رقم النص: ۱۰۶.

(۲) القزع: القطع المتفرقة من السحاب.

(۳) ركام السحاب: السحاب المتراكم. والمستشار مكان تجمعهم وانطلاقهم ثائرين، وسيل الجنتين السيل الذى دمر الله به قوم سبأ وحضارتهم عندما طغوا وبطروا.

(۴) القارة: ما اطمأن من الأرض. والأكمة: ما ارتفع من الأرض، يعنى أن الكارثة ستكون شاملة عليهم لا يفلت منها أحد منهم ولا مؤسسة من مؤسسات دولتهم.

(۵) السنن: الجرى، والطود: الجبل العظيم، والحداب: المرتفعات. والمراد هنا هو المراد فى رقم (۳).

(۶) يزعزعهم: يفرقهم فى بطون الأودية حيث يختفون، كناية عن أماكن اختفائهم، ثم يجمعهم.

(۷) نهج البلاغة – رقم النص: ۱۶۶.

(۱۹۴)

مفاتيح البحث: بنو أمية (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۶۷

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۹۵

ومن أروع رؤاه لحركة التاريخ فى المستقبل رؤيته لحركة الخوارج التمردية، وكيف أنها ستنمو وتتشعب على رغم ما يبدو فى الحاضر من مظاهر اندثارها وانقطاع أصلها، وذلك أنه لما قتل الخوارج قيل له: يا أمير المؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال:

كلا والله. إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء (۱) كلما نجم منهم قرن قطع (۲) حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين (۳).

* وهكذا تأتى الثورة فى أعقاب انتصار الفتنة فتحول بينه وبين الاستقرار، وتحول بين أدواته وبين أن تمكن لمفاهيمها فى الأمة، وتتيح بذلك فرصا لقوى الخير الباقية أن تنعم بشئ من الأمان، وأن تقدر على شئ من الحركة يتيح لها إبقاء النور الصافى متألقا فى ظلمات الفتنة، فى عقول وقلوب كثيرة، بانتظار الأمل الكبير، والنصر النهائى الكبير.

(۱) قرارات النساء: أرحام النساء.

(۲) نجم: ظهر. قرن: رئيس أو جماعة.

(۳) نهج البلاغة – رقم النص: ۶۰.

(۱۹۵)

مفاتيح البحث: الخوارج (۲)، القتل (۱)، الهلاك (۱)، كتاب نهج البلاغة (۱)

صفحه ۱۶۸

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۹۷

۶ – الأمل الإنسان يعيش فى الحاضر مشدودا بين وترين: الماضى والمستقبل، فهو لا ينى يحمل الماضى فى وعيه، وفى ذاكرته، وفى تركيب جسده، مثقلا بأحزانه وأفراحه، ومخاوفه وآماله، مندفعا بها نحو المستقبل، يضئ عينيه نور الأمل الذى يغمر قلبه بالحياة الأفضل. ولكنه أمل معذب بالحيرة، والقلق، والمخاوف من خيبات الأمل.

وهذه الحقيقة بارزة فى تكوين وحياة الإنسان الفرد بوضوح، وهى لا تقل وضوحا فى حياة الأمم والشعوب والجماعات.

وقد وقف الإسلام فى تعليمه التربوى الإيمانى للأفراد فى وجه الميل إلى الإغراق فى الأمل، لأنه حين يشتد ويغلب على مزاج الإنسان يجعله غير واقعى، ويحبسه فى داخل ذاته، وينمى فيه الشعور ب الأنا على نحو لا ـ يعود الآخرون موضوعا لاهتمامه وعنايته أو يجعله قليل الاهتمام بهم، وهذا أمر مرفوض فى دين يجعل الاهتمام الشخصى بالآخرين أحد المقومات الأساسية للشخصية الإنسانية السليمة، ولأن الاغراق فى الأمل يحول بين الإنسان وبين كثير من فرص كثيرة للتكامل الروحى والأخلاقى.

والنصوص القرآنية فى هذا الشأن كثيرة، كذلك النصوص النبوية الواردة فى السنة. وقد حفلت مواعظ الإمام على فى نهج البلاغة بالتحذير من الاسترسال مع الآمال (۱).

(۱) راجع دراسة موسعة ومعمقة عن هذا الموضوع فى فصل (الوعظ) من كتابنا، دراسات فى نهج البلاغة – الطبعة الثالثة.

(۱۹۷)

مفاتيح البحث: كتاب نهج البلاغة (۲)

صفحه ۱۶۹

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۱۹۸

وهذا لا يعنى – بطبيعة الحال – أن تأميل الإنسان فى مستقبله – باعتدال وواقعية – ممارسة غير أخلاقية فى الإسلام، كيف وقد حذر الله تعالى فى القرآن الكريم من اليأس ونهى عنه فى آيات تذكر برحمة الله وروح الله، ومن ذلك تعليم يعقوب سلام الله عليه لبنيه حين أمرهم بالبحث عن يوسف وأخيه، وذلك كما ورد فى قوله تعالى:

يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله.

إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (۱).

فإن يعقوب طبق مبدأ مشروعية الأمل العام المطلق على حالة فردية هى حالته وحالة بنيه.

وإذن، فالأمل، فى نطاق الواقع، حقيقة كيانية فى الإنسان، قد يكون فقدانها ظاهرة مرضية نفسية وليس علامة عافية.

هذا على الصعيد الفردى.

وأما على الصعيد الجماعى فى الأمم والشعوب والجماعات فان الأمل عامل هام جدا وأساسى فى تنشيط حركة التاريخ وتسريعها، وجعلها تتغلب بيسر على ما يعترضها من صعوبات ومعوقات.

والأمل الموضوعى القائم على اعتبارات عملية تنبع من الجهد الإنسانى، واعتبارات عقيدية وروحية ... هذا الأمل يشغل حيزا هاما وأساسيا فى تربية الله تعالى للبشرية السائرة فى حياتها على خط الإيمان السليم.

وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات محكمات تتضمن وعد الله تعالى بالنصر والعزة لأهل الإيمان وقادتهم من الأنبياء والتابعين لهم بإحسان.

قال الله تعالى:

إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (۲).

(۱) سورة يوسف (مكية – ۱۲) الآية: ۸۷.

(۲) سورة المؤمن (مكية – ۴۰) الآية: ۵۱.

(۱۹۸)

مفاتيح البحث: القرآن الكريم (۲)، سورة يوسف (۱)

صفحه ۱۷۰

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۱۹۹

وقال تعالى:

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون (۱).

وقال تعالى:

إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (۲).

وقد وجه الله تعالى فى القرآن الكريم رسوله محمدا (ص) والمسلمين إلى أن الأمل بالنصر والحياة الأفضل يجب أن يبقى حيا نابضا دافعا إلى العمل حتى فى أحلك ساعات الخذلان والهزيمة وانعدام الناصر ... لقد كانت الآمال بالنصر تتحقق فى النهاية على أروع صورها حين يخالج اليأس قلوب أهل الإيمان، وحين يصل الرسل الكرام إلى حافة اليأس:

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا، أفلا تعقلون. حتى إذا استيئس الرسل، وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا، فنجى من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين. لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه. وتفصيل كل شئ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (۳).

* إن الأمل الجماعى بمستقبل أكثر إشراقا وأقل عذابا، أو مستقبل مترع بالفرح خال من المنغصات ... إن هذا الأمل يستند إلى وعد إلهى، فهو، إذن، ليس مغامرة فى المستقبل، وإنما هو سير نحو المستقبل على بصيرة.

وهو أمل يرفض الواقع التجريبى الحافل بالمعوقات نحو مستقبل مثالى مشروط بالعمل المخلص فى سبيل الله، وفى سبيل الله بناء الحياة، وعمارة الأرض، وإصلاح

(۱) سورة الأنبياء (مكية - ۲۱) الآية: ۱۰۵.

(۲) سورة الأعراف (مكية - ۷) الآية: ۱۲۸.

(۳) سورة يوسف (مكية - ۱۲) الآيات: ۱۰۹ - ۱۱۱.

(۱۹۹)

مفاتيح البحث: القرآن الكريم (۱)، سبيل الله (۲)، اليأس (۲)، سورة الأنبياء (۱)، سورة الأعراف (۱)، سورة يوسف (۱)

صفحه ۱۷۱

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۰۰

المجتمع. كما أن هذا المستقبل مشروط بالصبر على الأذى فى جنب الله، والصدق فى تناول الحياة والتعامل معها ومع المجتمع والرضا بقضاء الله تعالى.

والسنة حافلة بالنصوص التى تغرس فى قلب الإنسان روح الأمل، وتملأ وعيه ببشائر المستقبل الأفضل، استنادا إلى وعد الله تعالى.

* والتأمل العميق الواعى فى نصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة التى تفصح عن العلاقة بين الله والإنسان، وتكشف عن طبيعة هذه العلاقة ... كذلك التأمل فى الفقه المبنى على هذين الأصلين ... إن هذا التأمل يكشف عن أن العلاقة بين الله والناس مبنية على ثلاث حقائق ربانية يقوم عليها وجود المجتمع البشرى، وديمومته، ونموه وتقدمه:

۱ - الحقيقة الأولى هى الإنعام المطلق غير المشروط بشئ على صعيد الشروط المادية للحياة بما يكفل لها الديمومة والنمو التصاعدى

نحو الأفضل، فقد خلق الله الإنسان، وزوده بالمواهب العقلية والنفسية والروحية، التى تتيح له أن يتعامل مع الطبيعة المسخرة له، وتمكنه من اكتشاف خيراتها وكنوزها، ومعرفة قوانينها وتوجيه هذه الاكتشافات والمعارف لخدمة نفسه ونوعه.

۲ – الحقيقة الثانية هى الرحمة التى كتبها الله على نفسه (۱) والتى وسعت كل شئ (۲)، وإقالة العثرات – على صعيد الأمم والجماعات والمجتمعات، والأفراد –، والتجاوز عن الخطايا والسيئات، ومنع الفرص المتجددة لتصحيح السلوك، وتقويم

(۱) قال تعالى: قل لمن ما فى السماوات والأرض؟ قل لله، كتب على نفسه الرحمة سورة الأنعام (مكية – ۶) الآية ۱۲ وقال تعالى: وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم سورة الأنعام (مكية – ۶) الآية: ۵۴.

(۲) قال تعالى ... ذو رحمة واسعة، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين سورة الأنعام (مكية – ۶) الآية: ۱۴۷. وقال تعالى: قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ، فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون سورة الأعراف (مكية – ۷) الآية: ۱۵۶. وقال تعالى ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم سورة المؤمن (مكية – ۴۰) الآية: ۷.

(۲۰۰)

مفاتيح البحث: الكرم، الكرامة (۱)، الجنابة (۱)، سورة الأنعام (۲)، سورة الأعراف (۱)، الوسعة (۱)

صفحه ۱۷۲

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام – الشيخ محمد مهدى شمس الدين – الصفحة ۲۰۱

الإعوجاج، والتوبة والإنابة إلى الله تعالى والعمل بقوانينه وشرائعه.

وهذه الحقيقة نابعة من معادلة تقابل بين حقيقتين كونيتين:

أ – خيرية الله الشاملة المطلقة.

ب – الحقيقة الموضوعية الثابتة فى الفكر الإسلامى، وهى أن الإنسان خلق ضعيفا (۱).

وما يخالف هذه الحقيقة من الآلام والكوارث فهو على قسمين:

الأول – ناشئ عن عمل الطبيعة وقوانينها، وهى قوانين تعمل، فى غرضها الأقصى، لخير الجنس البشرى بصورة شاملة وغير مقيدة بزمان أو رقعة جغرافية، وهذا ما يجعلها قوانين عادلة وإن أصابت بالآلام بعضا من البشر فى زمان بعينه أو مكان بعينه.

وهذا بالنسبة إلى الكوارث الطبيعية التى تحصل بغير تدخل من الإنسان أو تقصير منه. أما ما يحدث فى الطبيعة نتيجة لعمل الإنسان نفسه أو سلبيته، أو عدم التزام بالقوانين (فى عصرنا الحاضر: تلويث البيئة، مثلا، أو روح الاستغلال والعدوان فى المجتمعات الصناعية ضد العالم الثالث، مثلا ...) هذا النوع من الكوارث يدخل فى القسم الثانى التالى.

الثانى – ناشئ عن سوء اختيار الإنسان، واستعجاله الخير قبل توفر شروطه ونضجها، ومن عدوان بعضه على بعض.

۳ – الحقيقة الثالثة هى البشارة من الله تعالى بأن أمور الحياة والمجتمع تصير إلى أفضل وأحسن مما عليه فى الحاضر. ولكن هذه البشارة لا تتحقق بطريقة إعجازية محضة.

إن تحقيق البشارة يتم وفاء بالوعد الإلهى، ومن ثم ففيها عنصر غيبى غير تجريبى، ولكن تحقيقها مشروط بالعمل البشرى:

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا (۲).

(۱) قال الله تعالى: يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفا، سورة النساء (مدنية – ۴) الآية: ۲۸.

(۲) سورة الإسراء (مكية – ۱۷) الآية: ۹.

(۲۰۱)

مفاتيح البحث: القرآن الكريم (۱)، الإختيار، الخيار (۱)، سورة الإسراء (۱)، سورة النساء (۱)

صفحه ۱۷۳

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۰۲

والـذين اجتنبوا الطـاغوت أن يعبـدوها وأنابوا إلى الله لهم البشـرى، فبشـر عباد الـذين يسـتمعون القول فيتبعون أحسـنه، أولئك الـذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب (۱).

...وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا (۲).

* من هذا المنطلق الثابت فى الفكر الإسـلامى، ومن البشائر المحددة فى الكتاب الكريم والسنة النبوية بفرج شامل آت فى النهاية يملأ عدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا ... من هذا المنطلق، ومن هذه البشائر كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام يرى نور الأمل فى المستقبل، وكان يبشر بأن فرجا آتيا لا ريب فيه:

إن حركة التاريخ تقضى به، وإن وعد الله يقضى به، والله لا يخلف الميعاد.

وقـد كـانت رؤيـة الإمـام لحركـة التاريـخ فى المسـتقبل لا تقتصـر على رؤيـة النكبات والكوارث - كما توحى بـذلك كثرة النصوص الحاكيـة عن ذلك فى نهـج البلاغـة - وإنما تشـمل البشائر أيضا، وقـد تقـدم فى الحديث عن (المعاناة) وعن (الثورة) بعض النصوص الدالة على ذلك.

وكانت رؤيـة الإمام دقيقـة، محـددة، مضـيئة، واضـحة المعالم، فى نطاق الخطوط الكبرى والتيارات الأساسـية لحركـة التاريخ، وإن لم تشـتمل على التفاصيل، من ذلك هذا الشاهد على رؤيته لحركة الثورة العادلة التى لا تنطفئ مهما تكالبت عليها الرياح الهوج، فقد قال له بعض أصحابه، لما أظفره الله بأصحاب الجمل: وددت أن أخى فلانا كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك فقال له الإمام (ع):

أهوى أخيك معنا (۳)؟ فقال: نعم. قال: فقد شـهدنا فى عسـكرنا هذا أقوام فى أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان (۴) ويقوى بهم الإيمان (۵).

(۱) سورة الزمر (مكية - ۳۹) الآية: ۱۷ - ۱۸.

(۲) سورة الأحزاب (مدنية - ۳۳) الآية: ۴۷.

(۳) الهوى: الميل والرغبة، يعنى هنا الموقف السياسى.

(۴) يرعـف بهم.. يوجـدون فى المجتمع من غير أن يتوقع وجودهم لاختلافهم النوعى الأساسـى عن الأخلاقيـة والذهنيـة السائـدة فى المجتمع، فيفاجأ المجتمع بوجودهم.

كما يفاجئ الرعاف صاحبه.

(۵) نهج البلاغة - رقم النص: ۱۲.

(۲۰۲)

مفاتيح البحث: الإمام أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليهما السلام (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، سورة الأحزاب (۱)، سورة الزمر (۱)

صفحه ۱۷۴

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۰۳

هـذا الأمل الكبير الآتی الـذی یبشـر به الإمام علیه السـلام یتمثل فی قیام ثورة عالمیة تصـحح وضع عالم الإسـلام، ومن ثم وضع العالم کله، یقودها رجل من أهل البیت هو الإمام المهـدی. وقـد وردت فی نهـج البلاغـة نصوص قلیلـة نسبیا تحدد بعض ملامح هذا الأمل، فمن ذلک قوله علیه السلام:

...حتی یطلع الله لکم من یجمعکم، ویضم نشـرکم (۱) (۲) والعقیدة بالمهدی عقیدة إسـلامیة ثابتة أجمع علیها المسـلمون بأسرهم، ودل علیها القرآن الکریم فی جملة آیات، والسـنة الشریفة فی مئات الأحادیث المتواترة عن رسول الله (ص) وأئمة أهل البیت. قال ابن أبی الحدیـد فی التعلیق علی النص الآنف: ثم یطلع الله لهم من یجمعهم ویضـمهم، یعنی من أهل البیت علیه السـلام. وهـذا إشارة إلی المهدی الذی یظهر فی آخر الوقت. وعند أصحابنا إنه غیر موجود الآن وسیوجد، وعند الإمامیة إنه موجود الآن (۳).

وقـال ابن أبی الحدیـد فی التعلیق علی نص آخر مماثـل للنص الآـنف: فإن قیل: ومن هـذا الرجل الموعود الـذی قال علیه السـلام عنه (بـأبی ابن خیرة الإمـاء)؟ قیـل: أمـا الإمامیـة فیزعمون أنه إمامهم الثانی عشـر، وأنه ابن أمـة اسـمها نرجس، وأما أصـحابنا فیزعمون أنه فاطمی یولد فی مستقبل الزمان لأم ولد (۴) ولیس بموجود الآن (۵).

ومن النصوص التی اشتمل علیها نهج البلاغة فی هذا الشأن قول الإمام:

ألا وفی غـد - وسـیأتی غـد بما لا تعرفون - یأخـذ الوالی من غیرها عمالها علی مساوئ أعمالها، وتخرج له الأرض أفالیـذ کبدها (۶)، وتلقی إلیه سلما مقالیدها، فیریکم کیف عدل

(۱) یضم نشرکم: یجمع شتاتکم ویوحد مواقفکم فی حرکة تاریخیة واحدة.

(۲) نهج البلاغة - رقم النص: ۱۰۰.

(۳) ابن أبی الحدید: شرح نهج البلاغة - ۷ / ۹۴.

(۴) أم ولد: کنایة عن الأمة المملوکة.

(۵) المصدر السابق: ۷ / ۵۹.

(۶) الفلـذة: القطعة. والکبد فی المعتقد الطبی القدیم من أشـرف أعضاء الإنسان وأکثرها أهمیة فی بقائه وصـحته، فهی تخرج الأرض: أفضل کنوزها وثرواتها.

(۲۰۳)

مفاتیـح البحث: أهل بیت النبی صـلی الله علیه وآله (۱)، إبن أبی الحدیـد المعتزلی (۳)، کتاب نهـج البلاغة (۳)، القرآن الکریم (۱)، کتاب شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید (۱)

صفحه ۱۷۵

التاریخ وحرکة التقدم البشری ونظرة الإسلام - الشیخ محمد مهدی شمس الدین - الصفحة ۲۰۴

السیرة، ویحیی میت الکتاب والسنة (۱).

هذا الأمل المضـئ فی الظلمات لیس أملا قریبا إذا نظرنا إلیه بمنظار آمال الأفراد - کل واحد بخصوصه -، فقد یمضی الموت بالأفراد دون أن تکتحل عیونهم بفجر هـذا الأمل ... إنه بالنسـبة إلیهم - کأفراد - بعیـد ... بعید. کذلک هو أمل بعید بالنسـبة إلی کل مجتمع بمفرده وخصوصه، فقـد تمضـی القرون علی مجتمع دون أن یحقق فی نظامه، ومؤسـساته هـذا الأمل العظیم ... ولکن هـذا الأمل علی مستوی النوع البشـری کله أمـل قریب، لأـن الأحـداث التی تغیر مسـار الجنس البشـری کله لاـ تقـاس بأعمـار الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات ولا بالحرکـة التاریخیة فی هذا النطاق أو ذاک أو ذیاک، وإنما تقاس بما تناسب مع حجم النوع الإنسانی کله، ومع حرکة التاریخ العالمی کلها ... إن ألف سنة، مثلا، فی عمر فرد زمن کبیر طویل ... کذلک الحال بالنسبة إلی عمر حرکة تاریخیة فی مجتمع

من المجتمعات، ولكن ألف سنة فى عمر البشرية كلها زمن قصير بالنسبة إلى فترات التحول التاريخية الكبرى التى أدخلت تغييرا أساسيا على المسار التاريخى للجنس البشرى كله، فنقلته من مستوى معين إلى مستوى أعلى منه مرتبة ونوعية. إن فترات التحول التاريخية الكبرى - كما نعلم - تستغرق ألوف السنين، أو - بالأحرى - عشرات الألوف من السنين ... إنها حركة التاريخ الكبرى (۲). وفى انتظار أن تنجز حركة التاريخ الكبرى عملها فى نقل الإنسانية إلى مستوى أعلى لم تفلح فى بلوغه من قبل.. فى انتظار ذلك تستمر حركة التاريخ فى دوائرها الصغرى فى العمل على تغيير حال البشر: أفرادا، وجماعات، ومجتمعات، ومجموعات إقليمية.

(۱) نهج البلاغة - رقم النص: ۱۳۸.

(۲) لعل ابن أبى الحديد قد طافت بذهنه هذه الفكرة حين قال معلقا على أحد نصوص نهج البلاغة بهذا الشأن: ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إن تكامل صنائع الله عندكم، ورؤية ما تأملونه أمر قد قرب وقته، وكأنكم بعد قد حضر وكان، وهذا (على نمط المواعيد الإلهية بقيام الساعة، فإن الكتب المنزلة كلها صرحت بقربها، وإن كانت بعيدة عنا، لأن البعيد فى معلوم الله قريب، وقد قال سبحانه (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) شرح نهج البلاغة ۷ / ۹۵.

(۲۰۴)

مفاتيح البحث: الموت (۱)، إبن أبى الحديد المعتزلى (۱)، كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (۱)، كتاب نهج البلاغة (۲)، الفرج (۱)

صفحه ۱۷۶

التاريخ وحركة التقدم البشرى ونظرة الإسلام - الشيخ محمد مهدى شمس الدين - الصفحة ۲۰۵

إن حركة التاريخ فى دوائرها الصغرى تغير الإنسان نحو الأفضل على الصعيد المادى كما يثبت ذلك الواقع التجريبى، ولكنها لا تغيره نحو الأفضل دائما على الصعيد المعنوى والأخلاقى، بل قد تعود به إلى الوراء كما يثبت الواقع التجريبى أيضا، وبالنسبة إلى كثير من مظاهر حضارة عصرنا بشكل خاص.

والمسؤول عن التخلف المعنوى للبشر ليس القدر، إنه إرادة البشر أنفسهم، فإن العالم الأخلاقى لدى الفرد والمجتمع ليس عالما معطى وجاهزا يأخذه الناس كما يستعملون الوصفات الطبية أو المعادلات الرياضية، إنما يتم بناؤه بالمعاناة اليومية للناس مع شهواتهم ورغائبهم الشريرة، ومجاهدتهم لأنفسهم من أجل التغلب عليها. إن العالم الأخلاقى ليس سهل البناء كالعالم المادى التجريبى، لأنه تجاوز الإنسان لنفسه باستمرار نحو إنسانية أغنى وأعلى، ومن هنا فإن العالم الأخلاقى يبنى التعامل مع المستحيل، وكأنه ممكن، إنه فى التكوين دائما، لأن الإنسان كلما بلغ ذروة جديدة فى تكامله المعنوى لاحت لعينيه ذروة أسمى وأعلى.

وإذن، فالبشر، بانتظار أن يتحقق هذا الأمل العظيم، لا يجوز أن يجمدوا وإنما عليهم أن يتحركوا فى أطر دوائر التاريخ الصغرى نحو بلوغ ذرى إنسانية جديدة أعلى مما بلغوه فى كفاحهم الدائب نحو مزيد من الكمال والنور.

وإذن، فالمسلمون، باعتبار أن هذا الأمل العظيم سيتحقق بإذن الله فى نطاقهم بما هم جماعة بشرية عقيدية ومن خلال الإسلام نفسه بما هو دينهم ...، المسلمون ينتظرون هذا الأمل العظيم قبل غيرهم من الجماعات العقيدية فى المجتمع البشرى.

وقد ارتكز فى أذهان الكثيرين ممن عالجوا موضوع المهدى والمهدوية أن هذا المعتقد ... هذا الأمل العظيم الثابت بمقتضى وعد الله فى الكتاب والسنة، والثابت بمقتضى حركة التاريخ الكبرى ... أن هذا المعتقد عامل سلبى فى حركة التقدم والنمو يعوقها، ويبعث على السكون، ويقعد بالناس عن الحركة والسعى نحو التكامل المادى والمعنوى فى انتظار أمل آت ينقذ البشر بالمعجزة، ينقذ البشر بغير جهد البشر.

وربما تكون بعض المظاهر فى تاريخ عالم الإسلام تعزز هذا الإتهام ولكن الحقيقة هى أن هذا اللون من الانتظار السلبى المريض دخل

على ذهنية الإنسان نتيجة لانتكاس حضارى تسلل إليه من بعض الثقافات الأجنبية عن الإنسان، فشل قدرته على العمل، لأنه شل إرادته وفعاليته وحوله إلى حياة التأمل والقناعة والاستسلام.

أما الحقيقة فهى على خلاف ذلك، إن الانتظار - نتيجة لهذا المعتقد - هو انتظار إيجابى فعال، هو تهيؤ واستعداد، هو كدح دائم ومستمر يجب أن يطبع حركة تاريخ الإنسان المسلم نحو توفير أفضل الشروط التى تهيئ لهذا الأمل العظيم أحسن ظروف النجاح والتحقق.

لقد رأينا أن حركة التاريخ فى دوائرها الصغرى لا تتوقف، ونوع هذه الحركة - تقدمية صاعدة أو رجعية هابطة (على صعيد المعنويات والأخلاق) - يتوقف على إرادة البشر أنفسهم، فهم الذين يبنون عالمهم الأخلاقى الأمثل وهو لا يبنى إلا بالعمل الإيجابى الذى يحركه الطموح نحو إنسانية أفضل.

* سلام الله على محمد وآله الطاهرين، وصحبه الذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين.

وسلام الله على أشهر المؤمنين الإمام على أمير المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين.

(۲۰۵)

مفاتيح البحث: يوم القيامة (۱)، الوقوف (۱)، المرض (۱)، الشهوة، الإشتهاء (۱)، الطهارة (۱)، الجواز (۱)

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت – عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثــّلاثيةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّـِى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَـة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتـُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تـُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفـِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.


مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹